الطبعة الثانية

مشير النصر

مذكرات أحمد إسماعيل
وزير الحربية في معركة أكتوبر ١٩٧٣

مجدي الجلاد

دار نهضة مصر للنشر

مشير النصر

مذكرات أحمد إسماعيل

وزير الحربية في معركة أكتوبر 1973

مجدي الجلاد

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية
رقم التسجيل ١١٨٠ ٢٢

دار نهضة مصر للنشر

العنوان:

مشـــيـر النصـــــر

مذكرات أحمد إسماعيل
وزير الحربية في معركة أكتوبر 1973

حررها:

مجدي الجلاد

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم

جميع الحقوق محفوظة © لدار نهضة مصر للنشر

يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين
أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية
أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

الترقيم الدولي: 978-977-14-2788-1
رقم الإيداع: 10526 / 2013
الطبعة الثانية: أكتوبر 2013

تليفون: 33466434 - 33472864 02
فاكس: 33462576 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com

أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة

«لموا الكراريس»...

مجدي الجلاد

كنت في التاسعة من عمري حين دوى صوت الطائرة المقاتلة في السماء.. كان يومًا مختلفًا في المدرسة.. إذ كان مدهشًا لنا جميعًا أن يهرع المعلمون إلى فصولنا المتواضعة، ويطلبوا إغلاق الكتب والكراريس والانصراف فورًا إلى البيوت.. قالت لنا الأستاذة «صباح» بذعر: «لموا الكراريس»، تلك العبارة التي فهمتها بعد ذلك بسنوات، حين قرأت قصة تلاميذ مثلنا في مدرسة بحر البقر.. وعلى خلفية القصة كنت أسمع العبارة ذاتها «الدرس انتهى لموا الكراريس».. مات زملاؤنا في «بحر البقر»؛ لأن طائرات العدو الإسرائيلي لم تجد يومها من يردعها فأحرقت الأطفال الأبرياء.. فأي درس تعلمناه؟!

رضعتُ من ثدي أمي كراهية إسرائيل.. وكان أبي ناظرًا لمدرسة مكتوب على جدرانها «الموت أشرف من الخنوع» و«الكرامة أن تدفن في الأرض التي لا تقوى على تحريرها».. وبين البيت الذي ترعاه أمي والمدرسة التي يكدح فيها أبي بيوت كثيرة مخضبة بدماء الشهداء..

وفـي البيوت حزن على الذين راحـوا، في الهزيمة، وأمل خافت في نصر قـد يأتي أو لا يأتي.. أما أنا فلم يضعني أبي في مدرسته، وإنما حشرني في مدرسة «الشهداء الابتدائية بمنيا القمح»، يومها قال لي: «لا أريدك أن تكـون ابن الناظر».. صدَّقته، ولكنني فيما بعـد عرفت أنه أراد لي أن أتعلم مبكـرًا أن ثمة رجالًا يموتون دفاعًا عن الأرض والعرض، فيقولون عنهـم الشهـداء، ثم ندخل نحـن مدارس الشهداء، حتى لـو لم تُعلمنا المدارسُ كيف نموت مثلهم..!

لم يكن لمدرسة الشهداء بـاب لنخرج منه، فالفصول على الحوش، والحوش على الشارع، وبيتنا في نهاية الشارع، وأمي تنتظرني اليوم على غير العادة أمام «الفصل»، فلا أنا فهمت لماذا هرع المدرسون، وقذفوا بنا مبكرًا خارج الفصول، ولا أنا عرفت لماذا جاءت أمي مهرولة لتأخذني في حضنها إلى البيت.. ثمة شيء غير اعتيادي يحدث اليوم، حتى السماء، كانت تهتز من صوت الطائرات، ورغم ذلك كنت أسمع دقات قلب أمي ممتزجـة بدعائها.. يا رب انصرهم، يا رب ما تخيّب أملهم.. وكنت أردد معهـا «آميـن»، دون أن أعرف شيئًـا، فهي أمي التي تدعـو، والمؤكد أن دعاءهـا خير، ولكن يدها القابضة علـى يدي ترتجف.. سألتها «هو فيه إيه؟».. لم ترد وواصلت الدعاء، ثم قذفت بي إلى جوار إخوتي في البيت، وفتحت التليفزيون والراديو، وهي تتلو آية الكرسي..!

إنها الحرب.. عرفت ذلـك بعد لحظات.. فلا حديث لأحد في البيت أو خارجـه إلا عنها.. والواقع أنني لم أتابعها عبر الراديو أو التليفزيون، ففـي بلكونـات المنازل بالشرقيـة، وعلى مقربة من مـدن القناة، ثمة أماكـن أثيـرة لمتابعة الطائـرات، وطوال سنـوات الاستنزاف، كانت الطائـرات تجوب السمـاء، فيحلو لي أن أصادقهـا.. هي تمنحني متعة

النظر إلى أعلى، وأنا أحصيها وهي ذاهبة، ثم أتمم عليها في إيابها.. لذا ارتبطت الحرب في ذهني بالطائرات والطيارين.. غير أنني حين كبرت لم أحب اختزال نصر أكتوبر في الراحل أنور السادات بطل الحرب والسلام، وحسني مبارك بطل الضربة الجوية، رغم أنه طيار..!

طوال أربعين عامًا، خضعت حرب أكتوبر لهواية مصرية قديمة لا نريد أن نبرحها: كتابة التاريخ بالهوى الشخصي.. الحقائق هي ما نراه نحن، والوقائع بين أصابع من يدوِّنها، لذا بات طبيعيًّا أن يفتح المؤرخون مئات الكتب والمؤلفات للسادات ومبارك، ويتجاهلوا المشير أحمد إسماعيل وزير الحربية الذي وضع خطة الحرب وقاد الجيش في نصر أكتوبر.. إنه التاريخ حين يُدوَّن لممالأة الحاكم، وكأن الموت الذي خطف المشير المنتصر عقب أشهر قليلة من الحرب، خطف معه دوره البارز في الحرب.. غير أن الموت ذاته كان سينهي حياة أحمد إسماعيل لو فشلت خطته في الحرب.. الموت المادي في محاكمة الهزيمة، أو الموت المعنوي له ولذريته من بعده.. لا فرق.. فالرجل الذي كان متقاعدًا في بيته قبل الحرب، كان أكثر شجاعة وكفاءة من قادة قالوا للسادات بصوت مرتفع: «ليس بمقدورنا أن نحارب الآن»، ولأنه لا يؤمن بالمستحيل استدعى القائد الذي يمتلك إرادة حقيقية، وخطة متكاملة.. ولكن المشير أحمد إسماعيل الذي ذهب للسادات ورقبته فوق كفه كان أول من أطلق العبارة التي صارت أيقونة عالمية «yes we can».. وفعلها الرجل دون أن ينصت لتحذيرات المحيطين به من المصير الكارثي لو خسرت مصر تلك الحرب..!

هل عرفتم الآن لماذا نقبنا عن مذكرات المشير الراحل أحمد إسماعيل التي كتبها بخط يده؟!.. إنها فضيلة رد الجميل والعرفان

لمواطن مصري ضحّى بحياته ليرفع علم مصر عاليًا فوق أرض سيناء، وهو واجب أيضًا على أجيال عاشت كريمة بفضل هذا الانتصار، وأنا منهم، والأهم من هذا وذاك أن يعرف أبناؤنا وأحفادنا من هو المشير أحمد إسماعيل بطل حرب أكتوبر الذي تجاهله البعض لأنه كان يؤمن بمبدأ العمل في صمت..!

سيدي الراحل العظيم أحمد إسماعيل.. إليك أهدي هذا الكتاب.. وحتمًا سوف تصلك كلماتي هذه: أنا فخور بك.. وشرف لي أن أضع مداد قلمي على صفحات من سيرة حياتك المجيدة.. فإذا كنت أنفقتُ في مذكراتك عامًا كاملًا، فقد كرست أنت حياتك كلها لنحيا أحرارًا.

سبتمبر 2013

قبل أن تقـرأ

لمــاذا المذكــرات الآن؟

السفير / محمد أحمد إسماعيل

قد يتساءل الكثيرون لماذا الآن؟ لماذا أخرجت عائلة المشير أحمد إسماعيل أوراق ومذكرات المشيــر أحمد إسماعيل إلى النور وأن تعهد بذلــك إلى الأستاذ الفاضــل مجدي الجلاد وذلك بعد مــرور 39 عامًا علــى رحيله وأربعيــن عامًا على حرب أكتوبر المجيــدة والحقيقة أنه توجد عدة أسباب وليس سببًا واحدًا وليسمح لي القارئ أن أوضحها في الآتي:

1 - قيــام ثورة 25 يناير المباركة أتــاح الحرية والديمقراطية لنا جميعًــا فأصبح الآن من حق كل مواطن مادام معه المستندات أن يدلي بدلوه.

2 - بالرجوع إلى أوراقه وصوره لتلبية طلبات الإخوة الإعلاميين الأفاضل وجدت مذكرات بخط يده والعديد من الأوراق الهامة والمستندات التي لها قيمة عالية في تاريخ مصر.

3 - مناسبات معينة تمت خلال الحكم الأخير وقبل 30 يونيو 2013 على مستوى الدولة أوضحت لي أن هناك من لا يعرف حقيقة الدور الذي قام به المشير أحمد إسماعيل في حرب أكتوبر.

4 - عرض بعض الأحاديث الإعلامية في العام الماضي عن حرب أكتوبر لا يتوافق ما جاء ببعضها مع حقيقة ما لدينا من معلومات ووثائق؛ وبالتالي فتوضيح الأمور يعد أمانة تاريخية في عنقنا ونكون مقصرين في حق بلدنا لو لم ينقم بذلك.

وأود في البداية أن أؤكد على أن حرب أكتوبر لها أبطال كثيرون وكان المشير أحمد إسماعيل يعتبر كل من شارك في الحرب مهما كان دوره هو أحد أبطال حرب أكتوبر.

أما بالنسبة لتولي الأستاذ مجدي الجلاد كتابة هذا الكتاب فذلك قد جاء بمبادرة مشكورة ومقدرة منه عن قناعة بدور المشير أحمد إسماعيل في حرب أكتوبر المجيدة وترحيب كبير مني ومن جميع أفراد العائلة لمكانة الكاتب ووطنيته المعروفة.

وإذا انتقلنا إلى شخصية المشير أحمد إسماعيل فسنجد أنه رجل يتصف بالحزم والحسم وقوة الشخصية مع التواضع الشديد وإنكار الذات الزائد وأما مؤهلاته الدراسية فهو الأول في جميع الفرق التي حصل عليها.

بعـد تخرجه من الكلية الحربية من أول مدرسة الأسلحة الصغيرة مـروزا بكلية أركان حرب إلى دراسته فـي الخارج سواء في بريطانيا أو روسيا إلى أكاديمية ناصر.

أمـا مؤهلاته الميدانية فقد اشترك في جميـع الحروب مع إسرائيل منذ إعلان دولة إسرائيل عـام 1948 كما تدرج في المناصب العسكرية مـن أصغرها كقائد فصيلـة إلى أن أصبح وزيرًا للحربيـة وقائدًا عامًا للقوات المسلحة بعد أن رأس جهاز المخابرات العامة المصرية لمدة سنة ونصف وتولى قيادة الجبهة المصرية بالكامل وبدأ حرب الاستنزاف.

وتتسـم فترة تولي أحمد إسماعيل لقيـادة القوات المسلحة بأنه لم يلعـب سياسة مثل مـن سبقوه سواء كان الفريـق أول محمد فوزي أو الفريق محمد صادق، بل استطاع أن يخرج الجيش من السياسة وأن يكون تركيـزه الأساسي على شن حرب التحريـر لتحرير الأراضي المصرية والعربيـة المقدسة وكذلك من الإنجـازات الهامة أنه تمكن من إقناع سوريـا بالاشتراك معنا في الحـرب في توقيت واحد بعد اجتماع منفرد وطويل مع الرئيـس حافظ الأسد استثمر فيه ثقة الرئيس السوري في قدراتـه ومعلوماته العسكرية منها: أنه من العلامـات البارزة في أحمد إسماعيـل إيمانـه المطلق بالجندي المصري والسـلاح بالرجل وليس الرجل بالسلاح وهي كلماته المأثورة عندما تولى القيادة العامة للقوات المسلحة وإحساسـه بأننا ظلمنا عام 1967 وبأن الجندي المصري لم يأخذ فرصته في القتال والرغبة في استعادة كرامة الجيش المصري والأخذ بالثأر واقتناعه بأن الوقت في غير صالح القوات المصرية.

وفـي ظل لا حـرب شاملة ولا حـرب استنزاف لأن الحـرب الشاملة تحتـاج إلى الكثير من السلاح غير المتوافـر لدينا ومن غير المضمون

توافره في المستقبل القريب وربما البعيد أيضًا وحرب الاستنزاف تؤدي إلى استنزاف العدو وكذلك استنزاف العدو لنا ولقد استخدمنا هذا الأسلوب في مرحلة كنا نحتاج فيها لذلك لرفع الروح المعنوية وإرسال رسالة للعدو بأن سكوتنا على احتلاله لأراضينا المقدسة لن يستمر.

كان الحل من وجهة نظره في ظل المعطيات الموجودة هو تحرير سيناء على مراحل على أن تبدأ المرحلة الأولى بما لدينا من سلاح (الإمكانيات الحالية) وتتضمن عبور القناة وإقامة رءوس كباري وتدمير الساتر الترابي واقتحام خط بارليف وتكبيد العدو أكبر خسائر ممكنة والاستيلاء على مواقعه الحصينة شرق القناة والتشبث بالأرض وهذا ما حدث بالفعل. وكان همه الأول الاحتفاظ بالجيش المصري دون أن ينكسر لاستكمال عملية التحرير على مراحل.

وأود أن أؤكد هنا على أن رؤيته فيما يتعلق بالنزاع المصري الإسرائيلي كانت واضحة ومنذ البداية فقد كان على قناعة بالآتي:

1 - أنه لا سلام بين مصر وإسرائيل بعد هزيمة 1967 بدون حرب جديدة أو أكثر يغسل فيها الجندي المصري عار هزيمة 1967 ويثبت أنه خير جنود الأرض.
2 - أن الوقت في غير صالح مصر وأن الانتظار لكي نصل بتسليحنا إلى مستوى يحقق لنا التفوق على إسرائيل غير وارد فيجب أن نحارب بما لدينا من سلاح مع الاستفادة مما لدينا من عناصر قوة وبعناصر ضعف العدو وذلك عن دراسة وعلم.
3 - في ظل التفوق الإسرائيلي ومعطيات الموقف السياسى يجب أن يكون تحرير سيناء على مراحل.

ولقد كان والدي وهو يعد الجيش المصري لخوض حرب مصيرية

مـع إسرائيل يعلم تمامًا أنـه إذا انتصرنا في الحرب فلن يكون هو البطل الأول للانتصار وإذا انهزمنا في الحرب فسوف يكون هو المسئول الأول عن الهزيمة وكثيـرًا ما تناقشنا في هذه الأمور قبل الحرب وكانت إجاباته في كل مرة واحدة ولم تتغير ولو مرة واحدة وهي أنه يعرف ذلك جيدًا ولا يهمه سوى استعادة الكرامة وتحرير الأرض وأننا لن ننهزم هذه المرة وأنه لا يرغب في أي شيء إلا تحرير أرضنا المحتلة وأنه مستعد للتضحية بكل غال ورخيص في سبيل تحقيقه وأشرف لـه أن يستشهد وهو يعمل على تحرير أرضنا الغالية من أن يموت في منزله وأرضنا محتلة.

ويهمنـي أن أعبّر عن إعزازي وتقديـري للأستاذ مجدي الجلاد هذا الإعلامي الوطنـي المرموق الذي أعطى الكثير من وقته وفكره لإخراج هـذا الكتاب بشكله الحالي كمـا يهمني أن أشكر كل من اتصل بي وبالعائلة لتجميع المادة والمستنـدات وكل من أسهم سواء مساهمة كبيرة أو صغيرة في إنجاز هذا العمل.

وقبل أن أختتم كلمتي لا يفوتني أن أوجه التحية والتقدير للقوات المسلحـة المصريـة الباسلة وقياداتها كما أننـي أحيِّي أرواح شهداء أكتوبـر الذين ضحـوا بأرواحهم من أجـل أن نعيش مرفوعـي الرأس ونسترد ثقتنا بأنفسنـا وروح الرئيس أنور السادات الشجاع الذي بدونه مـا استطاع الجيش المصري أن يخوض هذه الحرب الباسلة وأن أحيِّي مصابـي أبطال حرب أكتوبر وأبطال حـرب أكتوبر المجيدة الأحياء أطـال الله لنا في عمرهم وأحمد الله على كل شيء وأرجو أن يكون هذا الكتـاب إضافة في إبراز دور هذا الرجل الذي ضحى بكل جهده وعصارة فكره وكل وقته في سبيل وطننا الغالي مصر.

مقدمة الناشـــر

على الرغم من مرور 40 عامًا على حرب السادس من أكتوبر عـــام 1973، فـــإن الكثير من وقائع تلك الأيـــام المجيدة، عرضة للمحو أو على الأقــل للتزوير والتحريف والطمس، حتى لم تعد الأجيـــال الحاليـــة تذكر منها ســـوى ما بثته الآلـــة الإعلامية الرسمية وكتب التاريخ التائهة بين الأهواء، واختصرت الحرب كلهـــا في رجلين: محمد أنور الســـادات الذي صار بعدها يحمل لقب «بطـــل الحرب والسلام»، ومحمد حسنـــي مبارك الذي مُنح لقب «بطل الضربة الجوية».

وبيـــن الســـادات ومبارك - مـــع الاحتفاظ بحـــق كل منهما فيما قـــدم - ضاعـــت حقائق عظيمـــة، لأبطال وبطـــولات ظلوا وظلت خافية تسكن النسيـــان مع أصحابها، لعل من بينها الدور الحقيقـــي للمشيـــر أحمـــد إسماعيل وزيـــر الحربية الـــذي أدار المعركـــة مع العـــدو الإسرائيلي، ولا أحد يـــدري إن كان ذلك جـــرى بقصد أو بدون قصد، لكن النتيجـــة واحدة، وهي أن عامة

الشعب لا تعرف الرجل، بل إن البعض لا يعرف حتى اسمه، رغم أن القراءة المنصفة لتاريخ الحروب المصرية الإسرائيلية منذ بدايتها في 1948، تمنحه حقه رغم محاولات الطمس أو التجاهل. ولذا كان الإصرار على خروج تلك الأوراق التي صاغها بيده -على قلتها لأحداث عايشها- للنور، فالحقيقة التي لا يعلمها إلا من اقترب من المشير أحمد إسماعيل تؤكد أنه لم يكن من نوعية العسكريين الاستعراضيين، بل كان نظاميًا بامتياز، انضباطيًا ملتزمًا إلى حد الصرامة، وربما كان هذا أحد أسباب حالة التجاهل التي طالته، حيث إنه لم يكن رجلًا ممن يجيدون الحديث عما يقومون به من أعمال أو أفعال. لقد كان من المجتهدين في صمت، لا يعنيه من فعله سوى النتيجة والأثر. الأمر الذي يدركه من عايشوه، فيعلمون أن القدر لم يمنحه فرصة جني ثمار النصر الذي قاد مصر إلى إحرازه، حيث توفي بعد عام واحد فقط من حرب أكتوبر في العام 1974 نتيجة إصابته بمرض السرطان الذي لم يمكنه حتى من استكمال مذكرات كان قد بدأ في تدوينها منذ العام 1969 عند إحالته للتقاعد من قبل الرئيس جمال عبدالناصر بعد الإنزال الإسرائيلي في منطقة الزعفرانة المصرية.

ومما يؤكد حديثنا عنه، أن مبرراته في كتابة مذكراته- كما ذكرها هو- كانت رغبته في أن يُظهر لأسرته وزملائه وللشعب خطأ ما أشيع عنه على مدار سنوات عمله في القوات المسلحة، بعد أن اضطر لترك الجيش في وقت كان يشعر أنه قدم خدمات لوطنه، قوبلت بالخيانة والغدر. وقد استمر في تدوين

تلك المذكرات حتى عاد إلى الخدمة في مايو 1971 كرئيس لجهاز المخابرات العامة بعد ثورة التصحيح التي أطلقها الرئيس السادات ضد مراكز القوى، ليتوقف عن التدوين، الذي لم يتابعه إلا قبل وفاته بأشهر معدودة.

ولكن، ومهما كانت قلة الكلمات التي تركها لنا في مذكراته التي صاغها بيده، فإننا نشعر بمسئولية توثيق سيرة ذلك الرجل الذي تحمل مع غيره مسئولية حرب كان العالم كله يراها شبه مستحيلة، بل مستحيلة. وندرك أن تلك المذكرات على ضآلة حجمها تمنحنا صورة كبيرة لأحد هؤلاء الأبطال الذين لم يمنحوا الفرصة للحديث عما قاموا به من أجل هذا الوطن حين كانت الأقدار أسرع بالموت إليه. لذا لا نملك ونحن نقدم مذكرات المشير أحمد إسماعيل إلا أن نهديها لروح كاتبها ولكل مصري قدم مصر على حياته وضحى من أجل ترابها وأرضها بالغالي والرخيص.

الناشر

سيرة حياة

قبل أن نشرع في تقديم مذكرات المشير أحمد إسماعيل التي سطرها بخط يده، ودون تدخل منا، اللهم إلا إعادة صياغتها وترتيب أوراقها، وجدنا أنه لزامًا علينا أن نقدم للأجيال المصرية صورة سريعة عن حياة هذا البطل الذي عاش حياته مكافحًا في صمت، ومات دون أن يجد من يخلد ذكراه. ليعلم الجيل الجديد والأجيال القادمة من هو المشير أحمد إسماعيل.

ولد أحمد إسماعيل في 14 أكتوبر عام 1917، في أحد منازل شارع الكحالة بحي شبرا بالقاهرة وكان يحمل رقم 8 . كان والده ضابط شرطة خدم في معظم محافظات مصر، وترقى في سلك البوليس لرتبة مأمور لضواحي العاصمة في العام 1914 حين استقر به المقام في القاهرة. ورث أحمد عن أبيه الانضباط والتفاني في العمل والدقة في كل ما يقوم به. بينما كانت والدته ربة منزل لا تختلف صورتها في كثير عن صورة الأم المصرية المحبة لبيتها وزوجها وأبنائها. وكانت والدته قد أنجبت عددًا من البنات، لا يؤرقها سوى مجيء

الولد. حتى إنها فكرت حينما علمت بأمر حملها فيه، أن تجهض الجنين خشية أن يكون المولود الجديد بنتًا أخرى، ولكنها تراجعت عن ذلك خشية من الله ليأتي أحمد للحياة ويكون ترتيبه السابع بين أخواته.

وتشـاء الأقـدار أن تتوفى والدة المشـير أحمد إسـماعيل وهو في سـن الثانية عـشرة، فيفقد حنانهـا مبكرًا، ويتولى والده بعدها تربيته، إلا أنه ترك لشـقيقته الكـبرى مسـئولية متابعة دراسـته وتثقيفه. وهو ما أثر فيه وفي عشـقه للقراءة حتى إنه كان يشتري كل ما تقع عليه عيناه من كتب وبخاصة تلك التي تروي قصـص وحياة القادة العسـكريين والحروب. ولذا فقد سـعى عقب حصوله عـلى الثانوية العامة إلى الالتحاق بالكلية الحربية ولكنه فشـل لكونه من عامة أبناء الشـعب فالتحق بكلية التجارة، وفي السنة الثانية قدم أوراقه مع الرئيس الراحل أنور السادات إلى الكلية الحربية، لكن الكلية رفضت طلبهما مجددًا... لكنـه لم ييئـس. حتـى كان عـام 1936 حينما أصـدر الملك فـؤاد الأول قرارًا بقبول طلاب في الكلية الحربية من عامة الشـعب، فتقدم بأوراقه مع غيره من الشـباب مرة أخرى للكلية الحربية وتم قبول أوراقه، فكانت هذه الدفعة وما بعدها هي دفعة تنظيم «الضباط الأحرار» فيما بعد الذي غير وجه مصر بتلك الحركة الثورية التي قاموا بها في الثالث والعشرين من يوليو عام 1952. كان من زملاء المشـير أحمد إسـماعيل في تلك الدفعة، جمال عبدالناصر، ويوسـف السباعي، وأحمد مظهر.

تخـرج أحمد إسـماعيل من الكليـة الحربية في عـام 1938 برتبة ملازم ثاني والتحـق كضابط اسـتطلاع وقائد فصيلـة في الكتيبة الرابعة مشـاة المتمركزة حينئذ في منقباد التي عمل بها مع الرئيس الأسبق محمد أنور السادات، فكانا

ناماـن في حجـرة واحدة مـن ثكنات الكتيبـة، ممَّا دعم مـن أواصر الصداقة ينهما.

في الأول مـن مايـو عام 1940 رُقي أحمد إسـماعيل إلى رتبـة ملازم أول، بعدها بعدة أشـهر أسـندت له مهمة قيادة سرية بلواء الأسـاس، ثم مدرسًا مدرسـة الأسلحة والذخيرة. وفي الخامس من سبتمبر عام 1942 مُنح رتبة وزباشي. وبعدها بسنوات اختير عام 1947 للعمل كمدرس بمدرسة المشاة رقي لرتبة صاغ في يوليو عام 1948. شارك أحمد إسماعيل في حرب 1948 أثبـت فيها ذاته وقدراته كضابط عسـكري وكان تواجـده فيها بالقرب من لحدود المصرية الفلسطينية حيث أقام خطًّا دفاعيًّا حصينًا في منطقة رفح كان محل اهتمام ودراسة القيادات العسكرية بعد الهدنة. وبعد انتهاء الحرب التحق حمد إسماعيل بكلية أركان الحرب وتخرج فيها عام 1950 وكان ترتيبه الأول ين طلبة الماجسـتير في العلوم العسـكرية . كان الامتحـان باللغة الإنجليزية كان شـديد الصعوبة وتقدم له وقتها أكثر من 200 شـخص لم ينجح منهم سـوى 7 ضباط ، كان أحمد إسـماعيل في مقدمتهـم. في فبراير 1951 حصل حمـد إسـماعيل عـلى رتبـة البكباشي واختـير للعمل كمـدرس بكليـة أركان لحرب.

تزوج أحمد إسـماعيل في سـن الرابعة والعشرين من عمره حين رشـحت ه شـقيقته الكبرى ابنة إحدى صديقاتها... كانـت العروس هي زوجته وأم بنائه السـيدة سماح الشـلقاني، التي ذهـب ليراها للمرة الأولى أثناء ذهابها إلى مدرستها بشبرا، فأعجب بها وتقدم لخطبتها واستمرت خطبتهما عامًا ونصفًا، زوجا بعدها في شـقة بحي مصر الجديدة وأنجب منها أبناءه الخمسة، وترك

لزوجته مهمة تربيتهم وإدارة شئون المنزل ثقة في قدرتها على أداء مهمتها لانشغاله الشديد في العمل، حيث كانت ظروف عمله تفرض عليه في أحيان كثيرة التغيب لأيام متواصلة قد تصل لعشرين يومًا كل شهر. وهو ما كان يحاول تعويضه عند عودته من الجبهة بالجلوس لفترات مع أبنائه وزوجته لترسيخ المبادئ والقيم التي تربى عليها وآمن بها في داخلهم.

كان كل شيء في حياته محسوبًا ومنظمًا، لا مساحة للمصادفات، لدرجة أن ملابسه وأحذيته كانت لها ترتيبات ودرجات، فالأحذية الجديدة والملابس الغالية للخروج والمناسبات وتمثل الدرجة الأولى، وهناك درجة ثانية وأخرى ثالثة. ويشمل النظام الإيقاع والبرنامج اليومي، حتى في يوم الخميس «الإجازة» تذهب الأسرة إلى السينما أو النادي ثم يعودون إلى المنزل لتحضير حقائبهم الدراسية. وكان للأولاد يوم واحد يذهبون فيه إلى السينما حفلة 3 إلى 6 ولكنها لم تكن بشكل أسبوعي. كما كان المشير أحمد إسماعيل عاشقًا لحفلات أم كلثوم ولعب كرة القدم - هوايته المفضلة- وكان يمارسها مع زملائه في ملاعب الكلية. ولكنه لم يتخل لحظة عن مبادئه التي يؤمن بها في أي من سلوكيات وأنشطة حياته. يطبقها على نفسه ثم أسرته وبالتالي على بقية الناس ممن يتعامل معهم. واشتهر عنه بأنه لا يقبل الوساطة ويرفضها بكل أشكالها إلا في حالة رد الظلم عن مظلوم. ورغم تربيته العسكرية التي انعكست على حياته وشملت أولاده، فإنه حسب شهادات المحيطين به كان يتميز بطيبة قلب لا تخطئها العين فجسدت مواقفه ما كان يؤمن به من مبادئ، ومنها رفضه طلب ابنته نرمين التوسط لزوجها، وكان ضابطًا

طبيبًا، بعدم السفر للمشاركة في حرب اليمن عام 1962، مؤكدًا أنه واحد من آلاف المصريين، وكلهم سواء.

وعلى الرغم من تزاملهما في الكلية وتقدير كل منهما للآخر، إلا أن علاقته بالرئيس جمال عبدالناصر شهدت منحنيات صاعدة وأخرى هابطة. ولكنها أبدًا لم تؤثر على تقدير كل منهما للآخر كما يؤكد العارفون بهما. وقد بدأت علاقة أحمد إسماعيل بجمال عبدالناصر منذ كانا زميلين في الكلية الحربية، ولكنها زمالة لم تتطور إلى مرحلة الصداقة رغم تزاملهما أيضًا في كلية أركان الحرب التي درس فيها أحمد إسماعيل مادة التكتيك. وعلى الرغم من علم أحمد إسماعيل التام بمخطط الثورة الذي كان يعد له تنظيم الضباط الأحرار، إلا أنه لم يشارك فيه على الرغم من قناعته بما كانوا يخططون له. وقد ظل أحمد إسماعيل مدرسًا في الكلية، حتى قيام ثورة يوليو حين صدر قرار تعيينه مراقبًا على الصحف. بعدها طالب محمود سيف اليزل الذي كان وقتها قائدًا للقوات في رفح، بتعيين أحمد إسماعيل معه في رفح كرئيس للفرقة العسكرية هناك، فترك الرقابة على الصحف، واتجه إلى اللواء سيف اليزل، لكنه فوجئ بأن زميله السابق عبدالفتاح فؤاد يتولى القيادة في رفح منذ فترة، فرفض أحمد إسماعيل أن يتواجد على حساب زميل أقدم منه. وحاول سيف اليزل إقناع أحمد إسماعيل بالبقاء، ولكنه أصر على موقفه ورفض المنصب واتصل بجمال عبدالناصر وشرح له الموقف، فقال له عبدالناصر: «تحب تروح فين يا أحمد؟ فقال له: أنت أخذتني من كلية أركان حرب رجعني فيها تاني».

في السادس من أغسطس من عام 1952 اختير أحمد إسماعيل لتولي أركان حرب فرقة مشاة، ولكنه أعيد بعد ثلاثة أسابيع في الأول من سبتمبر

للتدريس في كلية أركان حرب وبعد عام من قيام الثورة أسندت إليه قيادة الكتيبة السابعة مشاة ومن خلال هذا الموقع استطاع أن يشارك في أهم الأحداث التي شكلت مستقبل الوطن حين تم اختياره ضمن أعضاء لجنة المفاوضات العسكرية مع بريطانيا عام 1954، كما اشترك في إتمام صفقة الأسلحة التشيكية لمصر عام 1955، وبعد وصول الصفقة تم اختياره لتكوين أول تشكيل مقاتل وفق عقيدة القتال الشرقية.

في الأول من يناير عام 1955 حصل أحمد إسماعيل على رتبة «عقيد» وفكر في إنشاء نواة للصاعقة المصرية، فاختار لها أبرز الضباط الأكثر تفوقًا في العلوم العسكرية ووجه الدعوة لهؤلاء الضباط أثناء حفل إفطار فاخر فوق سد الروافع في منطقة أبوعجيلة، وهو سد مرتفع. وحضر الضباط وهم يرتدون أفخر ما عندهم من ملابس، ولكنهم فوجئوا بأن هذا الإفطار كان بمثابة خدعة وأنه تم دعوتهم لتدريب عنيف للصاعقة. حيث طلب القائد أحمد إسماعيل منهم أن يقفزوا من ارتفاع 25 مترًا بكامل ملابسهم الرسمية الأنيقة في الماء. ومنذ ذلك اليوم أنشئت نواة الصاعقة في القوات المسلحة وفي نفس العام نفذت الصاعقة هجمات خاطفة على إسرائيل بتخطيط من العقيد أحمد إسماعيل.

وفي عام 1956 كان أحمد إسماعيل القائد المصري الأول الذي يرفع علم مصر في بورسعيد بعد أن تصدى للعدوان الثلاثي هناك ومعه فرقة الصاعقة التي كان قد أنشأها. وفي أواخر العام نفسه التحق أحمد إسماعيل بأكاديمية فرونز العسكرية في روسيا وكانت هذه الرحلة في غاية السرية، حيث أرسلت مصر تسعة من ضباط الجيش لتدريبهم في روسيا وكان من بينهم أحمد إسماعيل. ولم يعلم أحد بتلك البعثة لدرجة أن زوجته وأبناءه

لم يعلموا بحقيقة سفره وأكد على زوجته ألا تسأل أي شخص عن مكانه، وكان أحمد إسماعيل يرسل خطابات إلى زوجته عن طريق الوزارة التي تقوم بدورها بإرسالها لزوجته عبر أحد الجنود الذي كان يتسلم منها الرد على الرسالة السابقة. وبعد سبعة أو ثمانية أشهر فوجئت سماح الشلقاني زوجة أحمد إسماعيل بتليفون المنزل يدق وكان زوجها هو الذي يتصل بها من موسكو وكانت المرة الأولى التى تعلم فيها أنه خارج مصر.

وفي مارس عام 1959 أتيح له أن يواصل مهمة إعداد الجيل الجديد من الضباط المصريين في الكلية الأم بعد أن تولى التدريس في 3 مدارس هى «الأسلحة والذخيرة» و«المشاة» وكلية أركان حرب. وتولى رئاسة أركان حرب المنطقة العسكرية الشرقية وكان ذلك على سبيل النيابة وفي أثناء ذلك منح رتبة اللواء في العام 1962، وفي نفس العام عين قائدًا للفرقة الثانية مشاة فأعاد تشكيل الفرقة على أحدث الأساليب العسكرية فكان أول تشكيل مقاتل بالأسلوب العصري وكان دور هذا التشكيل بارزًا فيما بعد خلال حرب أكتوبر.

كان أحمد إسماعيل موضع ثقة جمال عبد الناصر وكان يكلفه بالعديد من المهام، من بينها مأمورية إنقاذ الوضع السيئ للثائر الكونغولى لومومبا الذي كان رئيسًا للوزراء في الكونغو وتعرض لانقلاب عسكري من وزير دفاعه عام 1964. وسافر أحمد إسماعيل إلى الكونغو لحماية لومومبا وتدريب قواته تحت حماية السفارة المصرية، وخلال هذه الفترة وقع خلاف بين أحمد إسماعيل وسعد الدين الشاذلي قائد القوات المصرية المشاركة في حفظ السلام بالكونغو، حيث رفض الأخير التعاون مع إسماعيل قائلًا: إنه تابع للأمم المتحدة وليس الجيش المصري. وعلى الرغم من ذلك نجح إسماعيل في

تهريب زوجة لومومبا وأبنائه الثلاثة إلى القاهرة عبر إلحاقهم على جواز سفر المستشار الثقافي بالسفارة المصرية في الكونغو، عبدالعزيز إسحاق، بصفتهم زوجته وأبناؤه، وتم تحديد يوم السفر باليوم المخصص للكتيبة السودانية في المطار للقيام بالحراسة لتسهيل هروبهم وهو ما تم لتصل العائلة للقاهرة وتنجو من الموت الذي أصاب لومومبا.

وبعد عام 1967 وفي أعقاب نكسة الخامس من يونيو وجدت مراكز القوى في الهزيمة مبررًا للإطاحة به بعد فشل محاولتها الأولى عام 1960، ولكن الرئيس جمال عبدالناصر استدعاه بعدها بيوم واحد وسلمه قيادة القوات شرق قناة السويس، لينجح في إقامة أول خط دفاعي كما أعاد تنظيم هذه القوات وتدريبها وتسليحها، ويعد المخطط الأساسي لحرب الاستنزاف التي شهدت عودة المقاتل المصري في أبهى صوره.

وبعد استشهاد الفريق عبد المنعم رياض، رئيس أركان حرب القوات المسلحة على الجبهة في 9 مارس 1969 تولى أحمد إسماعيل رئاسة أركان حرب القوات المسلحة، وفي 12 سبتمبر 1969 تم إعفاؤه من منصبه بسبب إنزال القوات الإسرائيلية في منطقة الزعفرانة.

لا يتوقف التاريخ كثيرًا أمام واقعة الإنزال الإسرائيلي في الزعفرانة عام 1969 ولكنها واقعة دفعت بالرئيس الراحل جمال عبد الناصر لإقالة اللواء أحمد إسماعيل رئيس أركان حرب القوات المسلحة وقتها وما حدث في تلك الواقعة التي دارت في إطار عمليات المواجهة بين مصر وإسرائيل خلال حرب الاستنزاف، أن قامت قوات العدو الإسرائيلية بإنزال سرية دبابات عشر دبابات على الشاطئ الغربي لخليج السويس في منطقة صحراوية خالية

مـن القـوات المصرية، واتجهت برًّا في اتجاه الزعفرانـة حيث تتمركز نقطة من أفراد الحدود خمسـة أفراد وقتلتهم ثم قامت بتدمير موقع رادار على بُعد مائة كيلومتر جنوب السـويس، واسـتمرت القوة المعادية في الإغـارة على الضفة الغربيـة لخليـج السـويس لمدة سـت سـاعات تحت حمايـة كتيبة من السـلاح الجوي الذي كان يقدم لها المعاونة الجوية، ثم عادت قوة الإغارة إلى الشاطئ الشرقي للخليج. كانت مجموعة من الضفادع البشرية الإسرائيلية قد مهدت لتلـك العملية من خـلال إغراق لنشي طوربيد على الشـاطئ الغربي للخليج لتأمين الممر الملاحي للقوة المعادية أثناء تنفيذ المهمة.

وتم عمل تحقيقات لمعرفة المتسـبب في عدم اكتشـاف قوة الإغارة من قبل القوات الإسرائيلية على الزعفرانة، وكذلك تحديد مسئولية عدم اتخاذ إجراء إيجابي لمواجهة القوة بعد نزولها الشاطئ الغربي وبقائها عدة ساعات، وهو ما استغلته إسرائيل دعائيًّا لإظهارتفوقها على الجانب المصري.

وكان جمـال عبد النـاصر يحضر منـاورة اختبارية للفرقـة 21 المدرعة الجديدة عند حدوث تلك الغارة وسـارع بالانـصراف فور علمه بالخبر وأوفد اللواء أحمد إسـماعيل علي رئيس الأركان لاستطلاع الموقف بنفسه. فعاد إلى مكتبه في القاهرة لتجميع المعلومات ومعرفة حقيقة ما حدث فقرر الرئيس عبدالناصر عزله في اليوم التالي وتعيين اللواء محمد صادق قائد المخابرات الحربية وقتها رئيسا للأركان.

كانـت الفـترة التي ابتعـد فيها أحمد إسـماعيل عـن الخدمة عقـب إحالته للتقاعـد، مـن أهم فـترات حياته، إذ يعتبرهـا المقربون منه فرصـة منحتها له الأقـدار للقـراءة في العلوم العسـكرية الحديثـة ووضع تصـور لكيفية تحرير سـيناء، تلـك الخطة التـي اعتمد عليهـا في وضع خطة العبـور في أكتوبر عام 1973. ذلـك أن الرجـل لم يخلـد للراحـة وتحـول مكتبـه في منزلـه إلى غرفة

عمليات كان يُعد من خلاله خطط القتال، وكان ينوي إرسال تلك الخطة للرئيس جمال عبد الناصر لكنه خشي أن تفسر هذة الخطوة على أنها إشارة منه يطلب بها العفو عنه كي يعود للخدمة العسكرية، فلم يرسلها واحتفظ بها في درج مكتبه حتى منحته الأقدار فرصة استخراجها وتطويرها فيما بعد.

بعد وفاة عبدالناصر عام 1970 وتولى أنور السادات رئاسة مصر، كان الصدام بين السادات وأنصار العصر الناصري ممن يطلق عليهم تعبير «مراكز القوى» الذين قضى عليهم السادات فيما عرف باسم ثورة التصحيح في 15 مايو 1971 ، وهو ذات التاريخ الذي عاد فيه أحمد إسماعيل للخدمة من جديد ليتولى رئاسة المخابرات العامة المصرية. وهو المنصب الذي بقي فيه قرابة العام ونصف العام وبالتحديد حتى 26 أكتوبر 1972 عندما أصدر السادات قرارًا بتعيينه وزيرًا للحربية وقائدًا عامًّا للقوات المسلحة خلفًا للفريق أول محمد صادق ليقود إسماعيل الجيش المصري في مرحلة من أدق المراحل لخوض ملحمة التحرير. وفي 28 يناير 1973 عينته هيئة مجلس الدفاع العربي قائدًا عامًّا للجبهات الثلاث المصرية والسورية والأردنية.

بعد الحرب منحه الرئيس السادات رتبة المشير في 19 فبراير عام 1974 اعتبارًا من السادس من أكتوبر عام 1973 ليكون ثاني ضابط مصري يصل لهذه الرتبة بعد المشير عبدالحكيم عامر. كما حصل أيضًا على نجمة سيناء من الطبقة الأولى وتم تعيينه في 26 أبريل 1974 نائبًا لرئيس الوزراء.

على قدر ما كان يتسم به أحمد إسماعيل من قوة وحسم في الشخصية، كان شديد التواضع وكان على قدر كبير من دماثة الخلق والاهتمام بكل من حوله حتى إنه كان يعرف أسماء العديد من الجنود والضباط العاملين في القوات المسلحة. وقد ذكر الصحفي الإنجليزي «لويس هال» في مقال من

مقالتـه المتعددة التي كتبها للصحف الإنجليزيـة عقب حرب أكتوبر 1973 أنه رافق المشير أحمد إسماعيل وهو يزور أنقاض بارليف، فوجده يعرف كثيرًا من جنوده بالاسـم ويسـألهم عـن زوجاتهـم وأبنائهم ويقدمهـم لمرافقيه من المراسلين على أنهم الأبطال الحقيقيون في المعركة.

ومـن بـين أقوالـه التي رددهـا بعد حـرب أكتوبر: «لقـد حققنـا انتصارًا كبيرًا... بل حققنا انتصارًا مضاعفًا. لأنني تمكنت من الخروج بقواتي سـليمة بعـد التدخل الأمريكي السـافر في المعركة. لقد كانت سـلامة قواتي شـاغلي طـوال الحـرب. قال بعـض الناقديـن لنا إنـه كان علينـا أن نتقبـل المزيد من المخاطرة، وقد كنت على اسـتعداد للمخاطرة والتضحيات، لكنني صممت على المحافظة على سلامة قواتي لأنني أعرف الجهد الذي أعطته مصر لإعادة بنـاء الجيـش وكان علـيَّ أن أوفِّق بين ما بـذل من جهد لا يمكـن أن يتكرر بسـهولة، وبين تحقيق الهدف من العمليات. لقـد كنت أعرف جيدًا معنى أن تفقد مصر جيشـها.. إن مصر لا تحتمل نكسـة ثانية مثل نكسـة يونيو 1967 وإذا فقدت مصر جيشها فعليها الاستسلام لفترة طويلة».

في 25 ديسمبر من عام 1974 والذي وافق ثاني أيام عيد الأضحى، توفى المشـير أحمد إسـماعيل بمرض سرطان الغدد الليمفاويـة، عن عمر يناهز 57 سـنة في أحد مستشـفيات لندن بعد أيام من اختيار مجلة الجيش الأمريكي له كواحد من ضمن أكثر 50 شخصية عسكرية عالمية أضافت للحرب تكتيكًا جديدًا.

وهكذا كانت حياة المشير أحمد إسماعيل عملًا متواصلًا وعطاءً لا يتوقف للوطـن دون أن ينتظر مقابـلًا له. وفيما يلي من أوراق سـتقرءون ذكرياته كما كتبها وتركها لنا.

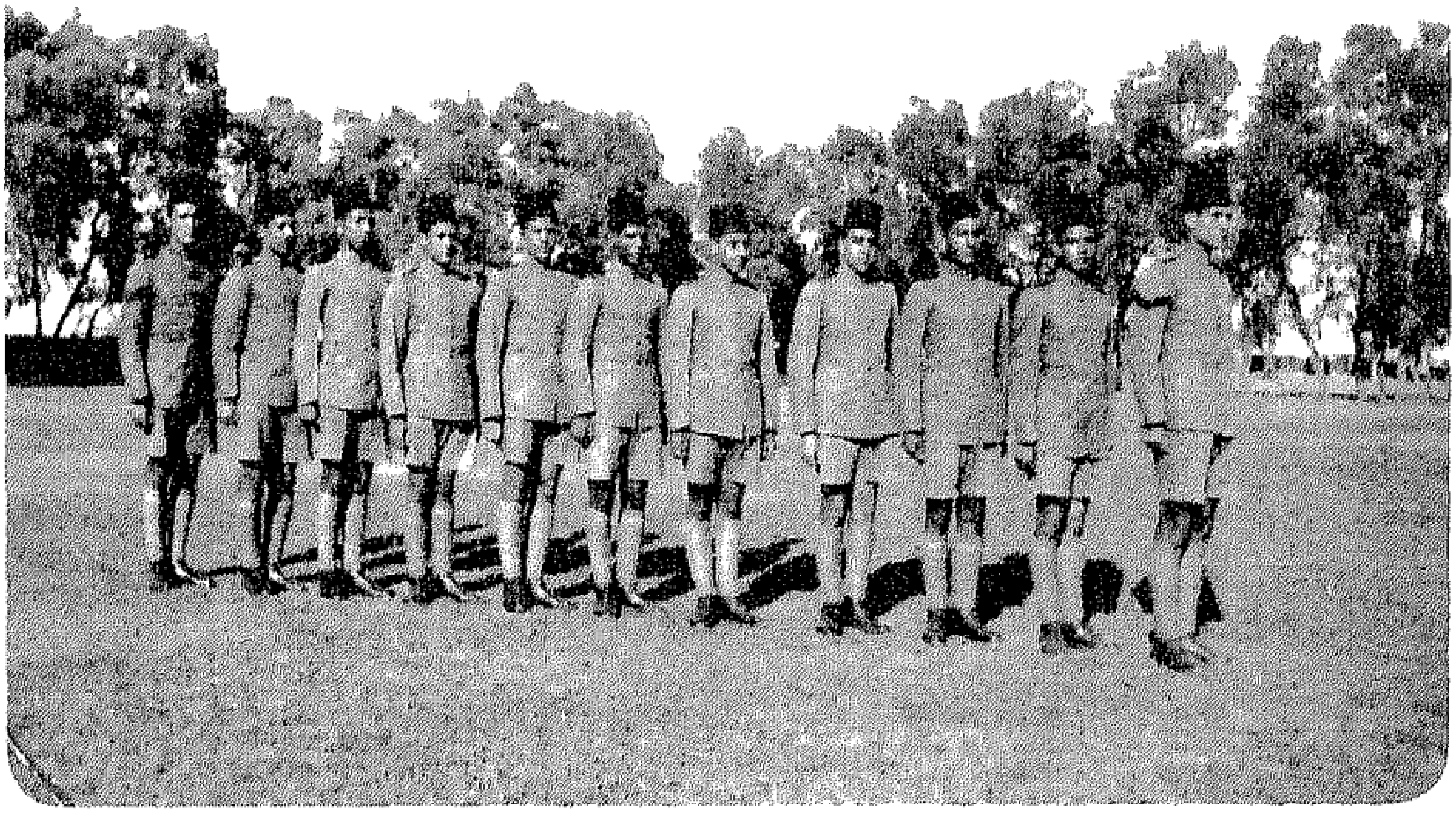

▲ أحمد إسماعيل في الكلية الحربية

▲ الملازم أحمد إسماعيل

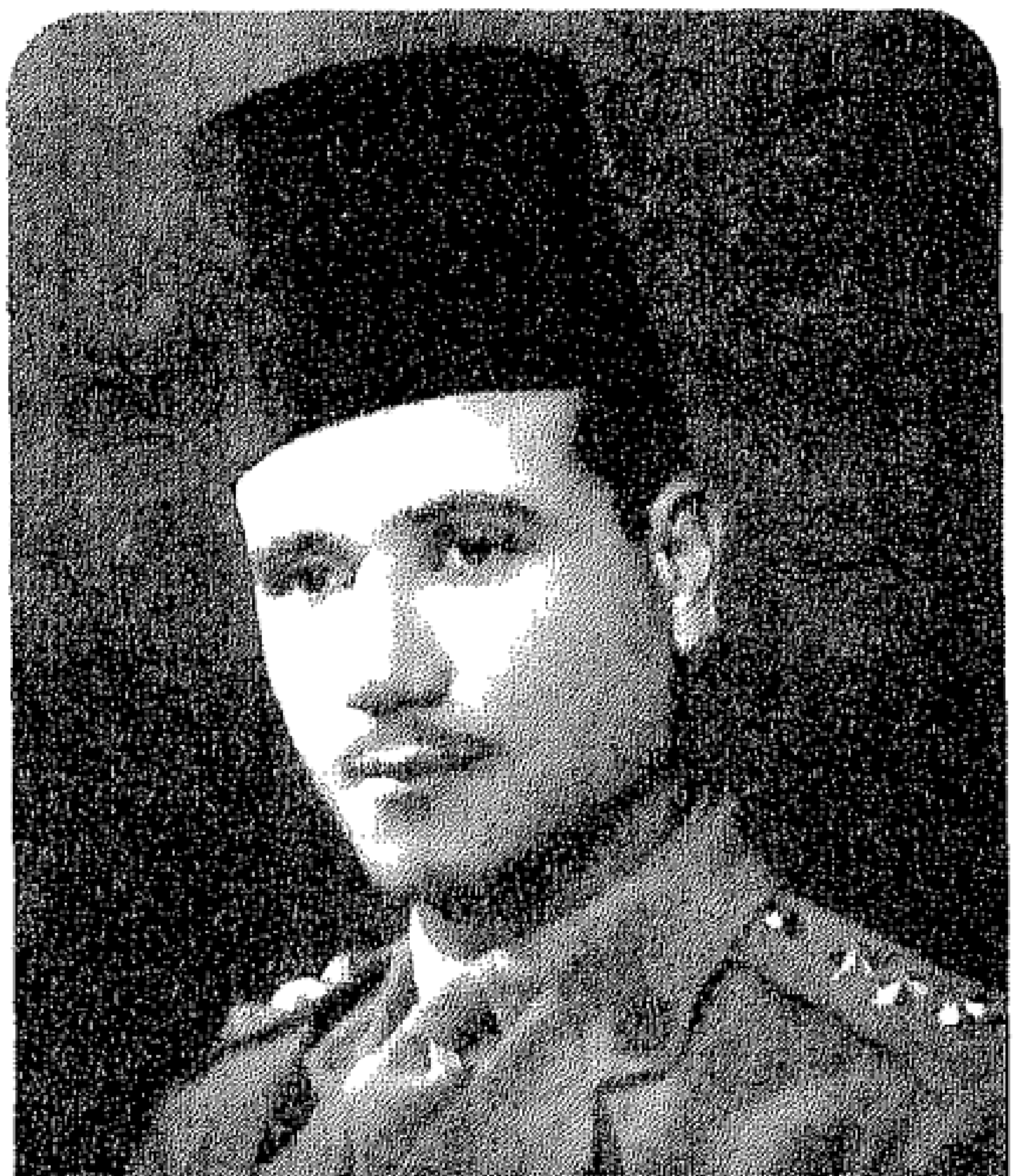

▲ النقيب أحمد إسماعيل

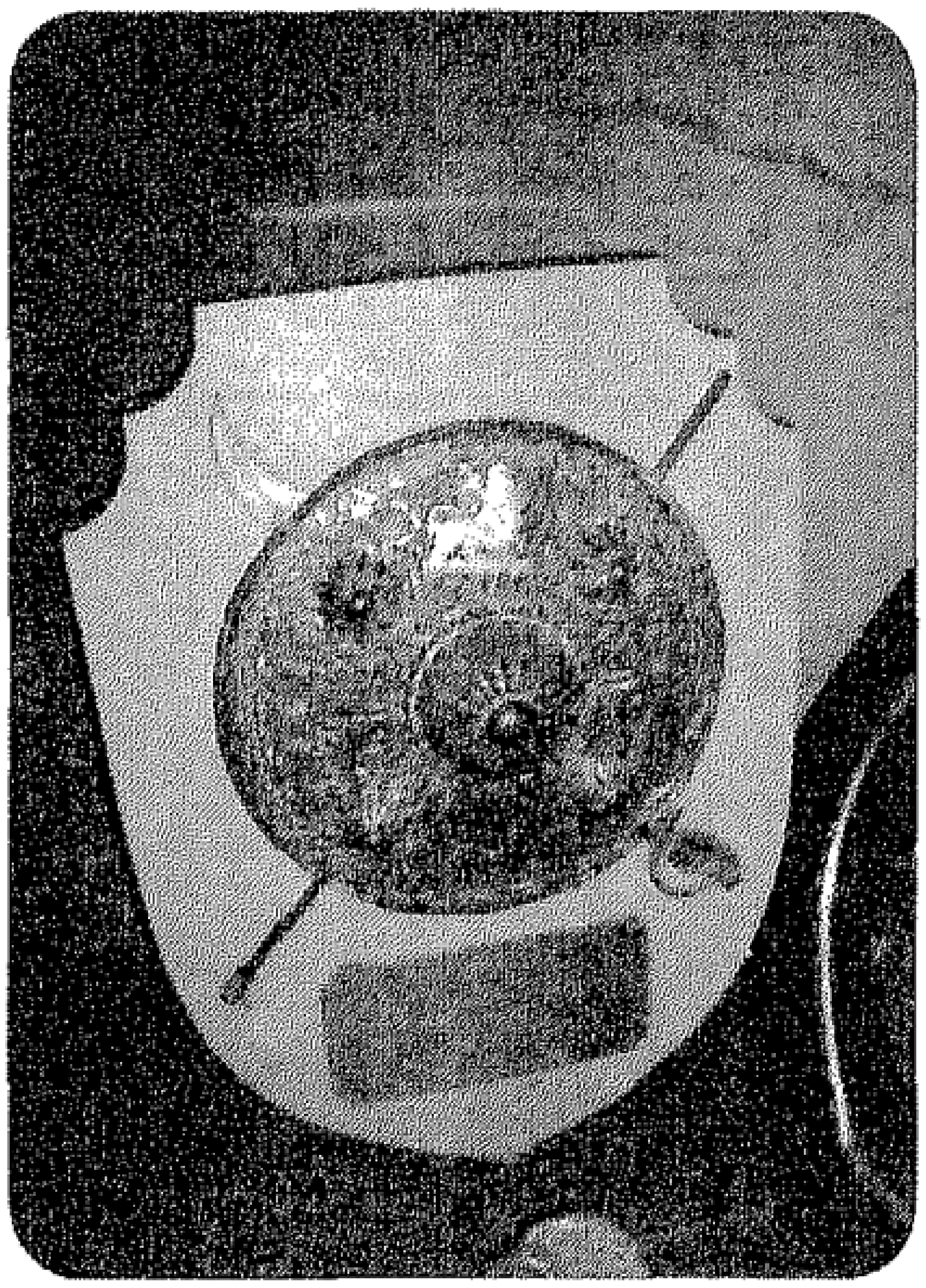

▲ أحد دروع التكريم التي حصل عليها المشير أحمد إسماعيل

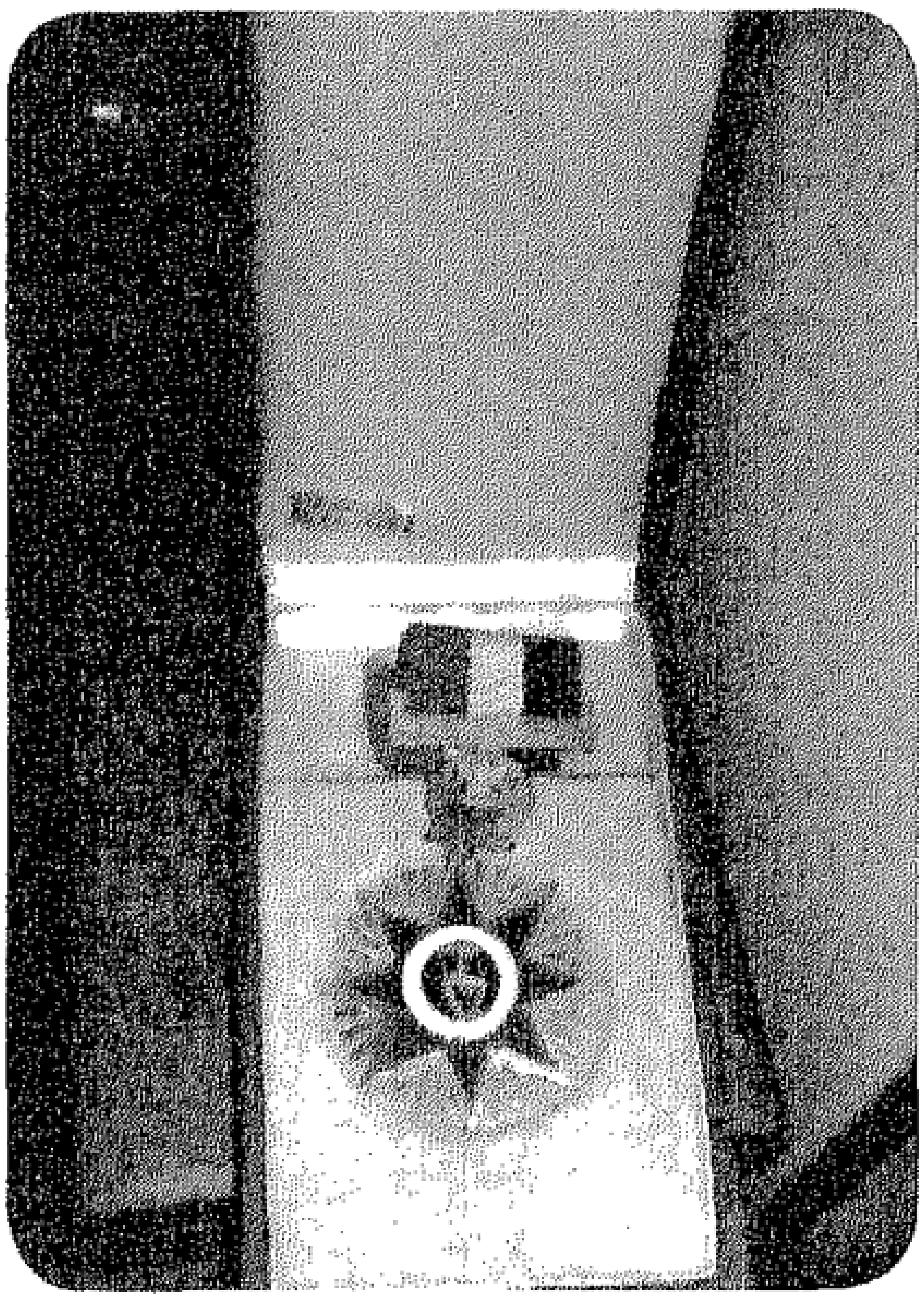

▲ نجمة سيناء

▲ مع اللواء محمد نجيب والسيد زكريا محيي الدين بعد ثورة 1952.

مذكـــراتـــي

خـير مـا أبـدأ به هـذه المذكـرات هـو جزء مـن دعـاء النبـي ﷺ: «**اللهم اجعلنـــي شكـورًا واجعلني صبـورًا واجعلني في عيني صغـيرًا وفي أعين الناس كبيرًا**». كما أدعـــوه أن يوفقني في تذكر الحقائق، لكي أؤدي الأمانة لأصحابها، وأصحاب الأمانة هنا هم أهل وطني الذين يستحقون أن يقرءوا التاريخ كما حدث بالفعل وليس كما تلونه الأهواء والانحيازات والمصالح.

وعلى الرغم من أن كتابة المذكرات لا تحتاج إلى تبرير، خاصة عندما يتعلق الأمـر بالذين يعملون في خدمـة الوطن، فإنني أجد نفسي ملزمًا بالتأكيد على أن مـا دفعني هو شـعوري ويقينـي بأنني أديت جزءًا مـن واجبي نحو بلدي في تاريـخ حيـاتي، ونظرًا لأنني لم أكن مهتمًّـــا بالدعاية والإعلان عما فعلت، فوجئت أن الحقائق والوقائع طُمست، وأن التاريخ يتعرض للتحريف الذي يصل إلى حد التزوير، كما تعمد البعض أن ينسب أعمالي لغيري، بل إن هناك من تعمد تشويه الدوافع النبيلة لتلك الأعمال.

بدأت كتابة هذه المذكرات بعد أن تركت الخدمة بأربعة أشهر، وقد تخونني الذاكرة في بعض الأحداث، ولكنني سأحاول جهدي تذكر تلك الحقائق، وأستعين في ذلك بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

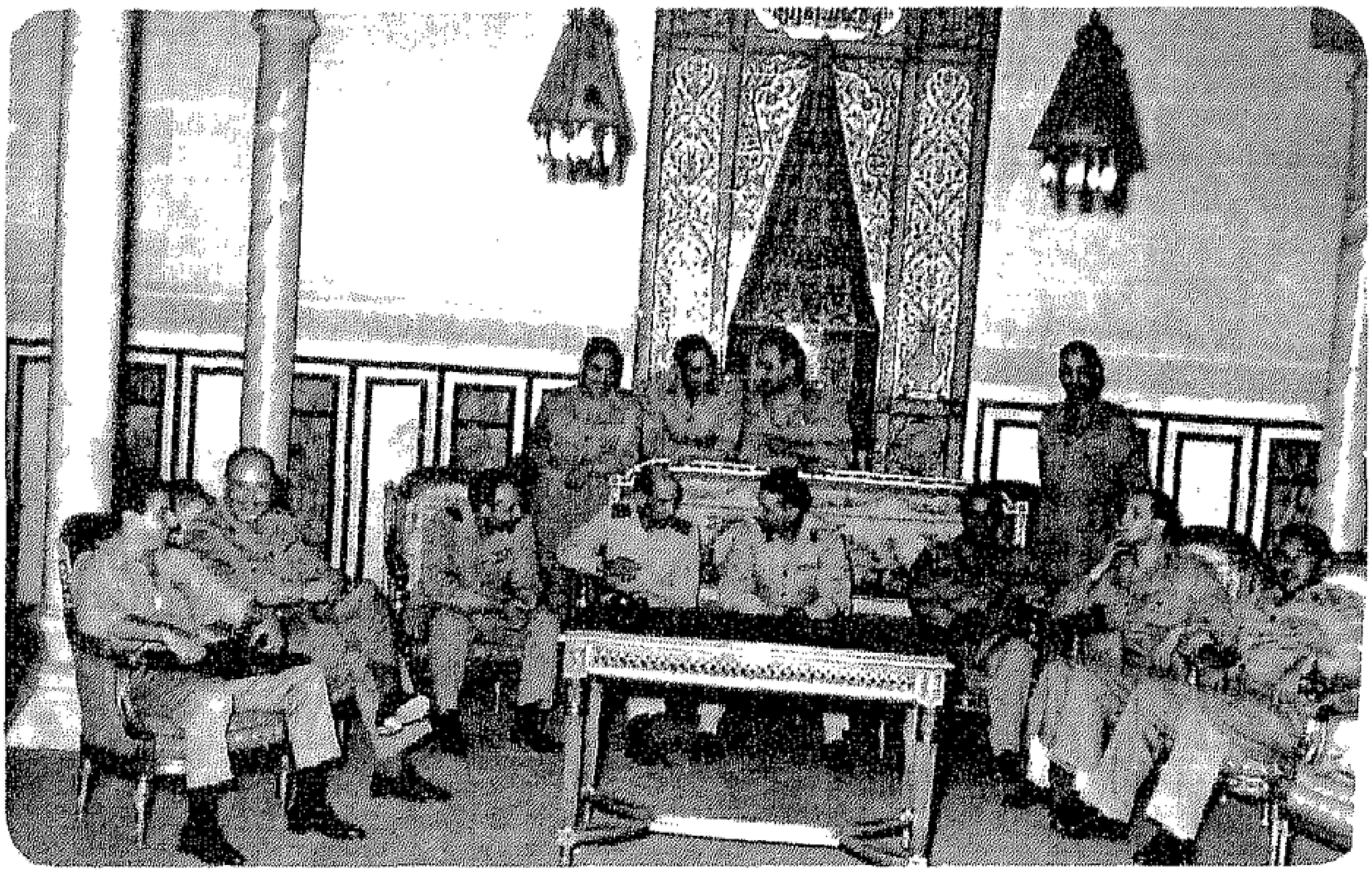

▲ مع الرئيس محمد نجيب ومجموعة من الضباط.

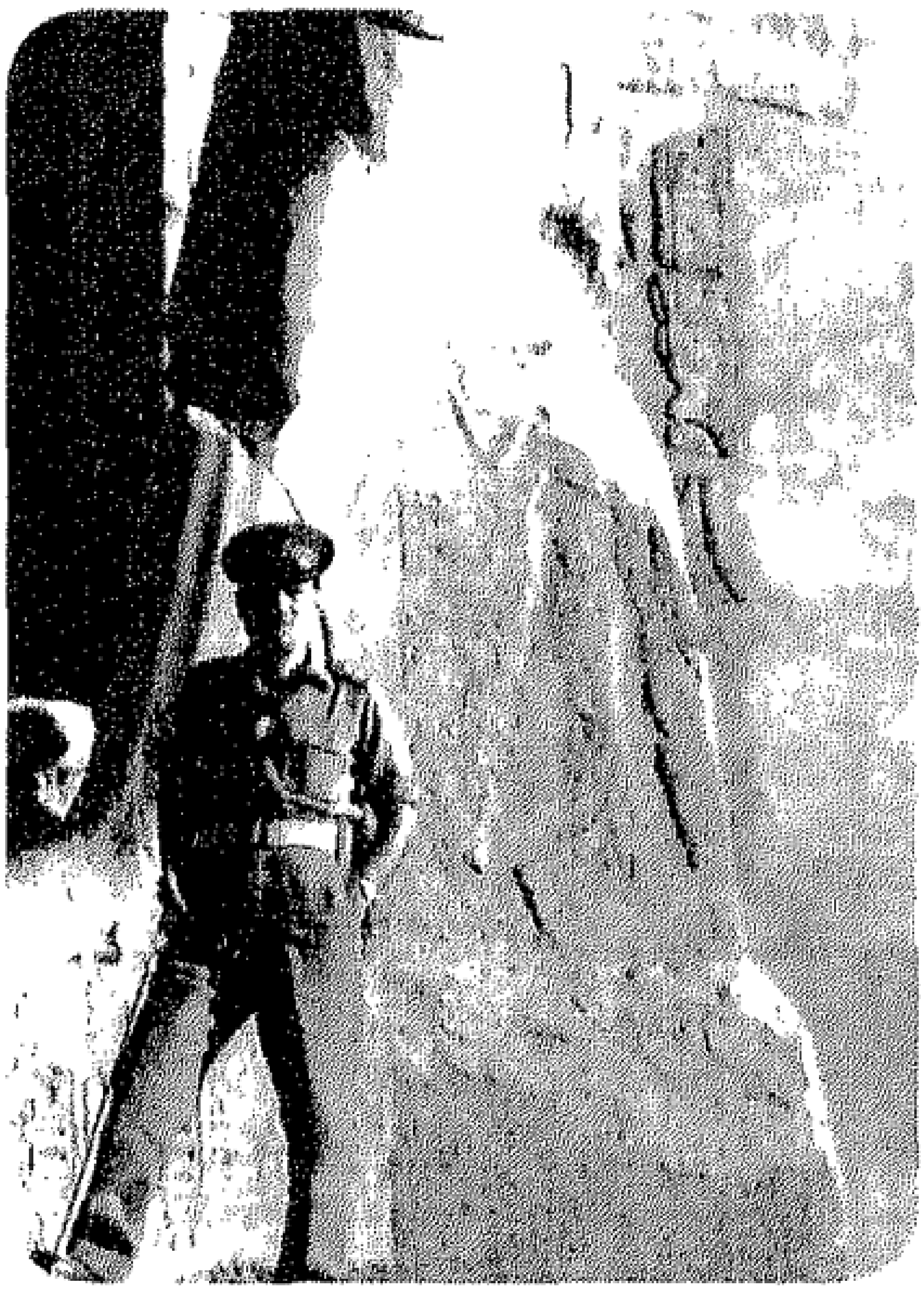

▲ أحمد إسماعيل في زيارة إلى الأقصر وأسوان.

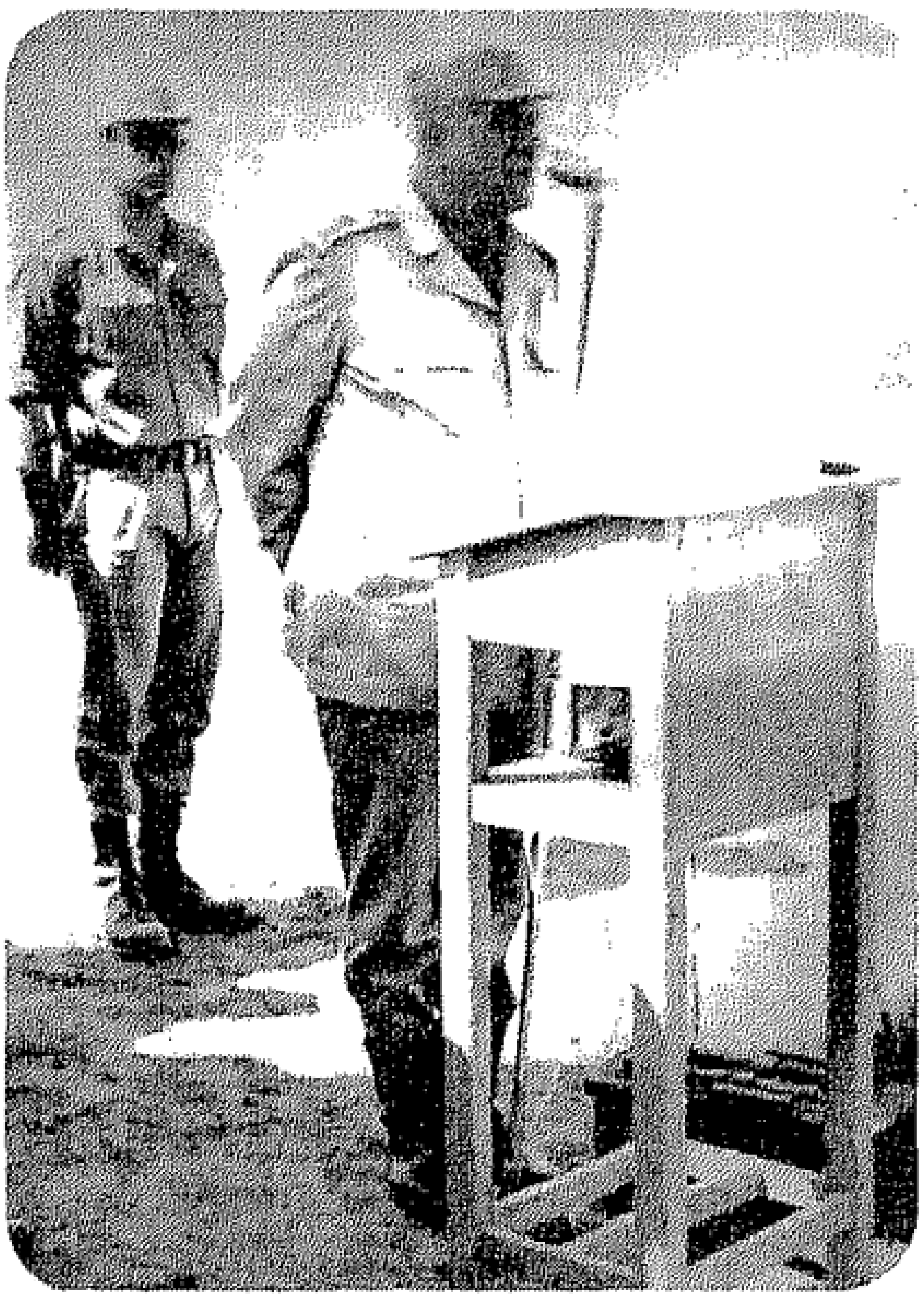

▲ أحمد إسماعيل أثناء إلقائه إحدى الخطب على الجبهة للضباط والجنود.

السلاح السوفيتي

لا يعلـم الكثيرون التاريـخ الحقيقي لبداية لجوء مصر للاتحاد السـوفيتي لشراء السلاح منه والتحرر من قبضة الغرب في هذا المجال.. فقد كان شُغل الرئيس عبدالناصر الشـاغل منذ اندلاع ثورة يوليـو، هو البحث عن مصدر جديد لشراء السـلاح منـه بدلًا من بريطانيا التي كانـت تحتكر توريده لمصر، وقد حاول عبدالناصر كثيرًا إقناع الولايات المتحدة ببيع السـلاح لنا، ولكن كان الرفض دومًا موقف واشنطن. ومن هنا جاء التفكير في الاتحاد السوفيتي.

وجـاءت البداية عام 1955 عـبر أحد رجال الأعمال الوطنيين ويُدعى محمد أحمد فرغلي باشا ـ الذي أممت الثورة ممتلكاته فيما بعد ووضعته تحت الحراسة ـ حيث أبلغه سفير الاتحاد السوفيتي في القاهرة باستعداد موسكو لبيع السلاح لمصر سرًّا عبر وسـيط لإخفاء الأمر عـن الولايات المتحدة. وهو الأمر الذي رحـب به الرئيـس عبدالناصر وكان يعلـم أن التعاون مع الاتحاد السـوفيتي لم يكـن بالفكـرة الجديدة، فقد سـبق لرئاسـة أركان الجيش المـصري التفكير

فيه قبل قيام ثورة يوليو 1952 من خلال الفريق عزيز المصري. هنا قرر الرئيس جمال عبدالناصر زيارة الفريق عزيز عثمان ـ وكان قد أحيل للتقاعد ـ وأقنعه بتولي مهمة التفاوض مع السوفييت وتوطيد علاقة مصر بهم عبر تعيينه سفيرًا لمصر في موسكو. والحقيقة أن ثمار تلك الخطوة كانت شديدة الأهمية لمصر وهو ما أثبتته الأيام، حيث أعلن المسئولون السوفييت للسفير المصري استعداد موسكو لمساندة مصر ودعمها اقتصاديًّا وعسكريًّا لتحقيق استقلالها عن الغرب. وهكذا وصلت مصر أول شحنة سلاح سوفيتي في النصف الثاني من عام 1955 عبر تشيكوسلوفاكيا التي تم اختيارها كوسيط لصفقات السلاح بعيدًا عن أعين الولايات المتحدة، وقد أحاطت بالصفقة السرية التامة، والتكتم الشديد من قِبل الحكومتين المصرية والسوفيتية. ووقتها وقع اختيار الرئيس جمال عبدالناصر عليَّ لتدريب الجنود والضباط في الجيش المصري على الأسلحة الجديدة.

بالطبع لم نستطع إخفاء أخبار ما استقدمه الجيش المصري من سلاح جديد، وهو ما أزعج العدو الإسرائيلي الذي كان يكنُّ الكراهية لعبدالناصر. ولعل هذا كان بداية تفكير إسرائيل في توجيه ضربة للقوات المسلحة المصرية لوأد تقدمها.

ومن هنا كان قرار إسرائيل المشاركة في العدوان الثلاثي على مصر في عام 1956، ردًّا على قرار الرئيس عبدالناصر بتأميم قناة السويس بعدما رفضت الولايات المتحدة الأمريكية تمويل بناء السد العالي، وتأثيرها على البنك الدولي هو الآخر لرفض التمويل. وجاء يوم 29 أكتوبر عام 1956 ليبدأ القصف الجوي لطائرات الدول الثلاث المعتدية على مصر: إنجلترا ـ فرنسا ـ

إسرائيل. كنت وقتها قائدًا للواء الثالث مشاة برتبة عقيد، وكان مقر تواجدي هو شرق قناة السويس، وبالتحديد في القنطرة شرق. كانت مهمتنا الدفاع عن بورسعيد ومنع قوات الدول الثلاث من أي عملية إنزال فيها، سواء كانت برًّا أو بحرًا أو جوًّا وذلك لمنع احتلال المدينة. كانت إسرائيل قد نجحت في عملية إنزال جوي عند ممر متلا بسيناء وصدرت أوامر القيادة لي بالتعامل مع تلك القوات، مع الانسحاب لغرب القناة لإفشال خطط القوات البريطانية في احتلال بورسعيد. وهكذا اشتبكنا مع القوات الإسرائيلية في عدة معارك قتالية، ولكننا لم ننجح في منع تسلل القوات البريطانية لبورسعيد، فقاومنا باستبسال حتى نجحنا في تحرير المدينة بعد انسحاب القوات البريطانية منها في 23 ديسمبر عام 1956.

أتوقف للحديث عن خدمتي العسكرية منذ تخرجي في الكلية الحربية عام 1938، لقد قضيت نحو 35 عامًا من حياتي العسكرية بين القنطرة والعريش والإسماعيلية؛ ولذا كنت أحفظ سيناء وأرضها بشكل دقيق ولذا وبعد انتصار أكتوبر المجيد، أهداني أهل سيناء وقواتنا في تلك المنطقة، أول علم رفعه الجنود على الضفة الشرقية للقناة بعد العبور لها يوم السادس من أكتوبر، تقديرًا منهم لخدمتي في هذه المنطقة لسنوات طويلة، وعرفانًا بعلاقتي الطيبة مع شيوخ القبائل هناك.

أعود لحرب 1956 وأقول إن مسار الحرب أكد فشل المشير عبدالحكيم عامر كقائد عسكري، وكذلك قائد سلاح الطيران الفريق صدقي محمود، وتوقعنا كضباط إقالتهما لعدم إدراكهما حقيقة المعركة التي كنا نخوضها، وكذلك عدم فهمهما لأبسط الأمور العسكرية المتعلقة بالمعارك. ولكن

الرئيس عبدالناصر لم يُقل المشير عامر الذي عارض من جانبه أيضًا إقالة الفريق صدقي أو محاسبته.

كان أعضاء مجلس قيادة الثورة يرون في عبدالحكيم عامر مجرد صديق للرئيس عبدالناصر، بل إنهم عارضوا تعيينه عام 1954 قائدًا عامًّا للقوات المسلحة، وكانوا يرون أن الأكفأ والأجدر لتولي هذا المنصب، هو زكريا محيي الدين، ولكن عبدالناصر كان له رأي آخر حيث أصر على تولية عبدالحكيم عامر رغم إمكانياته المتواضعة كقائد عسكري.

الغريب في العدوان الثلاثي على مصر، كان موقف الاتحاد السوفيتي. فنحن لم نكن قد حصلنا عى كل احتياجاتنا من السلاح السوفيتي عبر تشيكوسلوفاكيا عند اندلاع الحرب، وبالتالي لم تستطع موسكو إمدادنا بالمتفق عليه وفق الجدول الزمني المحدد لظروف العدوان، وقد أتفهم هذا. ولكن الأمر الذي لم أتفهمه هو عدم قيام موسكو بتقديم أي دعم عسكري لنا بعد صدور قرار وقف إطلاق النار وانسحاب القوات البريطانية والفرنسية والإسرائيلية من القناة!! ولم تكتف بذلك وحسب ولكنها قامت بنقل المستشارين العسكريين التشيك والسوفييت ـ الذين كانت قد أرسلتهم لمصر ـ للسودان بمجرد اندلاع الحرب! كان السوفييت يخشون الظهور العلني على ساحة المشهد وبالتالي التورط بأي شكل من الأشكال في مواجهة مع الغرب وبخاصة الولايات المتحدة. وكان خوف موسكو أن تطلب القاهرة منها السماح لهؤلاء المستشارين بقيادة الطائرات «ميج 15» بأنفسهم لعدم إتمام تدريب الطيارين المصريين عليها حين اندلاع الحرب وبدء العدوان. واكتفت موسكو في دعمها لمصر في ذلك العدوان بإصدار

بيان في 5 نوفمبر 1956 تطالب فيه الولايات المتحدة بالقيام بعمل مشترك معها للعمل على وقف القتال، وزادت عليه توجيه تهديد لبريطانيا وفرنسا بالقيام بعمل انتقامي في حال عدم الانصياع لقرار وقف إطلاق النار. ومع قبول كافة الأطراف قرار الأمم المتحدة بوقف إطلاق النار،سارعت موسكو لإصدار بيان تهدد فيه بإرسال جنود متطوعين لإجبار إنجلترا وفرنسا وإسرائيل على الانسحاب من الأراضي المحتلة وهو ما أجبر الدول الثلاث على الانسحاب.

وليبدأ الاتحاد السوفيتي بعدها في إعادة دعم مصر عسكريًّا لتعويض خسائر الجيش المصري في تلك الحرب ولكن كان هناك إصرار غير معلن من قبل موسكو، على أن يقتصر ما تمنحنا إياه من سلاح على الأسلحة الدفاعية من دون الهجومية، فلم تستجب لطلبات القاهرة بتزويد قواتنا المسلحة بأسلحة تزيد من قدراتنا الهجومية. وهو ما استمر حتى قبل نكسة يونيو عام 1967 . ليس هذا فحسب بل كان هناك تباطؤ من قبل الإدارة السوفيتية في تدريب قواتنا على السلاح الوارد لنا منهم، فكان يتم تجاهل مطالبنا في هذا الشأن.

▲ أحمد إسماعيل ومجموعة من الضباط أثناء إحدى الرحلات العسكرية نهاية الخمسينيات.

▲ أحمد إسماعيل ومجموعة من الضباط أثناء محادثات الجلاء عام 1954.

▲ على الجبهة قبل يونيو 1967 مع قادة القوات المسلحة.

▲ مع قادة القوات المسلحة قبل يونيو 1967 على الجبهة.

النكسة والتحدي

في الثاني من يونيو عام 1967، عقد الرئيس عبدالناصر اجتماعًا عسكريًّا سياسيًّا في إحدى القواعد الجوية، وكان على رأس الحضور في ذلك اليوم، كل من حسين الشافعي، وزكريا محيي الدين، وعلي صبري، وأنور السادات، والفريق أول صدقي محمود، وأعلن فيه أن مصر لن تكون البادئة بإشعال فتيل الحرب للعديد من الأسباب والظروف الدولية، على الرغم من حالة الحشد العسكري التي كانت القوات المسلحة قد أعلنتها وحالة التعبئة الشعبية لدى المصريين الذين شعروا أن مصر على وشك إعلان الحرب. كان عبدالناصر يومها يئن تحت وطأة ضغوط سياسية من جانب الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتي، التي أرسل رئيسها كوسيجين رسالة إلى عبدالناصر عبر السفير السوفيتي في القاهرة يطالبه بضبط النفس وعدم بدء الخطوة الأولى للحرب. وهو ذات المعنى الذي أعلنه الرئيس الفرنسي شارل ديجول من أن بلاده ستقف ضد الدولة البادئة بالعدوان. وفي هذا الاجتماع أعلن عبدالناصر توقعه أن تشن إسرائيل عدوانًا على مصر في غضون أيام

قليلة وطلب من الحضور وبخاصة الفريق صدقي محمود الاستعداد لذلك، والأكثر الاستعداد لتقليل خسائر الضربة الجوية الإسرائيلية الأولى.

وتوقع صدقي أن تتراوح تلك الخسائر من 20 ٪ - 30 ٪. وكان تقديرًا مجافيًا لحجم ضربات العدو بكل المقاييس. بالنسبة لي، فقد استقبلت يوم 5 يونيو عام 1967، وأنا بصحبة الفريق أول عبدالمحسن مرتجي قائد جبهة سيناء، وكنت وقتها رئيس أركانه، كنا نقف في الثامنة والنصف صباحًا في مطار تمادا العسكري في انتظار وصول طائرة المشير عبدالحكيم عامر لتفقد أحوال الجبهة. كان قادة التشكيلات العسكرية بسيناء متواجدين في المطار معنا ليكونوا في استقبال المشير عامر الذي لم يأت، وبدلًا من هبوط طائرته، فوجئنا بالطائرات الإسرائيلية تدك المطار على ارتفاعات منخفضة، بينما مدافع الطائرات المصرية لا تستطيع دفع أي شيء عن المطار، حيث إن أوامر كانت قد صدرت لها منذ الصباح الباكر بتقييد نيرانها انتظارًا لطائرة المشير عامر!! وهكذا سارع كل القادة المحتشدين بالهرب من نيران الطائرات والقاذفات الإسرائيلية والذهاب إلى مقار قيادتهم، وسارعت أنا بالعودة إلى مقري في جبل الميثان بوسط سيناء، وأنا أراجع أحداث الأشهر القليلة السابقة على ذلك اليوم الذي تتابعت نكباته. وأدركت صدق حدسي في السابق من أننا اندفعنا في مغامرة عسكرية وسياسية غير محسوبة وغير متوازنة، وأنها لم تُبن على معلومات وخطط دقيقة، والأكثر كارثية، أنه لم يكن هناك تكامل بين الرؤيتين العسكرية والسياسية. لقد كان كل منهما يسير في اتجاه رغم الدفع بالحشود العسكرية لسيناء. ولكم أن تتخيلوا حجم الغموض والكارثية حينما أعترف أنني كرئيس أركان لقوات جبهة سيناء، لم أكن أعلم على وجه اليقين مهام القوات التي تم حشدها في سيناء!! وهل

ستقوم بالدفاع أم الهجوم؟! ووجدت أننا لم نبدأ الضربة القتالية في ساحة المعركة العسكرية، لكننا كنا البادئين سياسيًّا وبشكل يوحي لإسرائيل والعالم أننا بصدد المبادرة بتوجيه ضربة عسكرية لها، وذلك باتخاذ عدد من القرارات ومنها قرار عبدالناصر لقوات الطوارئ الدولية بترك المنطقة العازلة بيننا وبين إسرائيل منذ عام 1956 في الوقت الذي لم تحل محلها قوات عسكرية مصرية. وبين المشهد السياسي المندفع في قراراته، وبين المشهد العسكري المرتبك في رؤيته وأهدافه، تعرض المقاتل المصري لأسوأ عملية عسكرية لم تتح له فيها حتى فرصة الدفاع عن نفسه وسمعته القتالية، والدليل ما قامت به القوات العسكرية بالعريش التي لم تتوقف عن قتال العدو إلا بعد صدور الأمر السياسي لها من القاهرة بالانسحاب أثناء عملية القتال.

كان الانسحاب ذاته كارثة أخرى. فقد أصدر المشير عبدالحكيم عامر قرارًا بانسحاب القوات، دون توفير حماية جوية تضمن سلامتها أثناء عملية الانسحاب، التي صدر القرار بها في الثانية صباح يوم السادس من يونيو. وكان على القوات المصرية السير مسافة 200 كيلومتر بدون أي خطة معدة سلفًا لتنظيم عملية الانسحاب.

انسحبت القوات المصرية من صحراء سيناء إلى خط المياه عند الضفة الغربية للقناة، دون أي نظام. حيث رُفضت كل اقتراحات قادة الجيش التي قدموها للمشير عامر بأن يتم الانسحاب خلال 72 ساعة. فسارت القوات شاردة في كل اتجاه، لا هدف للجميع سوى الوصول للضفة الغربية للقناة للابتعاد عن ضربات العدو الإسرائيلي التي لم ترحم تلك القوات، بل طاردتها في صحراء سيناء كلما تمكنت من ذلك، وباستخدام قنابل النابالم؛ فاستشهد من استشهد، وأسر من أسر؛ ولذا أقول وبحق، لم يُهزم الجندي المصري في

يونيو 1967، ولكنه لم يُمنح فرصة القتال والدفاع عن أرضه. ودفع ثمن عدم كفاءة القيادة العسكرية للقوات المسلحة التي لم تدرك حجم عددها، ولم تخطط مع القيادة السياسية لفهم أبعاد الموقف، وتحديد المهام المطلوبة من أي عملية عسكرية، فخسرنا حجمًا كبيرًا من المعدات والأسلحة العسكرية التي اضطرت القوات لتركها وراءها لخطة الانسحاب. ودفع الجميع الثمن؛ من أخطأ ومن لم يخطئ.

ففي صباح يوم 14 يونيو 1967، أي بعد النكسة بتسعة أيام، اتصلت تليفونيًّا من الإسماعيلية بالفريق أول محمد فوزي القائد العام للقوات المسلحة، وسألته عن الموقف الحالي فأجابني باقتضاب، طالبًا مني أن أتوجه إلى القاهرة لمقابلته.

تحركت على الفور من الإسماعيلية إلى القاهرة، وتوجهت مباشرة إلى منزلي حيث استبدلت ملابسي الميدانية التي لم أستبدلها طوال أسبوعين، ثم انتقلت إلى مقر القيادة، لكنني لم أجد القائد العام في مكتبه. وتجولت على بعض الزملاء في مكاتبهم، وكانت مقابلتهم لي تشي بأن هناك أمرًا يحاول الجميع إخفاءه عني، حتى أعز الأصدقاء، شعرت في حواراتي معهم بشيء غامض. وكانوا وقتها في مؤتمر في العمليات يناقشون حسم مسألة ما إذا كان يجب أن تستمر القوات البرية في تشكيل الفرق أم تنقسم إلى مجموعات عمليات مثلما يحدث في الجيش الإسرائيلي. واشتركت في المناقشة معهم وكنت مصممًا على الاستمرار في تشكيل الفرق. وكان تركيزي أساسًا على إقناعهم بأن هذا التنظيم أفضل بكثير من حيث التسليح والتدريب وتكوين القادة، وكان رأيي مستندًا إلى خبرتي السابقة كقائد فرقة.

وخلال المناقشات، تأكد لي إحساسي بأن هناك سرًّا يخفيه عني الجميع

ولا يجرؤ أحدهم على مكاشفتي به. وكان أول ما خطر ببالي أن هناك قرارًا سريًّا صدر بإحالتي إلى التقاعد، فعدت إلى مكتبي في القوات البرية وطلبت اللواء محمود القاضي الذي كان قد تسلم أعمال «كاتم أسرار». ودار بيننا الحوار التالي:

- هل هناك شيء بخصوصي؟

- نعم.

- هل صدر قرار بإحالتي إلى المعاش كباقي الضباط.

- نعم

- شكرًا.

انتهى الحوار القصير، وغادرت سريعًا، وطلبت من سكرتيري جمع أوراقي ثم توجهت إلى منزلي. وعلى الرغم من أنني كنت أتوقع القرار، فإنني لم أجد له تفسيرًا. استرجعت جميع تصرفاتي قبل وأثناء وبعد المعركة فلم أجد ما يشينني فيها جميعًا، لكنني كنت أشعر بخجل شديد أمام أسرتي وإخوتي. ولم أستطع إخفاء عصبيتي حتى إنني انفجرت غاضبًا في ابني أثناء حواره معي وقلت له: «أبوك لم يخطئ ولم يكن جبانًا بل أدى واجبه كاملًا وأكثر وستثبت لك الأيام ذلك».

لم أتوقف عن التفكير في أسباب إحالتي للتقاعد، وفي اليوم التالي، فكرت في إرسال خطاب للرئيس جمال عبدالناصر أشرح له فيه موقفي وصدمتي في قرار استبعادي، وهو ما حدث، كتبت الخطاب وأرسلته ولم أنتظر طويلًا.

فبعد 10 ساعات من إرسال الخطاب، فوجئت باتصال تليفوني من الفريق أول محمد فوزي، وطلب مني أن أزوره في مكتبه فتوجهت إليه دون

تـردد بملابـسي المدنيـة. وفور دخـولي عليه بـادرني بالقـول إن «الرئيس أمر بعودتك إلى الخدمة وسـتتولى رئاسـة هيئـة التدريب». فقلت له إنني أشـكر السـيد الرئيس، لكنني قبل عودتي أريد معرفة سـبب القرار السابق بإحالتي إلى التقاعد، فكان رده: «هذا الموضوع انتهى ويجب عدم الخوض فيه».

عـدت إلى الخدمـة، محملًا بآمـال وطموحات كبيرة في أن يكون لي شـأن ودور في المعركـة المقبلـة، اقتناعًا منـي بأن القوات المسـلحة في حاجة إلى كل جهد وكل علم في هذه المرحلة الحاسـمة مـن تاريخها. وخلال الأيام العشرة الأولى من رئاستي هيئة التدريب، كان أهم ما ركزت عليه هو إنشاء ما يُسمى «مدارس المعركة المتحركة»، وهي باختصار تعتمد على إرسال ضباط وفنيين مـن إدارة التدريـب المركزيـة إلى الجبهة لتدريب الضبـاط وضباط الصف في فـرق تعليمية قصيرة مركزة، وكان لهذه المـدارس المتحركة دور كبير في ذلك الوقت، لأن الظروف لم تكن تسمح بعودة الضباط وضباط الصف للتدريب في القاهرة وتغيبهم عن مواقعهم.

وأثنـاء رئاسـتي هيئـة التدريب، أتيحـت لي فرصة أن أرافـق كبير الخبراء العسـكريين السوفييت جنرال لاشـنكوف في المرور على الجبهة، ولا أنكر أن شـخصية هذا الجنـرال وعلمه ومعلوماته كان لها تأثـير كبير في نفسي وأقولها صراحة بأنه قائد بارع من جميع النواحي، وأنني حصلت من خلال مصاحبتي له واجتماعي به عدة مرات بعد ذلك على معلومات لها قيمتها.

وفي يـوم 25 يونيـو 67 اسـتدعاني القائد العـام وأبلغني بقرار سـيصدر بتعيينـي قائدًا للجبهـة خلفًا للفريق صلاح الدين محسـن اعتبارًا من 1 يوليو 1967، وأمرني بالاسـتعداد لذلك، كما نبه عليَّ بـضرورة المرور عليه لمقابلته قبل أن أتسلم العمل.

عـدت إلى مكتبـي وأنا أفكر في هـذا المهمة الصعبة في ذلـك الوقت، فقد كنـت عائـدًا من الجبهة قبل أيام قليلة، وكنت أشـارك الفريق صلاح محسـن أحلك الأوقات، كما سـبق لنا التعاون معًا في إعادة تنظيم القوات وتسكينها غـرب القناة. وحين صدرت لي الأوامر، كان الموقف على الجبهة يتلخص في الآتي: القوات مهلهلة تفتقد القيادات والتنظيم، وحالة المعدات سيئة للغاية ومعظمها تالف، وبعض الأسـلحة تنقصه الذخيرة، والدبابات معطلة بما في ذلـك طـرازات GS، T54، T55، T34، والروح المعنويـة منخفضة للغاية، خاصة أن كثيرًا من هذه القوات عاد من سـيناء سـيرًا على الأقدام دون طعام أو ميـاه، وكان الأسـوأ مـن ذلـك أن الجنود فقـدوا الثقة في ضبـاط الصف، وضبـاط الصف فقـدوا الثقة في الضبـاط، والضباط فقدوا الثقـة في قادتهم، والقيادة فقدت الثقة في هذه القوات.

كانـت هـذه الصـورة الواضحـة بالنسـبة لحـال القـوات، أمـا الحالـة الاسـتراتيجية فيمكـن تلخيصها فى: رقعة مـن أرض الوطـن يحتلها العدو، وجبهة قتال مكشوفة، وسيطرة جوية كاملة للعدو على غرب القناة، وقوات ضئيلة جدًّا ومبعثرة وأسلحة غير صالحة للعمل، وروح معنوية منهارة نتيجة الصدمة العصبية التي جعلت اليأس يسيطر على تفكير البعض.

كنـت أتأمل الجبهة فأرى جنـودًا في ملابس مهلهلة، لم يغتسـلوا منذ أيام طويلـة، حتـى وصل الأمـر إلى أن الضبـط والربط الذي هو عقيدة أساسـية للقوات المسـلحة تحول إلى قرار اختياري، باختصار كان الموقف ميئوسًـا منه تمامًا، خاصة أن العدو كان أمامنا يتباهى بقوته وانتصاره على مرأى من أعين جنودنـا، ووصـل إلى درجة أن أفراد جيش الاحتلال كانوا يسـبحون في قناة السـويس، وإذا أطلـق أحد جنودنا طلقـة واحدة، يردون علينـا بالعشرات.

وكان مجموع القوات عند تسلمي الجبهة كالآتي: الفرقة السادسة بقيادة اللواء سعدي نجيب والفرقة الثانية بقياده اللواء عبد السلام توفيق رئيس أركانه وتشمل الكتيبة 120 واللواء الرابع واللواء أول مدرع الذي كان مجموع دباباته يوازى كتيبة مدرعة، أي أنها كانت بقايا الفرقة المدرعة.

أصررت على اختيار اللواء محمد عبدالغني الجمسي والعميد حسن الجريدلي؛ لإنجاح المهمة التي كُلفت بها، وليتحملا معي مسئولية إعادة تنظيم الجبهة. وقتها رفض الفريق أول محمد فوزي طلبي هذا بحجة الأقدمية. لكنني أصررت على الموقف حتى صدر قرار رئاسي بذلك.

انشغلت في تلك الفترة بإجراء تقدير موقف سريع ووضعت لنفسي أهدافًا محددة، أهمها: إعادة تنظيم القوات وشئونها الإدارية وتدريبها وإعادة الضبط والربط إليها، وإعادة الثقة في نفوس الأفراد وبث الروح القتالية، والمحافظة على أمن القوات، ومنع العدو بجميع الوسائل والإمكانات المتيسرة من عبور قناة السويس، والرد بعنف على اشتباكات العدو الخاطفة.

وطوال الشهور الثلاثة التالية، عملت على رفع الروح المعنوية للقوات من خلال بعض الإجراءات والعمليات، كان أهمها معركة رأس العش، وتدمير المدمرة إيلات وإغراقها وتسلم الأسلحة والذخائر والمعدات الجديدة وتكثيف الفرق التعليمية وإعطاء الثقة للجنود والضباط في أسلحتهم والمرور المستمر على الوحدات يوميًا.

كان رفع الروح المعنوية للجنود يتمثل في خوض معركة قتالية ناجحة ومنها معركة رأس العش، بعد أن اعتقد الشعب المصري والعالم بأكمله أن القوات المسلحة المصرية انتهت بنكسة 5 يونيو، ولكن يشاء الله أن يوفَّق

الجنـود المصريـون في تحقيق نجاح منقطـع النظير خلال معركـة رأس العش بفضـل التخطيـط الدقيق، فعندما انسـحبت القوات المسـلحة أصبحت كل مدن القناة خالية من القوات عدا مدينة واحدة هي بورفؤاد التي كان بها قوة عسـكرية بسـيطة. وكان هدفنا أن نمنع سـقوط مدينة بورفؤاد فوضعنا فيها قوة بسـيطة جـدًّا تؤمن الدخول إليهـا من جنوب شرق القنـاة. على الجانب الآخر كانت القوات الإسرائيلية تجهز للوصول إلى بورفؤاد هي الأخرى عبر هـذا الجـزء الضيق للغاية الذي يشـبه الرأس، وكان يطلق عليها اسـم طريق البركة. وقامت معركة رأس العش وانتصرت قوة الجيش البسـيطة الصغيرة وبقيت بورفؤاد سالمة وارتفعت الروح المعنوية للجنود.

الطريـف في معركـة رأس العـش، أنها تـم تصويرها بعدسـات كاميرات محطات التليفزيون الأمريكية التي سـمحت لهـا القيادة الإسرائيلية بالتواجد مع القوات لتصوير احتلالها لمدينة بورفؤاد.

ولم تكـن معركة رأس العش وحدها التي رفعـت الروح المعنوية للجنود المصريـين بل توالـت المعارك الصغـيرة الناجحة، ففي يـوم 14 يوليو طلبت من الفريق مدكور أبوالعز قائد القوات الجوية قصف العدو الإسرائيلي لرفع الـروح المعنويـة وتوصيل رسـالة للعالم مفادهـا أن الجندى المـصري لم يفقد القـدرة عـلى القتال برغم تفـوق العدو، وبالفعل ارتفعت نسـورنا إلى سـماء سـيناء وقصفت قوات العدو بعنـف، الأمر الذي فاجأ القـوات الإسرائيلية وأذهل العالم.

وفي 21 أكتوبـر 1967 سـجلت البحريـة المصرية حدثًا فريـدًا في تاريخ الحـروب البحريـة على المسـتوى العالمي، ففـي ذلك الوقـت تقدمت المدمرة الإسرائيليـة إيـلات في غـرور، ووصلـت إلى مياهنـا الإقليميـة أمـام مدينة

بورسعيد، وانطلقت لنشاتنا الصاروخية تسبقها لتطلق صواريخ بحر لأول مرة في الحروب البحرية لتسكن المدمرة إيلات التي تمثل نصف القوة البحرية الإسرائيلية في ذلك الوقت قاع البحر وتغرق معها آمال المؤسسة العسكرية وغطرستها.

وكنت أتوقع من إسرائيل ردًّا عنيفًا على الجيش المصري عبر ضرب ميناء السويس الذي كان مكدسًّا بالمراكب وخزانات البترول؛ الأمر الذي يجعل من الميناء صيدًا ثمينًا جدًّا للعدو، وكان الأمر سيتحول إلى كارثة فعلية لمصر في حالة ضرب إسرائيل ميناء السويس. وأرسلت تقريرًا للرئيس جمال عبدالناصر استعرضت فيه خطورة الموقف والتوقعات المحتمل حدوثها، فأمر بإخلاء ميناء السويس فورًا من البواخر ونقلها إلى خليج السويس بعيدًا عن الميناء، كما أمر وزارة البترول في القاهرة بإخلاء خزانات البترول. وبعدها مباشرة حدث ما توقعته حين شن العدو غارات على السويس، لكن الخسائر لم تكن كبيرة بعد أن استبق جمال عبدالناصر الغارات بقرار إخلاء القناة من المدنيين، وكان هذا بداية التهجير.

وتوالت العمليات الاستنزافية والقتالية لكنها كانت فترة عصيبة؛ لأن الجبهة كانت واسعة وتحتاج إلى سيطرة أكبر، وقتها رأيت ضرورة تقسيم الجبهة إلى جيشين ميدانيين، والعمل على إعادة تنظيم القيادة، وهو ما حدث بالفعل، وتوليت أنا قيادة الجيش الثانى، فيما تولى اللواء عدلي حسن سعيد قيادة الجيش الثالث.

طوال تلك الفترة، كنت أعاني قلقًا شديدًا، حتى إنني قبل نومي كنت أحرص على وضع التليفونات إلى جانب السرير، ولا أستطيع النوم إلا بعد اطمئناني على عودة جنودنا من الضفة الأخرى في الأيام التي كنا نكلفهم

فيها بعمليات خاطفة ضد العدو، وإذا أصيب أو استُشهد جندي أشعر بيني وبين نفسي بالذنب والمسئولية، وكثيرًا ما كانت زوجتي تحاول التخفيف عني خاصة عندما أتحدث أمامها عن أي شهيد وأقول لها إنني كنت السبب في يتم أبنائه.

وأذكر أنني حينما ذهبت للجبهة بعد النكسة، وأصررت على أن أكون مثل الجنود في كل شيء، حتي إنني كنت أنام في كشك من الصاج، وأمارس عملي في حجرة خشبية أسفل شجرة، وظللت هكذا حتى سقطت مريضًا بفعل الرطوبة والبرد الشديد. فتم بناء حجرة لي تحت الأرض بعيدة عن نيران العدو في حال قصف الموقع الخاص بقائد الجبهة.

والحقيقة أنني لم أكن أهتم إلا بشيء واحد، كان هو هدفي الأساسي، وملخصه إعادة بناء وتنظيم الجبهة والدفاع عن عمق مصر. وتوجيه ضربات عسكرية موجعة للعدو الإسرائيلي كلما أمكن ذلك. وكان هناك العديد من الأبطال المصريين الذين سطروا معجزات في تاريخ العسكرية المصرية ومن بينهم العميد الشهيد إبراهيم الرفاعي والذي أدى العديد من المهام الوطنية، ومنها على سبيل المثال تفجير إحدى المناطق الإدارية لنا في سيناء التي كان العدو قد استولى عليها بعد انسحاب القوات المصرية، وخزن بها ما تم جمعه من سلاح وذخائر وعتاد عسكري تركه الجنود دون أن يتمكنوا من العودة به. كانت المعلومات قد وصلت لي من بعض البدو الوطنيين، بموقع هذه المنطقة الإدارية في شمال الشط. وزاد إصراري على تفجير الموقع لحرمان العدو من الاستفادة منه. فعهدت لمجموعة من خمسة رجال من أبطال الصاعقة بتلك المهمة بقيادة إبراهيم الرفاعي، فعبروا القناة في قوارب صغيرة، وقاموا بتلغيم المركز كله، ثم عادوا سالمين إلى غرب القناة. ولن أنسى ما حييت مشهد النيران

وهي تأكل المركز بالكامل. وعلمت أن القائد الإسرائيلي الذي كان مسئولًا عن هذه الذخائر قد قتل في هذه العملية. كما أذكر لإبراهيم الرفاعي عملية أخرى لا تقل عن الأولى في عظمتها. حيث رصدنا عام 1968 أنواعًا جديدة من الصواريخ المثبتة على الضفة الشرقية للقناة، فكان لا بد من الحصول على أحدها لمعاينتها وفحص إمكانياتها. فأصدرت أوامري لمجموعة من أمهر المقاتلين يتقدمهم إبراهيم الرفاعي بإحضار أحد تلك الصواريخ، فتسللوا بملابس الضفادع البشرية لموقع العدو في الشط، وهم لا يحملون سوى خناجر وقاطعات أسلاك.. واستولوا على عدد من الصواريخ التي عادوا بها رغم الحراسة الإسرائيلية الشديدة. ولكنهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وأقسموا على حماية وطن..

كنا كلنا في الجيش المصري عقب نكسة يونيو 1967 نعلم ـ قادةً وجنودًا ـ أن يوم الثأر آت لا ريب فيه؛ ولذا كان كل منا يعلم مهمته ويسارع لأدائها. وضعنا خطة دفاعية عن جبهة القناة، وعملنا تجهيزات دفاعية ممثلة في حفر الخنادق والمواقع الدفاعية. وزدنا من ساعات التدريب الشرس بما هو موجود بالفعل بين أيدينا. وازدادت مدفعيتنا قوةً وثباتًا، فأصدرت أوامري بإلحاق خسائر بالعدو عبر توجيه ضربات مباشرة له وكان ذلك في سبتمبر من عام 1968. فدمرنا بطاريات الصواريخ الإسرائيلية أرض/ أرض التي كان العدو يقصف بها مدينة الإسماعيلية. ولعل ما قمنا به في تلك الفترة كان الدافع الأساسي للعدو للبدء في إنشاء خط تحصينات قوي يغطي خط المواجهة بأكمله. فكان خط بارليف.

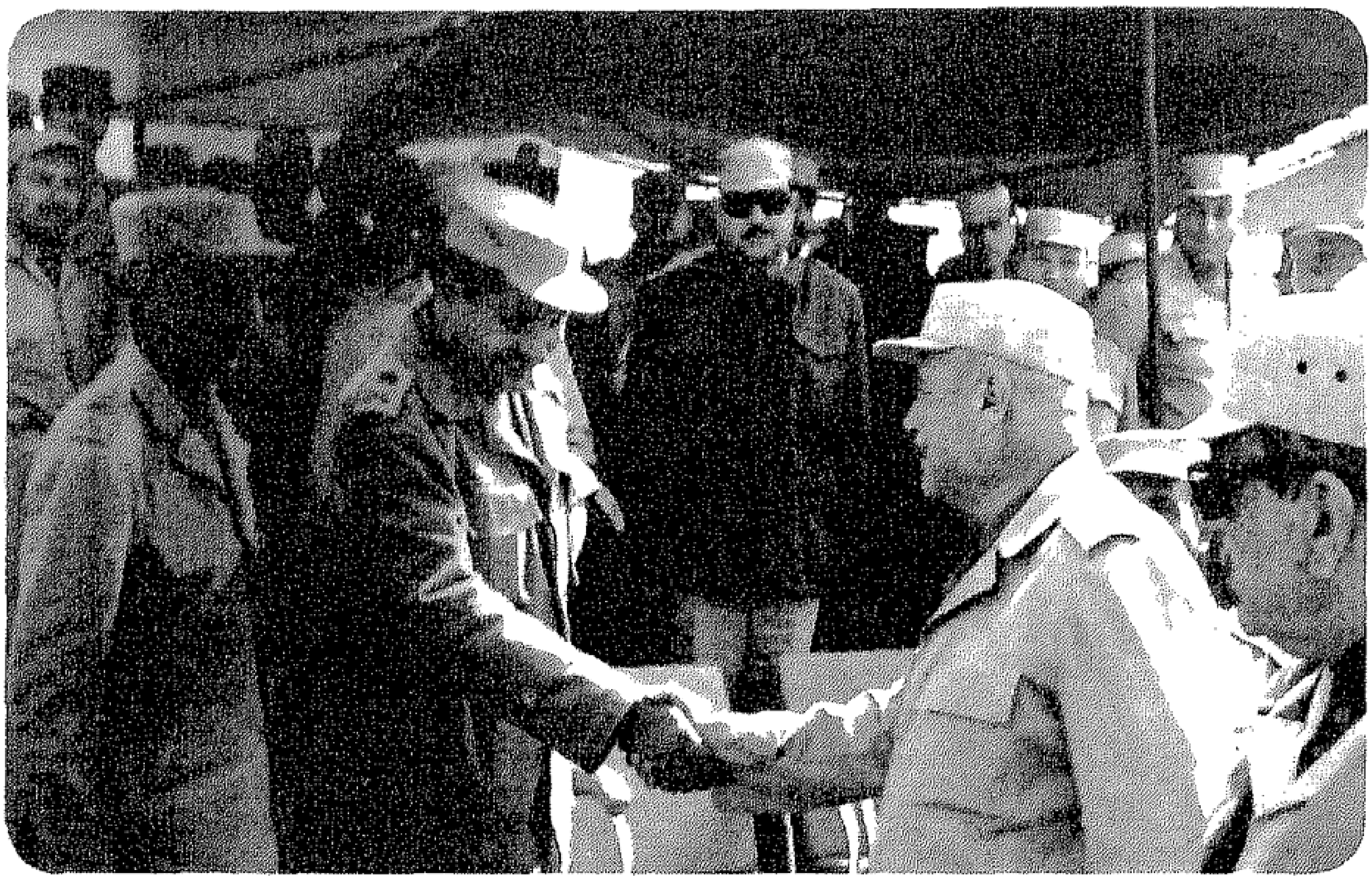

▲ أحمد إسماعيل يصافح اللواء فؤاد عزيز غالي قائد الجيش الثاني بعد حرب أكتوبر.

▲ الرئيس جمال عبد الناصر وأحمد إسماعيل أثناء المرور على القوات في مدينة السويس.

مشوار الحياة
والحرب مع عبد المنعم رياض

رأيت الفريق عبدالمنعم رياض للمرة الأولى عندما كان «باش شاويش» الكليـة الحربيـة بعد تخـرج دفعة حافظ إسماعيل التي تولت بعـد ذلك إدارة الكلية، وكنا نحن في القسـم المتوسط من يوليو 1937 إلى فبراير 1938، ثم تولينا إدارة الكلية كضباط صف بها. كان رياض - رحمه الله - عابس الوجه شـديد العسـكرية ولم يكن بيني وبينه أي عـمار، حتى إنـه كان يعطينا طابور زيادة دون سـبب؛ ولذلك كنت دائماً أحاول جاهدًا ألا أقابله في ممر أو طريق حتى لا أتعرض لعقابه.

وتخرجنا وتفرقنا... توجه هو إلى سلاح المدفعية المضادة للطائرات وكان مـن الفطاحـل في هذا المجال، وتوجهت أنا إلى المشـاة وشـققت طريقي. ولم نلتـق في أثنـاء الخدمة إلا قليلا جدًّا وفي مناسـبات متباعدة، إلى أن عدت من الكونغـو وألحقني المشـير بالعمليـات الحربية لأتولى قسـم التخطيط في هذه

العمليات وكان رئيسها الفريق محمد فريد سلامة، وكان الفريق رياض نائب رئيس هذه العمليات، وبدأ احتكاكنا ببعض، وكان أهم شاغل لنا ولهيئة العمليات في هذه الأيام، هو وضع خطة دفاعية سليمة، أذكر أن اسمها كان «نمر» أو «فهد». كان ذلك في العام 1961، وكان الفريق رياض يتولى تدريب الجند على هذه الخطة قبل نقلي إلى العمليات. وفي مؤتمر دراسة الخطة أجريت تعديلًا جوهريًّا في بنودها، على أساس النطاقين الأول والثاني الدفاعيين وكيفية وضع النسق الثاني والاحتياطيات، فعارضني الفريق رياض طويلًا، ثم قال لي في نهاية النقاش: «الفيصل هو الأرض»، فقلت له: إنني أعرف أرض سيناء جيدًا وأحفظها عن ظهر قلب. ووقتها انتقل هو ومعه بعض ضباط العمليات إلى سيناء في رحلة استغرقت أسبوعًا عاد بعدها وقال لي: «أنا أحترمك وأحترم رأيك وتفكيرك العسكري، ولقد عدلت الخطة على أساس ما ذكرت من آراء». وكانت هذه بداية صداقة ومحبة قلبية بيننا. وأصبح يأخذ رأيي في كل خطوة يخطوها في العمل بعد ذلك. وكان المشروع الاستراتيجي الذي تم على مستوى القيادة العامة باشتراك الجيش الأول في سوريا، مجالًا آخر عظيمًا لعملنا معًا ودراسة كل منا للآخر.

ودارت الأيام حتى جاء عام 1965 وتزاملنا في الدراسة بالأكاديمية، وكنا دفعة واحدة، وعملنا معًا، واشتركنا في المشروع على مستوى مجموعة الجيوش، كان هو القائد وأنا رئيس الأركان في المشروع، فزادت الألفة والمعرفة والمحبة بيننا. وأذكر أنه عندما سمع بقرار تعييني رئيسًا لمؤسسة تعمير الصحارى اتصل بي وقال لي «كيف تقبل هذا؟! سأقابل المشير وأذكر

لـه أنه ليس لدينا مثلك فكيـف يفرط فيك؟ وكم من الأعـوام نحتاج لنعلم ونبني جنرالًا في مثل علمك ومعلوماتك وخبرتك؟».

والتقينـا مجـددًا في سـيناء، عام 1967 قبـل الاعتداء، في مطـار تماده وقد استدعته القيادة ليذهب إلى الأردن فقال لي: «لا تتركوا صلاح محسن لوحده كيـف يكون مصـير البلد في يده في هذه الفترة العصيبة؟». وحدثت النكسـة وعاد من الأردن، وتولى رئاسة أركان القوات المسلحة وكنت أنا قائد الجبهة وكان يحلو له المرور وزيارتي من وقت لآخر، ونتجاذب أطراف الحديث عن كيفية مواجهة الأزمة.

كان عبدالمنعم رياض يقول دائمًا: «لا أحد يسـتطيع أن يناقشـني في عملي إلا شـخص واحد هو أحمد إسـماعيل». وبعد وفاته، وتعييني رئيسًا للأركان بـدلًا منه، كان من الصعب عليَّ في بداية الأمـر أن أدخل مكتبه وأجلس على نفس الكرسي الذي كان يجلس عليه منذ أيام قليلة. في الحقيقة كانت نفسيتي سيئة، وكلما دخلت المكتب شعرت بوجود عبدالمنعم رياض، لم أستطع تقبل فكـرة أن أدخل المكتب فلا أجده؛ لذلـك رفضت الجلوس في مكتب الفريق رياض لفـترات طويلة، واخترت بـدلًا منه مكتبًا مجـاورًا احترامًا لعبدالمنعم رياض وتقديرًا له حتى جاء يوم فوجئت فيه بحضور شقيق عبدالمنعم بنفسه إليَّ، وأخـذني مـن يـدي ودخل بي إلى المكتـب وقال لي: «اجلـس يا أحمد على كرسـيك»، وعندما رفضت سـارع بالقول «خلاص.. سأجلس أنا أولًا على كرسي عبدالمنعم لكي توافق على الجلوس».

ولـن أنسـى يـوم 9 سـبتمبر 1969 الـذي أزحت فيه السـتار عـن تمثال عبدالمنعـم ريـاض في أكاديميـة نـاصر العسـكرية، ويومهـا قلـت في كلمتي

عنه «عاش بطلًا ومات بطلًا». وكان هذا آخر عمل دعائي لي في القوات المسلحة. ونشرت الأهرام بعدها بيومين كلمتي التي ارتجلتها في الكلية الحربية أوصيهم بالعلم والمعرفة.

ولذا فمهما مرت الأيام، وتوالت الذكريات، فإنني لا أستطيع نسيان ذلك اليوم الذي استشهد فيه هذا البطل. والذي بدأ منذ يناير عام 1969، أي قبل نحو شهرين من استشهاده. حينما كنت أتولى رئاسة هيئة العمليات بالقوات المسلحة، وقررت في بدء خطة هدفها تدمير خط بارليف بالكامل، وإلحاق الخسائر بأفراد العدو. وقررت قصف خط بارليف بالمدفعية المصرية يوم 8 مارس 1969 ونجحت تلك الضربات في هدم الدشم الحصينة التي أقامها الإسرائيليون للمرة الأولى. لقد استمر هذا القصف خمس ساعات متواصلة، وفي صباح 9 مارس 1969 توجه الفريق عبدالمنعم رياض رئيس الأركان، إلى المواقع الأمامية لمشاهدة نتائج القصف بنفسه، وأدرك العدو وجود رئيس الأركان فقصف الموقع، ليسقط شهيدًا، ولينتابني أنا الحزن الشديد على رحيل هذا البطل الذي كان يتمتع بخصال الرجال ويزيد عليها في مستواه الثقافي والعسكري الراقي الذي يتمتع به. وقبل كل هذا كان صديقًا أثر فيَّ رحيله بشدة، كنا كثيرًا ما نتنافس في المعلومات العسكرية، وعندما كنت أكسبه، كان يقدم لي زجاجة كوكاكولا وهو يضحك قائلًا بسعادة: «لك عندي رهان»... لذا لم أتمالك دموعي وهم يخبرونني باستشهاده.. كنت أبكي لإدراكي حجم خسارة مصر برحيل هذا الرجل.

▲ أحمد إسماعيل على الجبهة المصرية أثناء حرب الاستنزاف مع بعض الضباط.

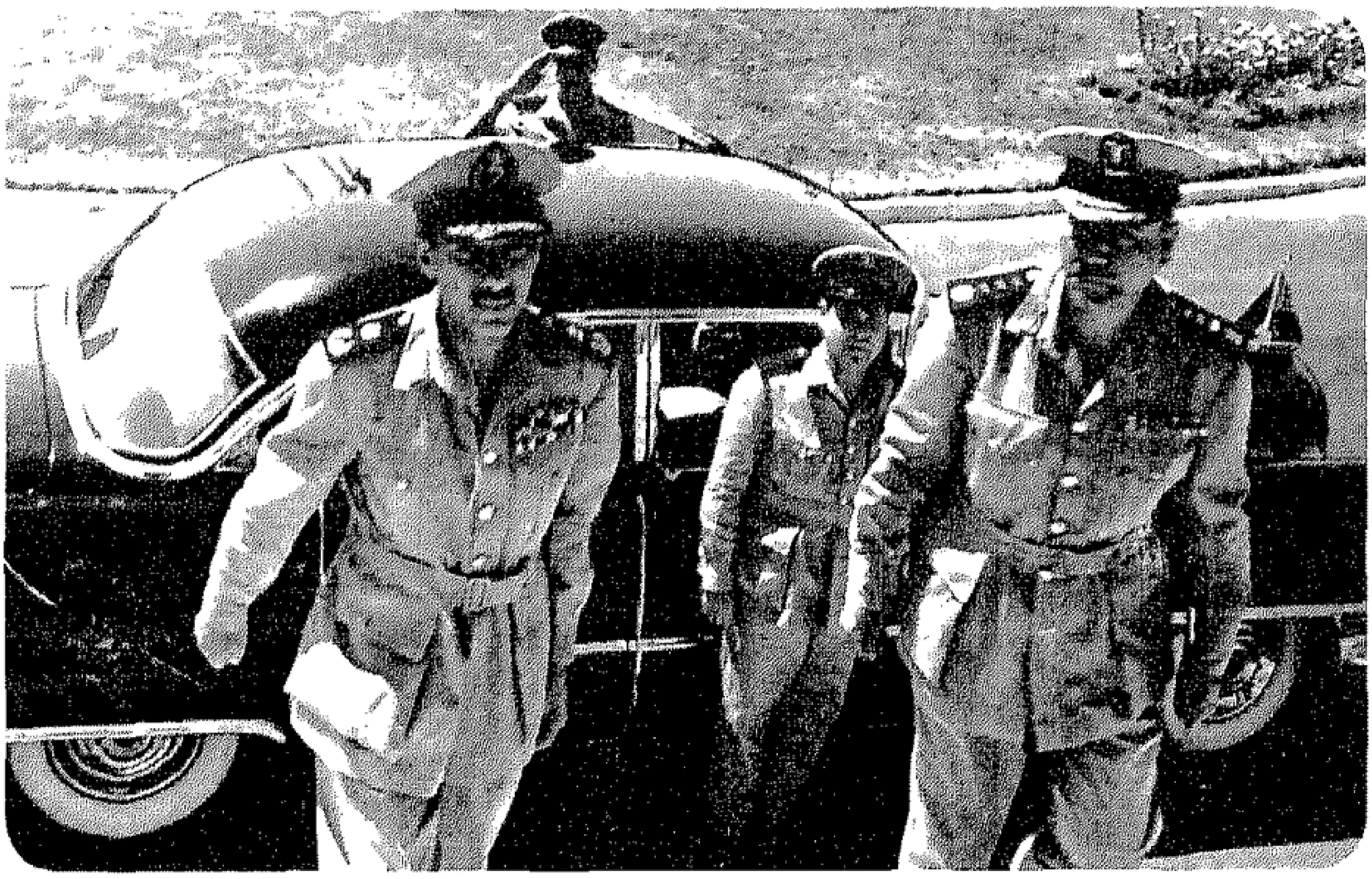

▲ أحمد إسماعيل مع المشير عبدالحكيم عامر.

ضربات الاستنزاف

في يوليو 1969، بدأ العدو في اســتخدام قواته الجوية بشراســة في منطقة بورفـؤاد ورأس الـوزة «الشريط الممتد مـن القنطرة حتى بورسـعيد»، وهي شريط عرضه لا يزيد على 800 متر، وطوله 30 كيلومترًا، ويقع الطريق على الشــاطئ الشرقي لقناه الســويس ثم طريق القناع ثم الترعة الحلوة ثم السكة الحديـد، أي أنها منطقة مكدســة تحدها المياه شرقًا وغربًـا خصوصًا في فصل الشتاء.

توجهـت إلى غرفة عمليات الدفـاع الجوي، وكان على يمينـي قائد الدفاع الجوي وعلى يساري قائد القوات الجوية، وكانت قاذفات العدو المقاتلة وعدد كبير من المقاتلات على ارتفاعات مختلفة، فقررت إدخال طائراتنا لإذاقة العدو قسوة حرب الطيران، ووقتها لم نكن نجرؤ على هذه الخطوة؛ نظرًا لحالة قواتنا الجوية وعدم استعدادها الكامل، فأصدرت الأوامر بتجهيز أهداف للقاذفات المقاتلـة «ســوخـــوي» على شــاطئ القنــاة، وكانت محطات الـرادار من ضمن

تلك الأهداف. وقررت الضرب قبل الغروب مباشرة حتى إذا ما أراد العدو التدخل يكون الليل قد خيم على الجبهة ليفسد عليه محاولة الرد.

وبالفعل، وجهت قواتنا الجوية ضربات للعدو بحوالي 16 قاذفة مقاتلة في تمام الساعة السادسة وقت الغروب. وعادت قواتنا سالمة عدا طائرة أصيبت في أثناء عودتها. وكانت المفاجأة كاملة للعدو وكبدته خسائر جسيمة، وأذاعت وكالات الأنباء خبر تدخل قواتنا الجوية في المعركة، وهللت له، حتى إنني في اليوم التالي فوجئت بصورة للفريق فوزي ومعه قائدا القوات الجوية والدفاع الجوي، يتلقون التهنئة من الرئيس عبدالناصر على الشجاعة والخبرة والقدرة، وكأنني لم يكن لي أي دور في تلك الضربات.

وبهذه المناسبة، يجب أن أشير إلى أنني حينما عرضت على الوزير اقتراح توجيه هذه الضربات، طلب مني أن أنتظر، ثم استأذن القيادة، وعاد ليعطيني التصديق وقال لي: «على مسئوليتك»، فقلت له: «نعم على مسئوليتي»، ونفذنا الضربات ووفقنا الله فيها، ومن يومها أصبح العدو يعمل لقواتنا الجوية ألف حساب.

ومن أبرز محطات حرب الاستنزاف، معركة الجزيرة الخضراء، وهي جزيرة صخرية صغيرة مساحتها 1 كيلومتر في نصف كيلومتر تقريبًا، أرضها صخرية تتوسط خليج السويس فيما بين بورتوفيق ورأس المسلة، وتبعد حوالي 3 كيلومترات عن الساحل الغربي و4 كيلومترات عن الساحل الشرقي، وهي جزيرة منعزلة تتحكم في مدخل قناة السويس من الجنوب، كما أنها تتحكم في السويس وبورتوفيق على الشاطئ الغربي، وتتحكم في منطقة الشط وعيون موسى وراس مسلة على الشاطئ الشرقي. استخدمها البريطانيون أثناء الحرب العالمية الثانية كموقع للمدفعية المضادة للطائرات،

واستخدمناها نحن أيضًا لنفس الغرض. وعندما كنت قائدًا للجبهة كان هذا الموقع يشغلني دائمًا؛ لأنه منعزل تحيط به المياه من جميع الاتجاهات والاتصال به يتم بواسطة القوارب أو اللنشات. وقد أعيد تخطيطه تمامًا ضد نيران المدفعية والطيران، وكان مفيدًا دائمًا، ويعتبر من النقاط الصعبة التي طالما أعطيتها اهتمامي، وأوصي القادة المحليين بالاعتناء به واليقظة له.

وفي ليلة 19 يوليو 1969، وكنت رئيس أركان القوات المسلحة تم إبلاغي بأن قوات العدو اقتربت من الجزيرة فتحركت فورًا إلى هيئة العمليات وفي غرفة العمليات سمعت تعليمات لقائد الجيش جاء فيها: احتل اليهود الجزيرة، وآخر إشارة وصلت أن حامل الجهاز يرى أمامه ضابطًا يعطي أوامره للجنود اليهود في الجزيرة ويطالب بالنجدة.

لم تكن أمامنا وسيلة في ليلة حالكة الظلام حيث لا يمكن تحريك لنشات ولا توجد قوات يمكن استخدامها، كما أن البحرية لم تكن جاهزة لمثل هذه العملية، فأمرت قائد الجيش بضرب الجزيرة وقصفها بنيران مركَّزة ثم الضرب على المياه حول الجزيرة وفعلًا تم ذلك، وأُخذ اليهود على غِرة حيث تناثرت شظايا المدفعية وأسرع العدو إلى قواته تلاحقه المدفعية، ثم أخذنا نضرب عليهم في أثناء انسحابهم وهنا عاد الاتصال ثانية، وأخطرنا قائد الموقع بأن اليهود انسحبوا عائدين إلى الشاطئ الشرقي وكان الوقت فجرًا.

تعتبر هذه المعركة ناجحة من نظرنا وفاشلة من وجهة نظر العدو، إلا أن العدو في محاولة لرفع معنوياته أخذ يطنطن بأنها عملية غير جريئة أو شجاعة، ولكنه اعترف صراحة أن خسائره 9 قتلى و6 جرحى، وهي أعلى

نسبه خسائر يعترف بها في معركة، وفي تقديري وتقدير الخبراء أنه تكبد ما لا يقل عن 40 بين قتيل وجريح.

واعترف موشيه ديان، وزير دفاع العدو، بقدرة قواتنا في حرب الاستنزاف، بعد أن كبدنا جيشه خسائر فادحة حين كنت في منصبي بالقوات المسلحة. وقال ديان في كلمة ألقاها يوم 4 أغسطس 1969 خلال المؤتمر العام لحزب العمل الإسرائيلي (حزب الأغلبية):

«إننا نقف أمام حرب تحاول أن تنهك قوات سلاح المشاة، وتدمر التحصينات، وتصيب خطوط المواصلات الخاصة بنا، وتضمن سيطرة جوية مصرية حتى يتمكن المصريون من عبور القناة عندما يأتي اليوم المناسب لذلك، وهدف إسرائيل هو عبور هذا الصيف والحصول على نصر في معركة تلو الأخرى حتى لا نصل إلى معركة حقيقية. وبلغ عدد إصاباتنا منذ حرب الأيام الستة على الجبهة المصرية 1365 مصابًا و323 شهيدًا، ولكن ما يدعو للقلق أنه منذ شهر مارس ارتفع متوسط المصابين لدينا في كل شهر، فقد كان هناك 65 مصابًا في إبريل، ثم 74 في مايو و91 في يونيو و140 في يوليو، وهذا رقم يفوق الضعف لأعداد الشهور الأكثر سخونة واشتباكات في الماضي».

كانت هذه شهادة العدو في فترة قيادتي وهي خير دليل وشاهد.

لقد حققت عمليات العبور للضفة الشرقية نتائج أجهدت العدو، ونجح رجال الصاعقة والمشاة وسلاح المهندسين في اصطياد الدبابات والمدرعات الإسرائيلية، وزرع الألغام على طرق تحركات قوات العدو، وشيئًا فشيئًا تطورت العمليات الفدائية، وباتت تتم في كل وقت من اليوم، ليلًا ونهارًا. فألحقت بالعدو خسائر يومية في العتاد والأفراد.

▲ أحمد إسماعيل مع اللواء علي جمال قبل يونيو 1967.

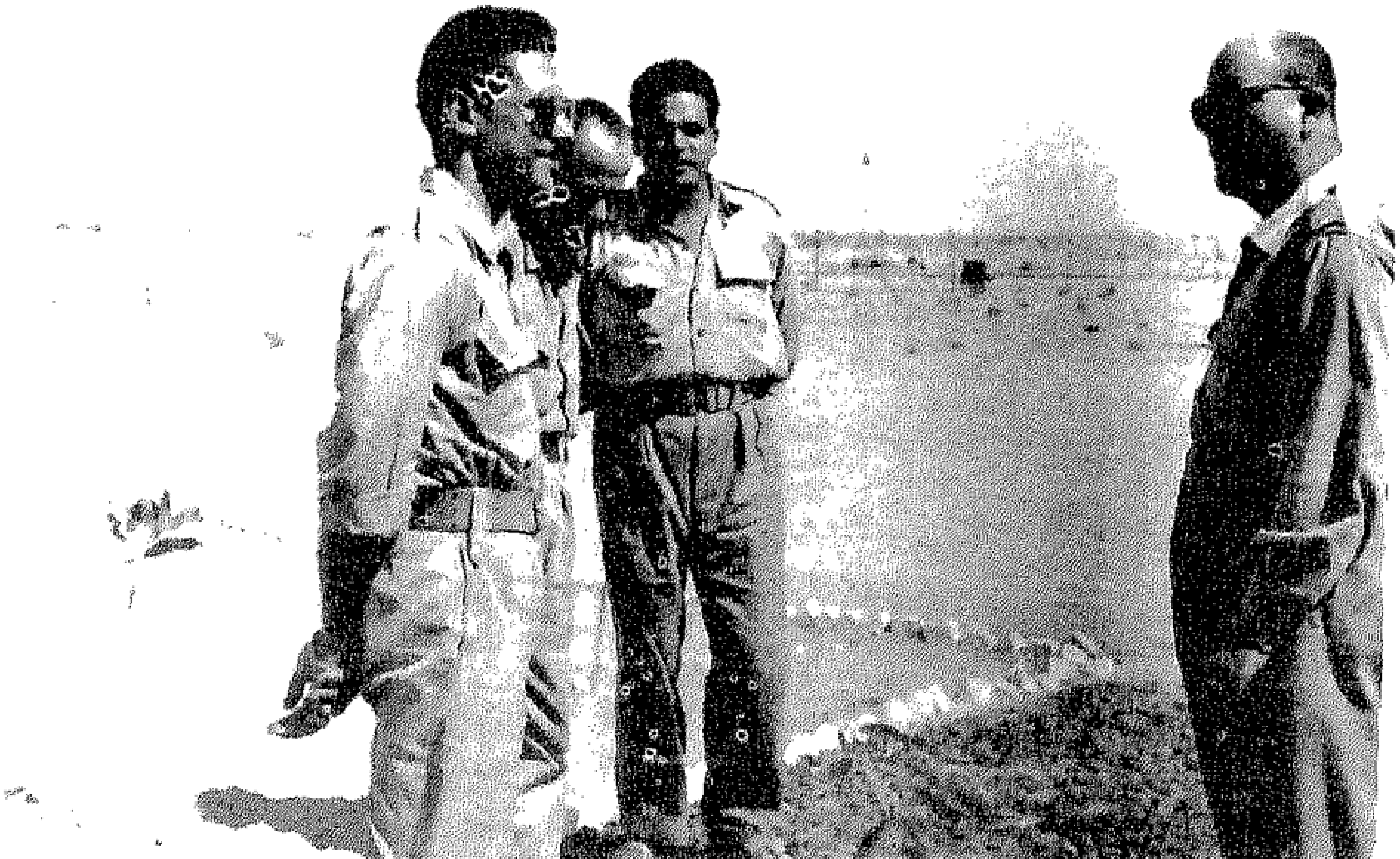

▲ أحمد إسماعيل يتفقد الجبهة أثناء الخدمة في سيناء.

«التقاعد» للمرة الثانية

في أغسطس 1969، انعقد مؤتمر قمة لدول المواجهة، واختير الفريق أول محمد فوزي ضمن وفد مصر، وتم تجاهلي، على الرغم من أن رؤساء أركان باقي الدول بل مديري العمليات أيضًا تواجدوا مع الوفود، وكان المؤتمر على جانب كبير من الأهمية؛ لأنه كان يهدف إلى إزالة العقبات والتخطيط للمستقبل.

وفي أول أيام المؤتمر، كنا في دعوة على العشاء في قصر القبة حيث نُجْري المباحثات، وخرجت الوفود والتقيت عددًا منهم، وكثير منهم كان يتساءل عن سبب غيابي، وتحدثوا عن بعض ما دار في الجلسة الأولى، وقال أحدهم صراحة: «كيف تغيب وتسمع أخبار المؤتمر من الخارج؟» والأغرب من ذلك أن الفريق أول محمد فوزي طلب مني أن أجهز ما يطلب المؤتمر لليوم التالي، وفعلت ذلك دون علمي بتفصيلات ما دار.

وقتها لم أكن أعرف، هوية المسئول الذي يتولى تحديد أعضاء الوفود في

مثل هذه الظروف. وقابلت الوزير فوزي وقلت له: إنني أشعر بحرج كبير؛ لأن نظرائي رؤساء أركان الدول الأخرى أعضاء في وفود دولهم، بل وصل الأمر إلى حضور بعض «المقدمين» فكيف لا أمثل بلدي في هذا المؤتمر ضمن الوفد، فكانت إجابته:

- هذا خطأ لقد دخل الضباط خطأ، وكان يجب منعهم واضطررنا إلى إحضار كراسي إضافية، ولم يكن هذا ضمن الترتيبات.

- إذن كان هؤلاء الضباط زيادة.. لكن رؤساء الأركان أعضاء أصليون في الوفود.

- أنا لا أعرف كيف تم ذلك.

- أنا النائب الأول لك، ويجب أن أعلم كل ما تعلمه، حتى أستطيع أن أحل محلك في غيابك، وحتى يمكنني إعطاؤك المشورة المخلصة. لقد لاحظ معظم القوات المسلحة عدم تعييني في الوفد وكان موضع تعليق لهم....

ولكنه لم يعلق وآثرت الصمت، ولكنني استشعرت شيئًا غير عادي. فقد كنت أدرك أن الفريق فوزي لا يطيق وجودي بجواره.

في عصر يوم 12 سبتمبر 1969، قرر الوزير أن يفتتح مركز القيادة الميداني للقيادة العامة للقوات المسلحة (10)، وهو مركز لا يُفتح إلا في حالة العمليات أو المناورات، فتوجهت إلى مقر العمليات وتوليت قيادتها، وسبقني هو إلى مبنى القيادة العامة بمدينة نصر وهو وضع غير عادي.

وفي ذلك اليوم أدرنا العمل بشكل جيد، حيث أسقطنا 3 طائرات للعدو، إضافة إلى أَسْر طيار إسرائيلي للمرة الأولى. وكانت فرحة كبيرة لا تُقدر بثمن؛

لأننا سنتمكن من الحصول على معلومات عن القوات الجوية الإسرائيلية التي قامت بالدعاية لنفسها حتى أصبحت خرافة، ولا أنكر مطلقًا أن قوات العدو الجوية على درجة كبيرة من الكفاءة والقدرة، إضافة إلى أن طياريها ممتازون بمعنى الكلمة.

ولن أنسب لنفسي دور البطولة، لكن من المهم التنويه بكل تواضع إلى أنه كان لي شرف النجاح في الحصول على الكثير من أسرى ومعدات القوات المسلحة الإسرائيلية، ففي معارك يونيو 67 - ورغم أن الهزيمة كانت تخيم على صدورنا - نجحنا في الحصول على بعض معدات وأسلحة العدو خاصة في معركة رأس العش. وفي يوليو 67 وأثناء معركة «لانشات العبور» بالقرب من بورتوفيق نجحنا في أسر ضباط بحريين، وأمرت بالقبض عليهم من وسط الماء وإرسالهم للقاهرة فورًا، كما تمكنت دورية تابعة للجيش الثالث من اعتقال أسير تابع لقوات العدو البرية. ونجحت القوات الجوية في أسر اثنين من الطيارين اللذين سقطا في أيدينا في سبتمبر 69 وهو نفس شهر إحالتي للتقاعد.

في تلك الفترة، زاد العدو من ضرب طيرانه على شاطئ البحر الأحمر حتى أصبحت الغارات بشكل يومي بعد عملية الزعفرانة. وفي يوم 12 سبتمبر، طلبني الوزير في التليفون وكان في مكتبه بمدينة نصر، بينما كنت أنا في القيادة الميدانية، ودار بيننا الحديث الآتي:

- هل ضرب العدو الزعفرانة مرة ثانية صباح اليوم؟

- نعم.

- ولماذا لم تبلغني؟

- لسـببين، الأول أن مديـر المخابـرات يبلغكـم أولًا بـأول، وثانيًـا لأن المفروض أن تتواجد سيادتكم معنا هنا.

وكنـت أقصـد بذلك استـفزاز الوزير لمعرفـة ما يدور في الخفاء، وسـبب قـراره بإبعـادي عن القيادة، خاصة أنني كنت أشـعر أن هناك حركات مريبة تجري في القيادة، وصدق ظني. وتابع الوزير كلامه.

- طيب تعال لي المكتب أنا عايزك.

وهنا علمت تمامًا من تجربتي السـابقة ما سيسـفر عنه الأمر، فذهبت إليه ودار الحديث الآتي:

- لقد قرر رئيس الجمهورية تنحيتك عن وظيفتك.

- هذا الخبر ليس مفاجأة لي فقد كنت أتوقعه منذ عشرين يومًا.

- لماذا؟

- من معاملتك لي وهذا يحتاج إلى شرح.

- لابد أن تنحيتك لأسباب عامة وليست لأسباب خاصة.

- لا أحد دائم في مركزه وسيأتي اليوم الذي ينهي كل منا عمله.

- نعم هو هذا.

- أتمنى للوطن وللقوات المسـلحة النصر ومعركة النصر آتية، وستجدني مستعدًّا للعمل في أي وقت وأي وظيفة حتى لو كانت قائد رأس العش.

- أتمنى لك التوفيق.

- اسمح لي أن أودع زملائي بالوزارة.

- لا داعي.. يُستحسن ألا يتم هذا.

- المسألة ليست سرية وستُنشر بالجرائد غدًا.

- لا لن تُنشر غدًا سننشرها في الوقت المناسب وبالطريقة المناسبة.

- طلب لي كوبًا من الليمون ورفضت أن أشربه وقلت له: «سأشربه في منزلك يوم النصر إن شاء الله». وذهبت إلى سكرتيري وطلبت منه أن يرسل لي أوراقي الخاصة إلى منزلي. وذهبت إلى المنزل وأمرت الحرس وكشك الحراسة بالعودة إلى القيادة.

وفي أحد لقاءات السيد أنور السادات بمؤتمر الاتحاد الاشتراكي في القاهرة، سُئل عن سبب خروج رئيس الأركان اللواء أحمد إسماعيل من الخدمة فأجاب: اللواء أحمد إسماعيل رئيس أركان حرب القوات المسلحة قام بتحريك قوات في البحر الأحمر للتدريب، أكرر وأقول للتدريب، دون علم الوزير الفريق أول فوزي.

ويعلم الله أن هذا الكلام لا أساس له من الصحة فأنا لم أحرك ولم أعرف أن قوات تحركت إلا في مساء يوم الاعتداء بعد أن تم. وكان المسئول عن التدريب الفريق صلاح محسن، ولم تكن هناك قوات في الزعفرانة نفسها بل كانت في رأس غارب وبعد أن تم الاعتداء أخبرني اللواء عباس عوض الله أن قائد المنطقة هو الذي حرك القوات ويبدو أن «العمليات» وافقت له دون علمي. ولكن يبدو أن السيد الوزير أخطر سيادة الرئيس أنني حركت القوات دون علمه وهذا ظلم وافتراء، وكان يجب أن يتحرى الدقة في الإبلاغ إلا إذا كانت مقصودة.

▲ أحمد إسماعيل على الجبهة أثناء الإعداد لحرب أكتوبر متابعًا كافة التفاصيل.

▲ أحمد إسماعيل مع اللواء عبدالمنعم خليل قبل أكتوبر 1973.

▲ أحمد إسماعيل متأملاً أحوال الجبهة قبل حرب أكتوبر 1973.

▲ .. ويمنح توجيهاته لأحد الضباط أثناء تفقده الجبهة قبل أكتوبر 1973.

خطة في رسالة
لم تذهب إلى صاحبها

طوال سنوات عملي في القوات المسلحة لم يخطر ببالي أبدًا، أنه سيأتي اليوم الذي أُحال فيه إلى التقاعد دون معرفة السبب، ودون أن أرتكب فعلًا شائنًا يستوجب إبعادي بهذه الطريقة غير اللائقة.

لم أستطع إخفاء حزني، وحاولت قدر جهدي توضيح الموقف لأسرتي الصغيرة، لكنني بالطبع لم أستطع توضيح الأمر لزملائي أو معارفي، ولم يكن أمامي سوى اختيار العزلة المؤقتة، تفرغت خلالها للقراءة والكتابة فقط.

تدرجت في جميع مراحل السلم الوظيفي كما خضت حروبًا كثيرة ومعارك حربية صغيرة وكبيرة ولم أكن أبدًا قلقًا أو خائفًا، وتوليت رئاسة أركان حرب الجيش في 1969 وبعدها بستة أشهر فقط خرجت من الجيش. وكانت فترة إحالتي إلى المعاش لمدة عام ونصف في المنزل، لم أرد على أي تليفون من زملائي في الجيش أو خارجه خوفًا عليهم من أن يُعاقبوا أو أن

أتسبب في ضرر لأي شخص منهم، وجاء إلى منزلي بعد إحالتي للتقاعد أصدقاء رفضت مقابلتهم خوفًا على مصلحتهم.

كنت أشعر بحالة لا توصف من الظلم والحزن، وعلى النقيض من ذلك كان أبنائي وكل المتواجدين حولي يتوقعون أن المحنة ستنتهي، بل إنهم زادوا في توقعاتهم بأنني سأصبح وزيرًا، خاصة محمدًا ابني الأكبر الذي كان يردد لي دائمًا أن دوري لم ينته بعد، ولأنني كنت واقعيًا كنت أحطم تلك الآمال التي لا يمل منها، وكنت أؤكد له دائمًا أن دوري انتهى بإحالتي إلى المعاش.

كان محمد يقول لي: إن توقعاته ليست مجرد إحساس فقط، ويذكرني بأنني في عام 1967 كنت قائد الجبهة في مواجهة العدو تمامًا، وكنت حسب التسلسل القيادي قائد الجيشين، تأتيني المعلومات مباشرة من كوبري القبة ومن الوزير أو رئيس هيئة العمليات، بمعنى أنني كنت القائد في الجبهة الشرقية، وبنيت الجيش حتى استعاد قوته من جديد، كما كان جمال عبدالناصر دائم الاتصال بي لمعرفة أحدث التطورات ولم يكن بجانبي سوى الفريق عبدالمنعم رياض وبعد وفاته توليت رئاسة الأركان، وكنت مرشحًا لمنصب الوزير حتى فوجئ الجميع بإحالتي إلى المعاش.

عشت الأيام الأولى بعد إحالتي إلى التقاعد بشكل روتيني، مفضلًا العزلة. وكنت أقضي يومي بين غرفَتَيْ النوم والمكتب التي كنت أستغرق فيها أوقاتًا طويلة. وقررت بعد الشهر الأول من إحالتي إلى المعاش أن أكتب مقالات صحفية وأنشرها في جريدة الأهرام، وهو الأمر الذي شجعني عليه أبنائي وزوجتي. وبالفعل بدأت في كتابة مقالي الأول وكان بعنوان «الحدود الآمنة»، حاولت فيه عرض كيفية تفكير إسرائيل في قناة السويس، حيث

تعتبر أنها من الحدود الآمنة بالنسبة لها، لذلك فكرت في السيناريوهات الممكنة لاختراق الحدود الآمنة، ومنها مثلًا «إغلاق خليج العقبة» ليصبح خليج السويس غير ذي قيمة؛ وبالتالي لو اخترقت مصر قناة السويس وخط بارليف وأخذنا جزءًا من الضفة الشرقية، سنكون قد كسرنا الحدود الآمنة التي يحتمون فيها؛ وبالتالي يصبح الجندي المصري في مواجهة مع الجندي الإسرائيلي وجهًا لوجه.

وبعد انتهائي من كتابة المقال، وجدت أنها فكرة عسكرية ولا يجوز أن تُنشر لكنني رأيت كتابتها بالتفاصيل وتبييضها بخط أفضل. وفي البداية كنت أعتزم إرسال هذه الخطة العسكرية إلى الرئيس جمال عبدالناصر لكنني ترددت خوفًا من أن يقال إنني وضعت تلك الخطة كمحاولة لإعادتي إلى القوات المسلحة مرة ثانية، كما خشيت أن تُنفذ هذه الخطة بطريقة تختلف عن تصوراتي.

وكان الخطاب الذي كتبته لإرساله إلى الرئيس جمال عبدالناصر عبارة عن خمس أوراق من الفلوسكاب القديم. وكان نص الورقة الأولى كالتالي:

«السيد الرئيس جمال عبدالناصر

احترامي وتحياتي

هذه مجموعة أفكار وردت على خاطري من خلال تتبعي للموقف من الجرائد والإذاعات، أردت أن أضعها بين يدي سيادتكم للتكرم بالاطلاع عليها لعلها تكون ذات قيمة في ظروفنا الحالية. وإنني دائمًا وفي كل الظروف

المخلص لشخصكم المؤمن بمبادئكم ووطنيتكم داعيًا لسيادتكم دائمًا بالنصر والتوفيق.

ووقعت باسمي في آخر الصفحة ثم بدأت صفحة جديدة كتبت فيها خطتي، على النحو التالي:

«مذكرة مختصرة عن فكرة عملية محدودة»

«مقدمة»

إن موقفنا الحالي مع استمرار العدو في استخدام قواته الجوية يوميًّا تقريبًا سيؤثر بالضرورة على معنويات القوات المسلحة والشعب تدريجيًّا، وقد يستمر ذلك لفترات طويلة نتلقى فيها ضربات العدو الجوية دون أن نتمكن من الرد عليه بنفس القوة وتكبيده الخسائر المناسبة.

إذن لابد أن نتحرك ونبحث عن موقف آخر يتناسب مع إمكاناتنا وقدراتنا للرد عليه، وأن تكون تحركاتنا محسوبة وتتناسب مع قدراتنا، ولا تختلف كثيرًا في تأثيرها علينا عن موقفنا الحالي، بل إنها تحسن موقف قوتنا في الجبهة وتسمح لها بالعمل بجدية أكبر وباستخدام أسلحتنا التي تتفوق على العدو وهي المدفعية والقوات الخاصة باستخدامها على نطاق أوسع من استخدامها الحالي.

ومع ذلك أرى تحليل الموقف كالآتي:

أهداف إسرائيل

إن هدف إسرائيل حاليًّا هو الضغط على «ج.ع.م» (الجمهورية العربية المتحدة) باستخدام سلاحها الذي يمكنها من التفوق وهو قوتها الجوية كذراع ممتدة تقصف بها

في أماكـن متفرقـة وفي توقيتات مختلفة كنوع من الحرب الوقائية، كما أنها تنفذ عمليـات مشـتركة جوية بريـة بحرية، أحيانًـا، ضد أهـداف متعددة يصعب حصرهـا بغرض التأثير النفـسي والدعاية للإيحاء أمام العـالم بأن إسرائيل لا تزال وسـتظل متفوقة علينا. باختصـار يهدف العدو من هذه الاعتداءات إلى فرض الواقع الآتي:

1 – أن يفقد الشعب ثقته في قيادته وقواته المسلحة.

2 – أن تفقد القوات المسلحة ثقتها في نفسها وقدراتها.

3 – تأخير الجدول الزمني للهجوم نتيجة لإيقاف التدريب وخاصة بالنسـبة للقـوات الجوية والبريـة؛ وذلك بـضرب الأهداف العسـكرية ووضع القوات تحت تهديد الغارات الجوية باستمرار، وكذا اضطرارنا إلى حماية جميع الأهداف في الجمهورية؛ وبذلك تتشتت قواتنا المسلحة.

4 – محاولـة اسـتدراج قواتنا الجوية إلى معارك غـير متكافئة؛ وبذلك تكبدها خسائر كبيرة تمنعها من متابعة التقدم.

5 – إرغام القيادة السياسية على قبول حل سلمي غير عادل وعلى ذلك ينتظر أن يسـتمر العدو في محاولاته هذه مع اختيار أنسب الأهداف التي تحقق له أغراضه بقصف وسائل الدفاع الجوي ثم المدفعيات ثم الدبابات مع زيادة التصعيد تدريجيًّا واحتفاظه بزمام المبادرة.

قواتـــنـــا

إن موقـف قواتنـا الحـالي رغـم تقدمه المطـرد مـن ناحية التفـوق الجوي والتدريب والتسليح لا يسمح ولفترة مقبلة بتنفيذ هجوم شامل لتحرير جميع

الأراضي المحتلة كما أن تفوقنا في القوات البرية أصبح أيضًا طبقًا للأوضاع الحالية غير ذي تأثير من حيث تكبيد العدو خسائر تؤثر عليه وتستنزف قواته بالقدر الذي ترغبه؛ وذلك نظرًا لأن قواته الرئيسية سحبت للخلف وخارج نيران المدفعية وأسلحة الضرب المباشر والدوريات قصيرة المدي كما أنه وضع تحصينات كثيرة في موقفه هذا بالإضافة إلى وجود قناة السويس عقبة في حرية العمل ضد العدو.

ولكي نستخدم تفوقنا في المدفعية والقوات الخاصة يحتاج الأمر إلى تلاحم مع العدو حتى يمكن استنزاف قواته.

فكرة العملية

الاستمرار في العملية الدفاعية مع دفع النطاق الدفاعي الأول شرق القناة، أي إجراء عملية عبور وإنشاء رءوس «كباري» بثلاث فرق وثلاثة لواءات مدرعة شرق القناة على مسافة تتراوح بين 10 - 15 كيلومترًا حسب طبيعة الأرض، والتشبث برءوس الكباري هذه مع دفع النطاق الثاني إلى الشاطئ الغربي للقناة مباشرة بدلًا من النطاق الدفاعي الأول الحالي على أن تتم هذه العملية باستخدام المفاجأة الكاملة للعدو من حيث التوقيت والحشد وأن تتم المواجهة ليلًا.

مزايا العملية

1 - رفع الروح المعنوية لدى الشعب العربي والقوات المسلحة.

2 - تكبيد العدو خسائر فادحة في الأفراد والمعدات.

3 – الانتهاء من أغلب عملية العبور وإجراءاتها في وقت لا يتوقعه العدو وفي وقت لا يحشد فيه قواته على الشاطئ الشرقي للقناة.

4 – وجود قواتنا في مواجهة مباشرة مع العدو يمكننا من استخدام أسلحتنا التي تتفوق على العدو بكفاءة وتأثير وهي المدفعية والقوات الخاصة، وبذلك يمكن استمرار استنزاف العدو بتأثير أكبر.

5 – إمكانية تحسين المواقع تدريجيًّا شرقًا بعمليات صغيرة متتالية على مراحل.

6 – إجبار العدو على حشد عدد كبير من قواته في سيناء في مواجهة قواتنا، وبذلك يمكن إرهاقه عسكريًّا واقتصاديًّا.

7 – دفع الدول الكبرى لوضع حل عادل للموقف بصورة جدية ونحن في وضع مشرف لنا سياسيًّا وعسكريًّا.

صعوبات العملية

1 – تفوق العدو جويًّا في الفترة الحالية، ولكن بمجرد استقرار الوحدات في أوضاعها الدفاعية لن يصبح الموقف الجوي كما هو الآن بل يتحسن موقفنا نحن من ناحية إمكان استخدام المطارات الأمامية بأمان مثل أبو صوير وفايد والقطاية وقد يكون كبريت أيضًا، وبعدها يمكننا زيادة مدى طائراتنا إلى حوالي 80–100 كيلومتر.

2 – قيام العدو بالهجمات المضادة السريعة ولكن بما أن العبور سيكون على طول المواجهة سيحتاج ذلك إلى قوات كبيرة من العدو غير منتشرة حاليًّا في سيناء، هذا بالإضافة إلى إمكان استخدام مدفعيتنا في معاونة

قواتنا من شرق وغرب القناة مع عمل ستارة كثيفة في رءوس الكباري من الأسلحة المضادة للدبابات.

كما أن وجود رءوس الكباري على مسافة 10 - 15 كيلومترًا من القناة سيحرم العدو من حرية المناورة والالتفاف في ضرباته المضادة وسيصبح معظمها إن لم يكن كلها في المواجهة.

3 - صعوبة عملية العبور وخصوصًا بالنسبة للمعدات الثقيلة، وهذه يمكن التغلب عليها بالمفاجأة والعبور على طول المواجهة والتمهيد العنيف بالمدفعية واستخدام عبور المعدات من أماكن عبور متفرقة ليلًا يصعب ضربها جميعًا.

4 - صعوبة إعاشة القوات عبر القناة وفي هذه الحالة يمكن نقل الإعاشة ليلًا من أماكن عبور متفرقة، مع تغطيتها بالمدفعية المضادة للطائرات.

ملاحظات عامة

1 - تحتاج هذه العملية إلى فترة تتراوح بين 3 و4 أشهر يتم فيها تدريب القوات التي ستقوم بالعملية كل على واجبه فقط إضافة إلى التركيز على أعمال الاستطلاع بحيث يمكن الحصول على معلومات دقيقة عن أوضاع ودفاعات العدو - كما يجب أيضًا حشد القوات وأدوات العبور ومدافع الهجوم تدريجيًا بشكل لا يلفت النظر بل يبدو كأنه تحسين لمستوى الدفاعات.

2 - يجب أن تتم العملية تحت ستار كثيف من نيران المدفعية ويحميها أكبر قدر ممكن من وسائل الدفاع الجوي.

3 – من الضروري أن ننتخب توقيت العمليـة بحيث نضمن مفاجأة العدو أي أن تكـون أوضاعـه كـما هي الآن مـع إعطاء العملية أكبر قسـط من السرية وعدم معرفة الأفراد إلا بواجباتهم فقط في آخر وقت ممكن.

4 – لتنفيـذ العملية وتحقيق الأهداف المرجـوة منها، يجب اللجوء إلى الخداع الاسـتراتيجي والتنفيـذي المتكامـل، ونخطـط له مع وضـع الخطة على مراحل.

5 – يمكن تغطية هذه العملية بالاشتراك مع عمليات محدودة بالجبهة الشرقية لتمكين موقفها الدفاعي، أو عمليات مُنفصلة.

وفي النهايـة وضعـت توقيعي مجـددًا، وبعد أن اسـتقر بي التفكير إلى عدم إرسـال الأوراق إلى الرئيس جمال عبدالناصر كخطة للحرب، بسـبب مخاوفي التـي أشرت إليهـا سـابقًا، وضعـت الأوراق في درج مكتبي ولم أرسـلها إلى عبدالناصر.

وظللـت طوال عـام ونصف العـام أقرأ في كتـب كان ابنـي الأكبر محمد يحضرهـا لي، وعادة كنـت أحتفظ في مفكرة ببعض النقاط من الكتب المترجمة إضافة إلى تصريحات المسئولين الإسرائيليين.

▲ أحمد إسماعيل مع الرئيس جمال عبدالناصر والمشير عبدالحكيم عامر.

▲ أحمد إسماعيل في أحد مشاريع التدريب بحضور الرئيس جمال عبدالناصر والمشير عبدالحكيم عامر.

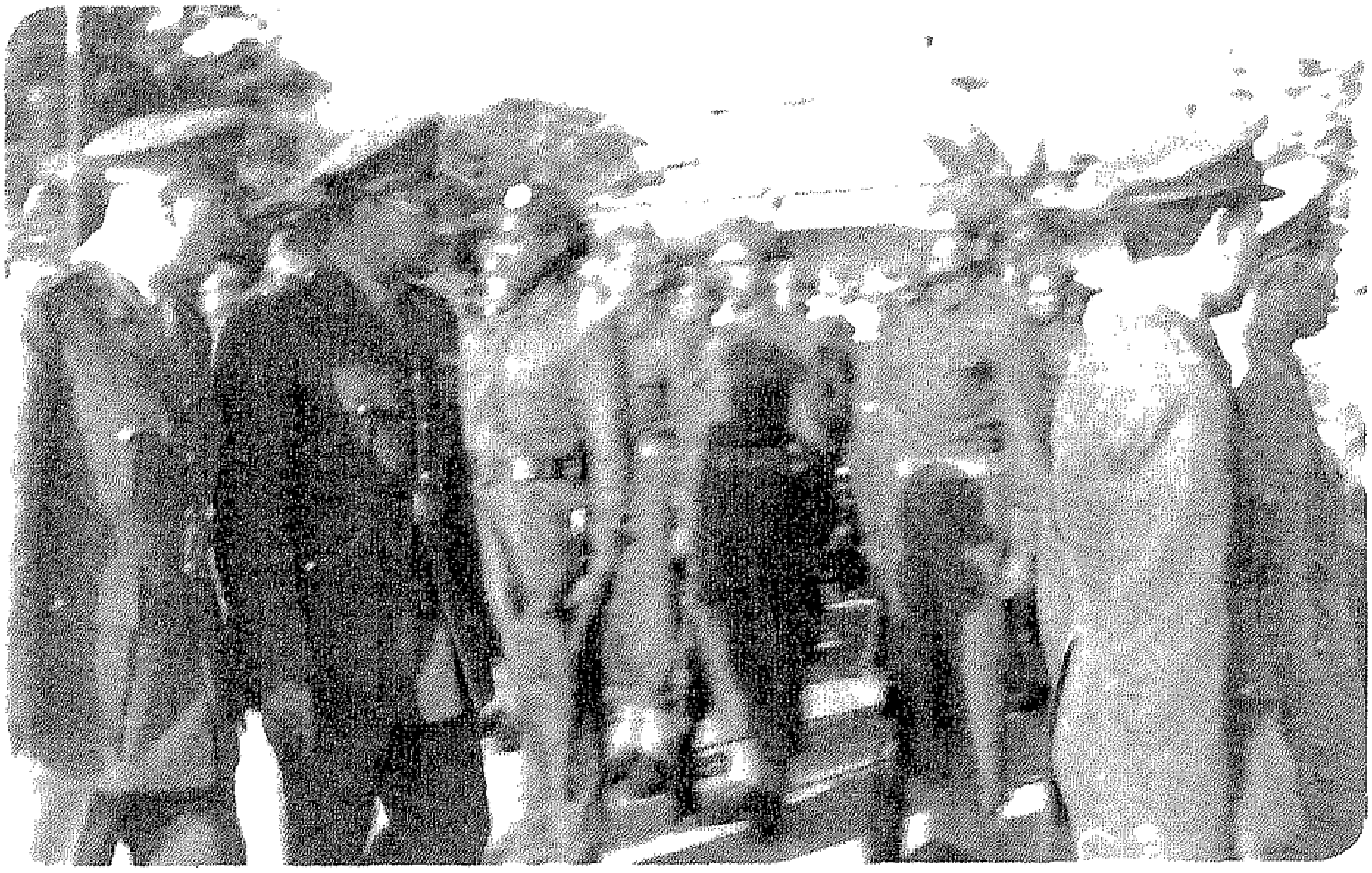

▲ أثناء زيارة الرئيس عبدالناصر للجبهة.

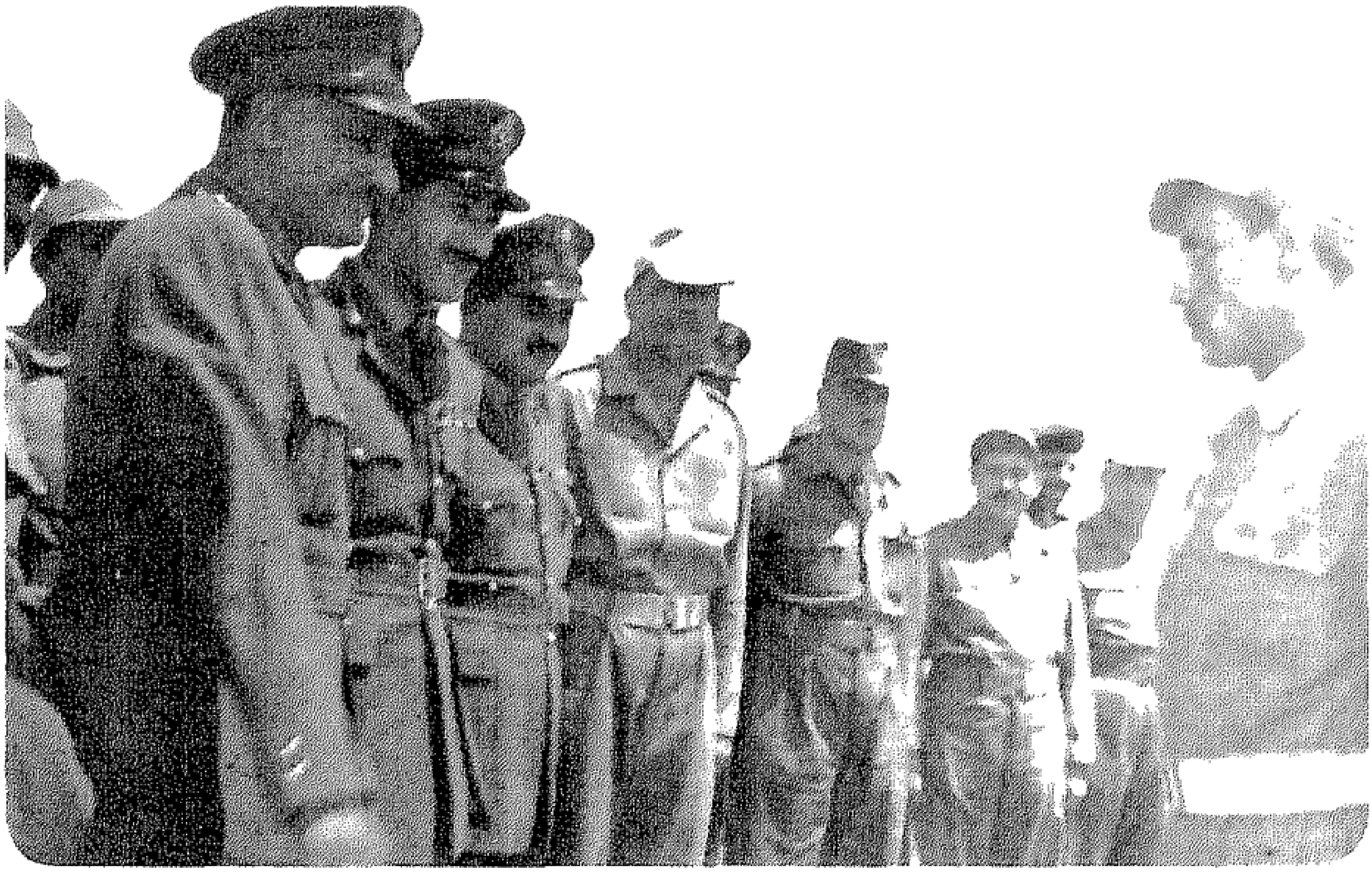

▲ أحد الجنود يتحدث للرئيس عبدالناصر والمشير عامر ومعهم أحمد إسماعيل.

زمـــن المـــؤامـــرات

أقيم حفل زواج ابنتي في نوفمبر 1966 بنادي القوات المسلحة بالزمالك وقد شرفني الرئيس جمال عبدالناصر بالحضور ومعه كبار رجال الدولة في ذلك الوقت، ورغم أن الرئيس كان في هذا اليوم موجودًا بمجلس الأمة مع الرئيس الجزائري هواري بومدين، وكان كما ذكر لي يعاني ارتفاعًا في درجة الحرارة، فإنه رأى تكريمي بحضوره عقد القِران وشهد في العقد وحضر جزءًا من الحفل ثم غادر ومعه المشير عبدالحكيم عامر بعد حوالي ساعة تاركًا السيد أنور السادات والأخ زكريا محيي الدين حتى نهاية الحفل.

كانت مفاجأة للجميع من أول المشير حتى قادة القوات المسلحة أن يحضر الرئيس هذا الحفل علمًا بأن الرئيس كان دفعتي في الكلية الحربية وزميلي كضابط في منقباد كما كنا مدرسين زميلين في كلية أركان الحرب وقت قيام الثورة وكلفني بالرقابة على الصحف في أحلك أيام الثورة وهو الأسبوع الأول منها.

وقتها بدأ شمس بدران والمشير عبد الحكيم عامر يشعران أن هناك علاقة مستترة بيني وبين الرئيس ناصر ولكن أقسم بالله إنني لم أطلب من الرئيس من أول يوم في الثورة حتى ذلك الوقت أي طلب خاص أو عام ولم يكن هناك بيننا سوى صداقة بريئة ومحبة متبادلة ولم أكن أعلم بالخلافات التي كانت قائمة بين المشير والرئيس خلال الفترة بين عامي 1962، و1965 وعلى الرغم من ذلك كانت هناك نية مبيتة للتخلص مني وإبعادي عن القوات المسلحة.

في إحدى زيارات الرئيس ناصر إلى الجبهة، وكنا في سيارة «جيب واجن» نتنقل بين المواقع. جلس الفريق فوزي إلى جواره وأنا إلى جوار السائق. وقال لي: إن زكريا محيي الدين يعتقد أن الحالة ميئوس منها ويجب أن نغير الاتجاه تمامًا؛ فالحالة السياسية والعسكرية والاقتصادية لا أمل في إصلاحها، على عكس ما كان الرئيس يرى. وأوضح أن هذا كان محور اختلاف الرأي بينهما، لذلك قبل استقالته.

وأذكر أن الرئيس خلال هذه الزيارة حدثني أيضًا عن المشير عبدالحكيم عامر. وسألته «ألم تكن تعلم أن المشير تزوج من برلنتي عبد الحميد؟» فأجابني: «علمت ذلك في عام 1965 حيث إن البنداري أخبر هيكل بأن هناك شائعات قوية تفيد أن المشير متزوج منها وأنها حامل في شهرها السادس، فطلبت المشير وحضر إليّ وكان هناك خلاف على السلطة ومراكز القوى في ذلك الوقت، فسألته عن حقيقة ما يتردد فقال: إنه بالفعل تزوجها وإن هذه أمور شخصية يعفيني من التحدث فيها، فقلت له «وسُمْعتك يا عبدالحكيم وأولادك؟» فقال إن هذا شأنه الخاص وإنه مستعد لتقديم

استقالته إذا كنت أنا أرى أن هذا به مساس بالحكم. وكانت هناك أزمات وانقسامات في القوات المسلحة وخوف من قيام حرب أهلية، تغاضيت عن ذلك واستمر عبدالحكيم في منصبه. وقد كنت فعلًا أشك في ذلك لأنني كنت أحيانًا أطلبه في التليفون فيقال لي: إنه يتمشى في الحديقة في عز الشتاء وفي منتصف الليل، وبعد قليل يطلبني هو فأعلم أنه لم يكن في المنزل طبعًا ولا الحديقة.

في إحدى ليالي رمضان كنا في حفل إفطار أقامته إدارة المدفعية، ودعت إليه ضباط المدفعية القدامى. وكان الوزير محمد فايق وزير الإرشاد القومي في ذلك الوقت مدعوًّا معنا. وناداني وطلب مني أن أزوره في مكتبه صباح اليوم التالي. ولما زرته أخبرني أنه متعب في وزارة الإرشاد ومسئولياتها كبيرة وتحتاج لأشخاص حاسمين يعاونونه في العمل وعرض عليّ إدارة هيئة التليفزيون وهي وظيفة أعلى من منصب وكيل وزارة ومرتبها مجزٍ فكان ردي «وهل السيد الرئيس والمشير موافقان على ذلك» فقال لي: «اتركْ لي ذلك فأنا كفيل بالحصول على التصديق المناسب».

عندما عدت إلى منزلي، ظللت مشغولًا بالتفكير في الأمر. كيف أترك وظيفتي العسكرية وأنتقل إلى العمل المدني بعد هذه السنوات الطويلة التي قضيتها في الخدمة، وكيف أضحي بالخبرة والعلم والفرق والدروس والقيادات، وأكثر ما كان يؤلمني هو السؤال الصعب: هل بهذه السهولة يُستغنى عني؟ وتذكرت ما حدث عندما صدر قرار في السابق بتعييني سفيرًا لمصر لدى الكونغو، وقتها طلبني المشير وقال لي: «نحن نعاني نقصًا في الرجال وسوف تتولى قيادة فرقة». وكان ردي عليه «أنا مجند لخدمة القوات

المسـلحة»، وبالفعل تم إلغاء تعييني سـفيرًا بالخارجيـة. وبعد تفكير طويل، قـررت رفـض العـرض الذي نقلـه لي محمد فايـق، وعرضـت الموضوع على الفريق أول عبدالمحسـن مرتجى الذي كان وقتها قائدًا للقوات البرية، وكنت أعمل معه رئيسًا لأركان القوات البرية. وكان على موعد مع المشير فقلت له: «بلِّغ السـيد المشير بأنني لا أرغب في تولي منصب التليفزيون». وعلمت بعد ذلك أنه أبلغ المشـير بالفعل. وكان رد المشير ثمينًا بالنسبة لي؛ حيث قال: «لا نترك الضباط الأكفاء إلا إذا كانوا هم يرغبون في ذلك».

انتهى الموضوع على ذلك ومر شـهران. وفي أحد أيام شـهر يناير 1967 فوجئت باتصال من عبدالمحسـن أبوالنور، وزير الزراعة وأبلغني أنه يرغب في رؤيتـي في صبـاح اليوم التـالي في مكتبه بالـوزارة، فتوجهـت إليه وكانت دهشـتي عظيمة إذ فوجئت بـه يعرض عليَّ منصبًا كبيرًا هو «رئيس مؤسسـة تعمـير الصحـاري» براتب مرتفع يصـل إلى 4000 جنيه سـنويًّا، ويعد هذا الرقـم راتبًـا ضخـمًا بين موظفـي الدولة في ذلـك الوقـت. ودار بيننا حديث قصير بدأه بالقول:

- لقـد اخترتك من بين ضباط القوات المسـلحة للعمـل معي في قطاع الزراعة كرئيس لمؤسسة تعمير الصحاري.
- أنـا لا أملـك في نفسي شـيئًا لأنني رجل عسـكري وأنفـذ الأوامر.. وعمومًا دعني أفكر في الموضوع.

لم يمض على هذا العرض أكثر من أسبوع، حتى فوجئت بأن شمس بدران يطلبني، وكان وزير الحربية في ذلك الوقت. وقال لي: «هل أبلغك عبدالمحسن

أبـو النور بالمنصـب الجديد؟ وما رأيك في الأمر.. المشـير يريد معرفة ردك». فقلت له: «لو إنت مكاني يا شمس وعرض عليك هذا العرض هل تقبل؟»، فقال لي «بدون تردد أقبل فأنا سأنفذ ما يأمر به الريس أو المشير».

وانصرفـت وقابلني في الخـارج اللواء عبدالحليـم عبدالعال، وقصصت عليـه ما دار في مقابلتي مع شـمس بدران، فكان تعليقـه صريحًا دون مواربة حيـث قـال لي: «يبدو أنـك غير مرغـوب في تواجدك في القوات المسـلحة». فاجأني كلامه، خاصة أنني لا أعرف سـبب ما يحدث، ولا أعرف لماذا أصبح صناع القرار لا يرغبون في أن أكون قائدًا بالقوات المسـلحة. لم يخطر على بالي أي تفسـير، فأنا ضابـط متعلم وكنت أول دفعتي في كليـة أركان حرب، وفي الأكاديميـة شـغلت مناصب قيادية وكنـت ناجحًا في كل منهـا، والأهم من ذلك أن المشـير نفسـه في عام 1960 لم يقبل أن أعمل سـفيرًا، فما هو التغيير الذي طرأ؟

مر أسبوع آخر على هذه المقابلة، واستدعاني المشير عامر إلى منزله بالجيزة في السـاعة الثانية عشرة ظهرًا، وقابلني في غرفة مكتبه، وقال لي: «أنا مسئول عن قطاع الزراعة وتحملت هذه المسئولية ولي رغبة في أن نتعاون في ذلك فما رأيـك؟»، فقلـت له: «لن أبدي رأيًـا مهما طال الحديث بيننـا بمعنى أنني لن أجيب بنعم أو لا فأنا مجند وأنت أدرى بقدرتي في أي الميادين أصلح».

لم يتوقف المشـير عن محاولة إقناعي، وقال لي: إنه سيمنحني 4000 جنيه سـنويًّا وسـيعطيني رتبـة «الفريق»، فقلـت له باسـتياء: «أنا مديـون بحوالي 1500 جنيه لبنك الائتمان وفي حاجة شديدة لهذه الماهية، ولكن المادة لا تمثل الأولوية في حياتي»، فعرض عليَّ مشـكورًا أن يسـدد الدين نيابة عني، لكنني

شكرته وصممت وأقسمت على ألا يقوم بذلك، فاقترح عليَّ أن يقرضني المبلغ من ماله الخاص، لكنني رفضت ذلك أيضًا، فقال: «سأقرضك من مال الدولة وتسدده وقتما تشاء»، ومجددًا رفضت العرض.

الخلاصة أنني فهمت من حديثه معي أن موضوع تعييني في المؤسسة محسوم، وقبل خروجي قلت له: «هل اطلعت سيادتكم على نتيجة الدراسة في الأكاديمية؟»، فأجابني «لا» فقلت له: «لقد كنت الأول في الترتيب بعد دراسة سنة ونصف في العلوم العسكرية»، وتركته وخرجت.

في اليوم التالي، فوجئت أن جريدة الأهرام نشرت خبرًا عن أن المشير قابلني في منزله، وأدركت على الفور أن هذا تمهيد للتعيين وإعلان الأمر على الرأي العام، حيث كانت التعيينات في المؤسسات والشركات تصدر يوميًا في الجرائد. وبعد أقل من شهر على هذه المقابلة وتحديدًا في 20 مايو، فوجئت بالهيئة العامة للقوات المسلحة تعلن قرار تعييني رئيس أركان الجبهة مع الفريق أول عبدالمحسن مرتجى.

لم أعرف الحقيقة إلا بعد أكثر من عام ونصف العام، ففي نوفمبر 67 حين كنت قائدًا للجبهة قام الرئيس جمال عبدالناصر بزيارته الأولى للجبهة، بعد النكسة، وقال لي باسمًا: «هل تفهم في الزراعة؟»، فقلت له: «أبدًا.. ولا حتى أعرف البرسيم من الذرة، ولم أكن مزارعًا ولا فلاحًا في يوم من الأيام»، فقال الرئيس: «امال ليه كانوا عايزين يعينوك في مؤسسة تعمير الصحاري الزراعي.. وحياتك قرار تعيينك لسه عندي في الدرج لغاية دلوقتي».

وشرح لي الرئيس الخلافات السابقة التي كانت بينه وبين المشير عبدالحكيم

عامـر، وهنا بـدأت أعيد ترتيب الأحداث، وعلمت أن شـمس بدران أدرك متأخـرًا العلاقـة القوية بيني وبـين الرئيس، والأكيد أنـه كان يرى خطرًا من تصعيـدي خاصة أنني في منصب كبير ولـديَّ من المؤهلات ما يجعل إبعادي عن القوات المسلحة أمرًا مستحيلًا، إلا بإغرائي من خلال تعييني في منصب مدني كبير، من هنا كانت المحاولات المتتالية.

▲ أحمد إسماعيل الثالث من اليسار جالسًا وسط الضباط والجنود.

▲ أحمد إسماعيل مع الرئيس عبدالناصر والمشير عبدالحكيم عامر في سيناء نهاية الخمسينيات.

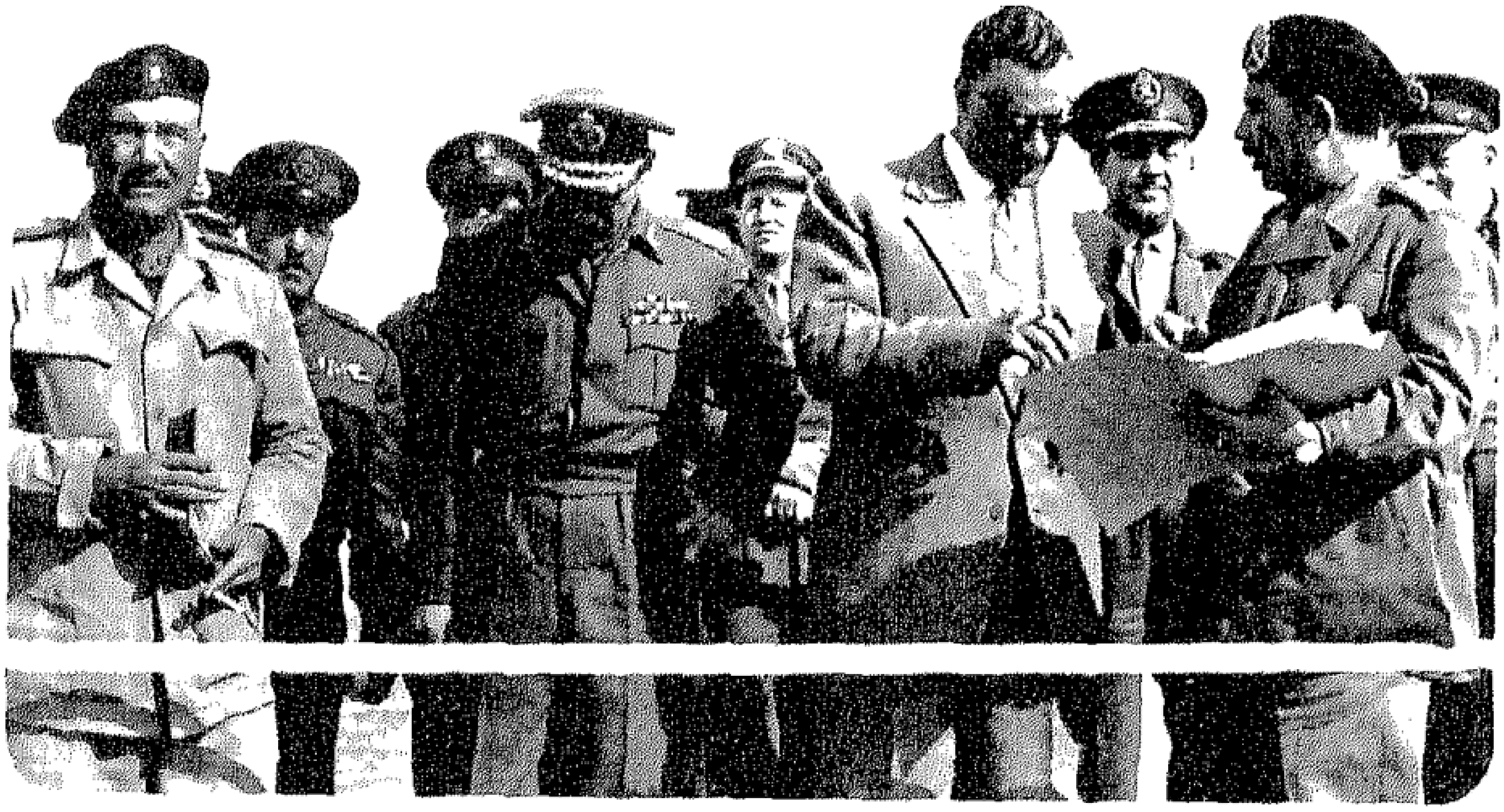

▲ في إحدى زيارات الرئيس عبدالناصر والمشير عامر لسيناء.

▲ أحمد إسماعيل أثناء أحد التدريبات في سيناء بعد نكسة يونيو 1967.

.. ورحل الرئيس

حرصت منذ قيام ثورة يوليو عام 1952 على تحاشي الرئيس جمال عبدالناصر، رغم حبي وصداقتي له قبل قيام الثورة. وزاد الأمر مع توليه إدارة شئون البلاد حيث زاد إصراري على الابتعاد عنه هو ودائرته المقربة منه. كانت نفسي تأبى إتيان ما يفعله البعض من رياء ومداهنة. إلا أن هذا لم يقلل من احترامي وثقتي في زميل الدراسة وصديق العمر الذي كنت أقدر فيه حسه الوطني، ونظافة اليد. كنت أراه فقط حينما يستدعيني لأمر ما، أو يلتقي بي في زيارة أو مناسبة عسكرية. فكان يسألني ويستفسر مني عن أي أمر يود السؤال عنه لأنه كان يعلم أنني سأصدقه القول.

كان شعوري دائمًا نحو الرئيس جمال عبدالناصر هو المحبة والثقة والزمالة والصداقة، وقد تكون هذه الأمور التي كنت أتعامل معه على أساسها سببًا في خروجي من القوات المسلحة، فكثيرًا ما كنت أناقش الرئيس وأعارضه في أفكاره بحثًا عن المصلحة الوطنية وعلى أساس أنه مدرس بطبيعته؛ حيث

كان مدرسًا في الشئون الإدارية في كليه أركان الحرب وكان يحب المناقشة والإقناع، لكنه على ما يبدو رأى أن هذه الفترة والظروف التي تحيط بالوطن لا تحتمل المناقشة والجدل، حتى إنه في أول اجتماع رسمي للقادة عندما هممت بالرد على أحد المواضيع، استشعر موقفي وقال لي قبل أن أتكلم: «لا أريد مبررات يا أحمد إسماعيل».

عمومًا كنت أرى أنه فعلًا رئيس الدولة وله مركزه العالمي والدولي ولكنني أيضًا لي فكر وعقل وكنت أرى أنه من حقي أن يسمع رأيي، وله الحق في أن يأخذ به أو يتجاهله فهو صاحب الشأن والقرار والمسئولية.

كنت أؤمن بأنه لا يمكن لمخلوق أو بشر أن يقوم بمثل ما يقوم به هذا الرجل. لقد كان يبدي قرارات وآراء في كل ما يمس الدولة داخليًا وخارجيًا، ويمتلك من الثقة بالنفس ما يمكنه من إصدار قراراته في كل ما يتعلق بالدولة حتى في بعض الأمور التي لا تحتاج إلى رئيس الجمهورية. وكنت ألاحظ أن الجميع يبعدون المسئولية عن أنفسهم ويستشيرون الرئيس في كل أمر من أمور الوزارات، الأمر الذي زاد الأعباء عليه وقد ذكرت له ذلك كثيرًا ولكنه لم يكن يسمع لأحد. ورغم أنني خرجت من الخدمة بموافقته الشخصية سواء كان بأمر أو بما عرض عليه، سواء كان لأسباب حقيقية أو لأسباب مفتراة عليَّ، وسواء كان نتيجة مناقشاتي أو آرائي المختلفة، أو سواء توهم الوزير أنني غير متعاون معه.

كل ذلك لم يغير شيئًا من شعوري نحو الرئيس، وأكتب هذا الآن بعد مضي نحو شهر على وفاة الرئيس وما زلت أحبه وأقدره وأحترمه وأثق به مثلما كنت أشعر تجاهه وأنا في الخدمة.

وبعد خروجي من الخدمة، وكثيرًا ما كنت أسمع من أشخاص كثيرين يظنون أنني قد تحولت عن محبة الرئيس بسبب إحالتي إلى التقاعد، فسمعت كلامًا كثيرًا لم أكن أسمعه وأنا في الخدمة خوفًا مني أو حفاظًا على شعوري أو لثقتهم بأنني أدافع عن الرئيس بحكم وظيفتي. ولكن الحقيقة أن دفاعي عن الرئيس كان كما هو وكان ردي دائمًا أنه ليس لدينا لا في مصر ولا في الدول العربية من يحل محل الرئيس جمال عبدالناصر فهو رجل موهوب فذ، وهبه الله من صفات الزعيم والقائد ما لم يمنحه غيره، وقضى 18 عامًا كلها آمال وآلام ومعارك.

لا أذكر عامًا واحدًا مر دون مشاكل داخلية أو عالمية أو خارجية، لكن عبدالناصر كان رجلًا ذا خبرة وحنكة، وليس لدينا شبيه له، فهو يوضع أولًا ثم بعده بمراحل يأتي من يليه؛ لذلك عندما علمت بوفاته تصورت أولًا أنه اغتيل ثم علمت أنه مات بانسداد الشريان التاجي فبكيت. بكيت الصديق وبكيت على مصر وحظ مصر. بكيت لأن الله لم يمهله حتى يحل مشكلة مصر وهو الوحيد الذي كان بمقدوره أن يحلها محافظًا على كرامة البلاد وكرامة القوات المسلحة، فالمشكلة الآن إما أن تُحل عسكريًّا وهذا موضوع يحتاج لباب منفصل للحديث عنه، وهل ستسمح لنا الولايات المتحدة بالنصر عسكريًّا؟ وهل سيوافق الاتحاد السوفييتي، على أن يمدنا بالأسلحة التي تسمح لنا بالنصر، أو حل سياسي مشرف وهذا يحتاج إلى مناورات عديدة وشخصيات فذة قادرة لتتمكن من التأثير عالميًّا حتى تضغط على إسرائيل وتجبرها على الانسحاب. ولم يكن في مصر أحد سوى جمال عبدالناصر، يستطيع القيام بذلك.

بعد علمي بخبر الوفاة في حوالي العاشرة مساء، لم أتمكن من النوم لأن جمال عبدالناصر زميلي ودفعتي وصديقي. وكان السؤال الذي يؤرقني: كيف سنعوضه؟ وأخذت بعض المهدئات والمنومات، الأمر الذي أثار قلق زوجتي لأنني كنت وقتها في طور النقاهة من مرض انسداد شريان بالقلب واتصلت بمستشفى المعادي فأخبروني أن جميع الأطباء هناك يبكون جمال عبدالناصر، ونصحوني بالبقاء بالمنزل. يومها لم أستطع وقف تداعي ذكريات تلك الأيام التي جمعتنا منذ زمن بعيد منذ تزاملنا في الكلية الحربية. ولا أملك إلا أن أقول: رحم الله الأخ والصديق والرئيس الذي لم يتوانَ لحظة عن أن يحلم للوطن بكل خير.

▲ أحمد إسماعيل وحرمه يرحبان بالرئيس جمال عبدالناصر
في حفل زفاف نجلتهما.

▲ في أحد مواقع القوات المسلحة مع الرئيس جمال عبدالناصر والمشير عامر.

ليلة المطاردة لدخول المخابرات العامة

كان الرئيس السادات قد اتخذ قرارًا حاسمًا بالقضاء على مراكز القوى في مصر، وهو ما عُرف بثورة التصحيح في 15 مايو 1971 فخلص الإنسان المصري من قبضة أساطير الاستبداد التي كانت تتحكم في مصيره، وفي نفس العام أصدر السادات دستورًا جديدًا لمصر.

كنت في منزلي أشاهد التليفزيون مع زوجتي، البيان الذي أصدره أنور السادات للتخلص من المؤامرة التي كانت تدبر له، وقبل أن ينتهي البيان رن جرس التليفون، ولأني لم أكن أرد على أي مكالمة تليفونية منذ أُحلت إلى المعاش، قامت زوجتي بالرد على التليفون، وفوجئت بمدير مكتب الرئيس السادات يتصل طالبًا أن أذهب إليه على الفور، كان الوقت متأخرًا، وكانت الساعة الحادية عشرة ليلًا، كنت عائدًا من المستشفى وما زلت في فترة النقاهة وأمرني الطبيب بعدم قيادة السيارة، والوقت متأخر، فعرضت زوجتي قيادة

السيارة، بدلًا مني، وأن تنتظرني لحين الانتهاء من المقابلة عند أحد أقاربها، وعند خروجنا من باب الفيلا وجدت بالصدفة سائقي الخاص في القوات المسلحة لسنوات طويلة، جاء ليزورني، وبلهفة ممزوجة بفرحة قال السائق مصطفى سليم: «البلد مقلوبة.. سمعت خطاب الرئيس أنور السادات؟»، فقلت: «أيوه يا مصطفى وسأذهب إليه الآن» فأعطت زوجتي مفتاح السيارة للسائق، وذهبنا لمقابلة الرئيس أنور السادات، لأعود مرة ثانية إلى الخدمة، بعد عام ونصف في المنزل، بسبب إحالتي للمعاش على يد الرئيس جمال عبدالناصر.

ولمصطفى سليم هذا قصة، فهو سائقي منذ أن كنت برتبة مقدم، وظل معي طوال خدمتي في الجيش منذ عام 1955 حتى رئاسة الأركان عام 1969، وعندما خرجت من رئاسة الأركان إلى المنزل، رفض مصطفى سليم أن يبقى في الجيش ولو للحظة واحدة، وعندما حاولت معه كي يبقى في الجيش مراعاة لمستقبله، خاصة أنه أصيب إصابة جزئية أيام حرب 1956، وليس معه رخصة تاكسي، وبذل المساعي للخروج منذ فتره طويلة، لكنه قال «لو هاموت من الجوع لن أسوق لضابط آخر بعد سيادة اللواء» وكنت أحاول إقناعه لمصلحته ولأننا ماديًّا لا نستطيع أن نعينه في منزلنا كسائق للعائلة، وندفع له راتبًا شهريًّا، لكنه خرج دون أن يبقى لحظة واحدة، بعد ذلك ساعدته كي يحصل على معاش معقول، بسبب الإصابة، وأن يستخرج رخصة قيادة أجرة، وفعلًا عمل على سيارة تاكسي، وظل يحضر به من وقت لآخر لزيارتنا، ويسأل إذا كنا نحتاجه في أي مشاوير، فيترك التاكسي ويقود سيارتنا الملاكي فيات 1300 الخضراء.

أعـود بكم لتلـك الليلة التي أعلـن فيها الرئيس السـادات عن التخلص مـن كل رموز مراكز القوى، فعند متابعة تطور الأحداث من خلال الراديو، فوجئنـا بقرار استقالة سـامي شرف وشـعراوي جمعة ومحمد فـوزي ومحمد فايـق وباقي المجموعة. قبل خروجي من المنزل اتصلت زوجتي بابننا الأكبر محمـد، في منزله، كانـت علاقتي به بعـد إحالتي للمعاش قـد أصبحت أكثر قـوة، وسـألته بصوت منخفض عما إذا كان سـمع بالأخبـار، فنفى لها ذلك، فطلبت منه الاسـتماع للراديو مؤكدة له إعلان شـعراوي جمعة وسامي شرف استقالتهما وأن الرئيس السادات طلبني وأنني ذهبت له.

وصلت لمنزل الرئيس السادات وقابلته فأخبرني أنني سأعود للخدمة مرة ثانية، وسأتولى رئاسـة المخابرات العامة. لحظتها عدت بالذاكرة إلى الخلف، متذكرًا علاقتى بالرئيس السـادات، التي بـدأت منذ كنا في البكالوريا، وكان أنـور تربطة علاقة صداقة قوية بأبناء خالي، وكان يذهب إليهم في حي شـبرا الـذي كنا نسـكن فيه. وتواصلت العلاقة بيننا عـبر تزاملنا في الكلية الحربية، وتعمقت جدًّا ما بين الكلية وقيام ثورة يوليو 1952، إذ كان السادات وقتها مطلوبًا من الأمن القومي؛ لذلك كان يأتي إلى منزلي متخفيًا مرة كتاجر فاكهة وأخـرى كسـائق سـيارة نقل، إلى أن تمـت الثـورة، وتغير حال البلـد، وكان السـادات يقدر كفاءتي وعلمي ومشوار تدرجي في الجيش، وكان يعلم أيضًا أن السبب الحقيقي في إحالتى للمعاش وإزاحتي من دائرة جمال عبدالناصر، هو شـلة عبـد الحكيـم عامر والفريـق محمد فـوزي؛ لذلك وبمجـرد أن قام بإعـادة هيكلة الحكومة والجيش طلبني لتولي قيادة المخابرات العامة، التي لا تقل أهمية عن مهامي فيما بعد في القوات المسلحة.

عـدت من رحلة الذكريات التي لم تسـتغرق لحظـات، ووجدت الرئيس يقول لي: «أنت تذهب يا أحمد للمخابرات العامة وتأخذ مجموعة من الحرس إذا اقتـضى الأمـر، وتتولى رئاسـة المخابرات وتخطرني تليفونيًّـا عند إتمام هذه المهمـة»، فقلت لـه: «حاضر يافندم» فقال لي الرئيـس ضاحكًا: «انت عارف المخابـرات العامـة فـين» فـرددت «طبعًـا يا فنـدم محمـد ابني يعمـل بها منذ 5 سنوات».

تركـت الرئيـس السـادات وتوجهت لمنـزل ابني الأكبر محمـد الذي كان يسـكن بجانب مستشـفى العجـوزة، كان يقف في شرفة شـقته ومعه زوجته يستمعان للأخبار في راديو ترانزستور، حين وجدا سيارتي تقف أمام المنزل، لم يصدق ابني عينه وظن أنه يحلم، فرك عينيه مرة ومرتين وثلاثة، وإذ به يجد والده ينزل من السـيارة، فلم يتمالك محمد نفسـه وودع زوجته، وأخبرها أنه سـينزل لي وسـيتصل بهـا تليفونيًّـا، وإذا لم يتصل فلا تقلـق. كان محمد يعمل ضابطًـا في المخابـرات العامـة، ومن شـدة تأثـره لم ينتظر المصعـد ونزل على السـلم من الدور التاسـع، وهـو يرتدي بنطلونًـا وقميصًا وبلوفر، وسـألني «وزيـر حربيـة؟» فقلت «لا، عندكم في المخابـرات». فصاح «ألف مبروك دا أحسن من وزارة الحربية» فضحكت وسألته « هل أحضرت معك شيئًا ثقيلًا لتلبسـه» فقـال « لا كده كويس».. كانت المرة الأولى التـي أتكلم فيها معه في عمله، وقد أحس وقتها بثقتي في رأيه وتقديره للأمور، ودار بيننا هذا الحوار « شوف بقا يا محمد ،إحنا سنذهب للحرس الجمهوري لنأخذ قوة لنذهب بها للمخابـرات العامة، ولكنني أفكـر أن أقوم بعملية الذهاب معًا دون قوة من الحـرس الجمهوري، أنت طبعًا عارف إيه اللي حصل في السـاعات الأخيرة،

ولكن وجود قوة سيضر أكثر مما يفيد» فقال محمد: « تقريبًا وبالنسبة لدخولنا بدون حراسة هذا أستطيع أن أضمنه بصفتي ضابطًا بالجهاز» فقلت: « إحنا سنذهب للحرس أولًا». اتجهنا بالسيارة إلى كوبرى القبة، وتوجهنا لمكتب اللواء الليثي ناصف لإخباره باستغنائي عن الحرس، وذهابي بصحبة ابني محمد، فمعظم الناس هناك من أصدقائه، فوجدنا عند الليثي اللواء عادل جبريل الذي كان نائبًا لرئيس هيئة الأمن القومي بالمخابرات العامة، وأصبح بعدها رئيسًا للهيئة بدرجة وكيل لرئيس المخابرات العامة، وهو منصب يستحقه بالفعل لكفاءته، وفوجئ به ابني محمد عندما رآه وانتابه قلق غير متوقع، خوفًا من أن يكشف هذا الشخص الموقف ويتنبه لفكرة ذهابنا إلى المخابرات، لكن سرعان ما وجدني آخذه بالحضن، فقد كان صديقًا لليثي، وفي نفس الوقت تلميذًا سابقًا لي، وأحد عشاقي -كما قال- وكان يعمل تحت قيادتي بعد تخرجه من الكلية الحربية.

تنفس محمد ابني الصعداء عندما وجد اللواء «عادل جبريل» يعانقني، وعلمنا منه أنه كان لدى اللواء الليثي ناصف عند سماعه بيان الرئيس، فأخبره بأنني قد عُينت مديرًا للمخابرات العامة، فانتظر عادل جبريل في مكتب الليثي الذي كان مجهزًا بقوة لتصحبنا للمخابرات، ولكنني رفضت ذلك، وأيدني عادل في هذا الرأي وطلب أن يذهب معنا على أن ندخل من باب الأمن القومي، لكن محمد صمم على الدخول من الباب الرئيسي، ووافقنا على رأيه، وكان يجلس بجوار السائق.

أثناء وجوده معي في السيارة تذكر محمد، ابني الأكبر، كيفية دخول المخابرات العامة، فشرح لي نظام الحراسة بالكامل وشرح لي أنه بصفته

ضابطًا صغيرًا هناك يمسك نوبتجية فإن كل الحرس يعرفونه جيدًا، فضلًا عن أنهم يلعبون معه كرة القدم مرتين في الأسبوع في الصباح، ويعرف كلًّا منهم باسمه. وإذا طلب منهم أي شيء سينفذ، كما أن الضباط النوبتجية زملاؤه، وغالبًا ما سيكونون إما دفعته أو يعملون معه، وقال محمد لي «سأطلب منهم الماستر بتاع حجرة المدير».

كنت أعرف أن زملاء ابني يحبونه حبًّا غير عادي، فقلت له: «لما نشوف يا سي محمد»، فرد عليّ «المهم أنني لابد أن أستدعي كافة القيادات وأبلغهم وتتم عملية السيطرة». وقفنا أمام الباب الرئيسي فدقق الحارس فينا وتردد في فتح الباب، فقال محمد له بصوت حاد «افتح يا محفوظ»، فكان رده «مساء الخير يا فندم»، وفتح الباب وأدى التحية العسكرية كاملة لي، خاصة أنه تصادف أن محمد كان في اليوم السابق الضابط المناوب على جهاز المخابرات العامة بأكمله، وأثناء مروره قبل الفجر مرورًا مفاجئًا وجد محفوظ ومعه الراديو مفتوح بصوت عالٍ، فنهره عن ذلك، ولم يكن يعرف إذا كان سيشير إلى ذلك في تقريره عن المناوبة في الصباح، وبالتالي معاقبته أم لا.

صعدنا إلى مكتب المدير وتركنا محمد، الذي ذهب للضابط النوبتجي فحصل منه على الماستر، وكان صديقًا لمحمد فقال له: «مبروك يا أبو حميد»، فرد عليه «لست على استعداد لتلقي أي تهاني إلا بعد أن تستقر الأمور»، وفتحت المكتب وبدأ السيد عادل جبريل يستدعي القيادات، وبعضها حضر من نفسه دون استدعاء، خاصة أنهم كانوا يتوقعون حدوث ذلك بين لحظة وأخرى، ومنهم الوكيل محمد ياقوت، ومنهم الشخص الذي كان يتولى التسجيل لمراكز القوى - علي صبري ومجموعته- والذى روى لي أن أحمد

كامل - رئيس الجهاز السابق - استدعاه في أحد أيام شهر إبريل 1971 بعد مقابلته للرئيس السادات، وبعد أن استشعر من خلال المقابلة أن التسجيل يتم بدون علم الرئيس، وطلب منه حرق كافة الشرائط وإعطاءه «تمام» بذلك، فأعطاه التمام لكنه لم يحرقها، وقدم لي الشرائط كلها عند تولي رئاسة الجهاز، وقال إنه فعل ذلك بدافع وطني، ولحرصه على الشرعية، ولتقديره أن ما حدث كان لابد أن يحدث.

اتصلت بالرئيس أنور السادات حوالي الساعة 1 صباحًا، وأعطيته التمام، وصعد محفوظ، مسئول الأمن الذي فتح لنا باب الجهاز حوالى الساعة 5 صباحًا إلى محمد، ربما بعد أن علم من السائق مصطفى سليم أو من صعود قيادات الجهاز لمكتب المدير الجديد بما حدث، ليقول له وهو يضحك «مبروك يا فندم خلاص التيم بتاعنا مش هيقدر يكسب التيم بتاع سيادتك»، فرد محمد عليه بالقول: «أبدًا يا محفوظ، إذا كان ده ها يحصل أنا هاعتزل الكورة وأسيب الجهاز خالص». وفعلًا قرر محمد منذ الخامسة صباحًا بعد استقرار الأمور لي في إدارة الجهاز ترك عمله والانتقال لعمل آخر، إذ كيف يعمل مع والده في مكان واحد، وطلب مني ذلك فيما بعد ووافقت، لأنني كنت مقتنعًا بوجهة نظره تمامًا، وفعلا نُقل للعمل في وزارة الخارجية، لأنها كانت أقرب الجهات إلى عمله، حيث كان يعمل في مجال المعلومات والتقديرات، وبدأ يشق طريقه من جديد معتمدًا على نفسه.

ودارت أيام العمل في الجهاز بكل التفاصيل والأحداث التي شابت تلك الفترة، وبعد ستة أشهر قضيتها في رئاسة المخابرات العامة، طلبني الرئيس السادات، ودار بيننا هذا الحوار..

السادات: ما رأيك يا أحمد في الوضع الحالي لمصر والجيش وما الحل من وجهة نظرك عسكريًّا؟

إسماعيل: لا نستطيع أن ندخل في حرب استنزافية ولا نستطيع أن نقوم بعملية عسكرية ضخمة، لكن من الممكن القيام بعملية تحرير لسيناء على مراحل، نعبر القناة ونقتحم الساتر الترابي، نتشبث بالأرض ونأخذ قطعة أرض ونبدأ مفاوضات.

السادات: مين ينفع يتولى هذه المسئولية؟

إسماعيل: هناك من القادة المتميزين من يصلح لهذا الدور الصعب.

ومرت الأيام ولم يتجدد هذا الحوار بيننا مرة ثانية، وكان السادات مشغولًا بعدة قضايا هامة اكتشفتها أثناء إدارة المخابرات العامة، منها قضايا التجسس على مصر، وتجنيد مصريين في إسرائيل دون علمهم، ونجحنا في العديد من هذه القضايا، ورغم قصر الفترة التي عملت بها في المخابرات العامة، فإن الضباط الذين عملوا معي ألقوا القبض على العديد من المتورطين في القضايا الهامة والكبيرة، التي كان لها أثر إيجابي فيما بعد على حرب أكتوبر. منها قضية هبة سليم، الجاسوسة التي كلفتنا الكثير ولو لم يتم القبض عليها قبل الحرب، كانت ستحدث فارقًا في حرب أكتوبر بشكل كامل، خاصة أنه كان لديها أحد المصادر الهامة داخل الجيش، وجاءت إلى مصر بمعجزة، حيث قمت بإحضار ضابط المخابرات المسئول عن قضية هبة سليم، وقلت له: «مخول لك سلطات رئيس الجمهورية، وهبة لن تأتي إلا عن طريق والدها لأنه نقطة ضعفها الوحيدة». فجعلنا والدها يمثل أنه

مريض، وأنه في المستشفى فحضرت لرؤيته، رغم أن المخابرات الإسرائيلية حذرتها من السفر إلى مصر، وقالت لها: إن مرض والدها مجرد خدعة، إلا أنها رفضت تمامًا، وقالت: إنه أبوها ولابد من أن تذهب لرؤيته، وكان لديها من الغرور والثقة بنفسها لدرجة أن تعتقد أن السلطات المصرية لن تستطيع القبض عليها. لقد كانت المعلومات التي ترسلها هبة سليم على مستوى عال جدًّا من السرية والأهمية، وكانت فارقة في مكسب أو خسارة حرب أكتوبر 1973 حال استمرار تدفقها.

القضية الثانية التي كشفنا عنها قضية «راندوبولو» وهي من القضايا الهامة في المخابرات، حيث كان صاحب مزارع عنب وعلى اتصال بسلطات عالية جدًّا في الدولة، وكان من أهل البيت كما يقال، وقُبض عليه، والسفارة الأمريكية التي كان يعمل لحسابها قلبت الدنيا عليه، لكنه اعترف، وكان يرسل معلومات عسكرية وسياسية هامة لإسرائيل. هذا غير العديد من القضايا في أوربا ونجحنا فيها بفضل الضباط المصريين في جهاز المخابرات.

كانت البداية على بُعد بضعة أميال جنوب غربي الإسكندرية في منطقة اسمها جاناكليس حيث كان يوجد بها مزرعة كبيرة مخصصة كلها لزراعة العنب وإنتاج النبيذ تملكها شركة تحمل ذات الاسم «جاناكليس» وكان يملكها واحد من أكبر رجال الأعمال وينتمي لأسرة بيراكوس. وكان من بين موظفي المزرعة الكبار رجل ينحدر من أبوين كانا هاجرا إلى مصر وأقاما فيها وحصلا على الجنسية المصرية، كان اسمه «طناش راندوبولو» وحين صدرت القرارات الاشتراكية في يوليو سنة 1961. طُبقت قوانين التأميم على المزرعة وتقرر أن يبقى راندوبولو فيها كمدير لها. وكان راندوبولو في

نحو الستين من عمره، على قسط كبير من الجاذبية والمقدرة وانتخب مرتين عضوًا في مجلس الأمة عن الدائرة التي تقع فيها المزرعة والتي كانت بالفعل إقطاعية لتلك الشركة وكان يقيم معظم الوقت في استراحة جميلة في المزرعة، مثالًا لرجل العلاقات العامة الناجح بما يوزعه على الجهات المختلفة من النبيذ والبراندي والفواكه. إلى أن كان العام 1970 حين اكتسب جارًا جديدًا على حدود المزرعة مباشرة، حيث خصص المطار القائم هناك للطائرات السوفيتية للدفاع عن الأسطول السوفيتي في البحر الأبيض المتوسط وعن المواقع المصرية في العمق.

واستطاعت المخابرات الأمريكية أن تصل إلى طناش راندوبولو وتقنعه بأن يبلغها كل أوجه النشاط السوفيتي في القاعدة الجوية وكان مرد نجاح المخابرات الأمريكية في إقناعه أن له ابنًا هاجر إلى الولايات المتحدة وكان شديد الاهتمام إلى حد كبير بمساعدته وقد تم اتصال المخابرات الأمريكية به عن طريق فتاة اسمها «مس سوين» كانت تعمل في الظاهر كسكرتيرة في قسم التأشيرات في القنصلية الأمريكية، في ذات الوقت الذي حامت فيه الشبهات من قبل رجال المخابرات المصرية حول راندوبولو وبدأوا يراقبونه والتقطوا ثلاث رسائل مكتوبة بالحبر السري تتضمن معلومات عن القاعدة وألقوا القبض عليه في منطقة العجمي وكان معه يومها أمريكي قدم بطاقته الدبلوماسية فأخلي سبيله.

أما مس سوين فكانت لا تحمل جواز سفر دبلوماسي وبالتالي ليس لها حصانة.

وكانت على وشك الهروب إلى خارج مصر بعد القبض على طناش

راندوبولـو، لكــن خـلال عودتهـا من منـزل صديق لهـا، وبينها كانـت تتجه نحـو منزلها ـ بعدما تركت سـيارتها ـ تقـدم منها رجال المخابـرات بالملابس المدنيـة فحاولت الهروب لكنهما تمكنا من القبض عليها واصطحاباها إلى إدارة المخابرات العامة وتفتيش شـقتها. وحرصت كمدير للمخابرات العامة على أن يتم تصوير العملية كلها بآلة سـينمائية حتى لا يكون هناك مجال للمناقشـة بشـأن حقيقـة مـا حدث وأسـلوب القبـض على «سـوين» من قِبل السـفارة الأمريكيـة التي أقامت الدنيـا ولم تقعدها بعد القبض عـلى مواطنة أمريكية، واتهمني «دونالد بيرجس» مندوب المخابرات في السفارة وقتها بأنني قدمت للرئيس السادات معلومات خاطئة، ولكن كان كل شيء مثبتًا باعتراف المتهم راندوبولو بالصوت والصورة.

وبذل الأمريكيون كل الأسـاليب الممكنة لإطلاق سراح سـوين وقد تم ذلك بعد شـهور عدة. وأما طناش راندوبولو فقد كان في حالة انهيار تام منذ اللحظة الأولى لاعتقاله ومات بأزمة قلبية.

من القصص الغريبة التي واجهتها في بداية عملي بالمخابرات، أني وجدت لزامًـا علـيَّ اسـتبعاد العناصر القريبة جـدًّا من مراكز القـوى، ولأنهم كانوا متميزيـن جدًّا، قلت لهـم اختاروا المكان المناسـب الذي تريـدون أن تنتقلوا إليه. ومـن ضمن الحـالات الإنسـانية التي لا أنسـاها، أن قانـون المخابرات العامة وقتها كان يمنع أن يكون أي ضابط على علاقة قرابة أو نسب بأي من الشـخصيات الكبيرة أو الضباط الكبار في نفـس المكان، وكان يوجد ضابط اسـمه حسـن حفني كان محل تقدير جدًّا بالنسـبة لكل العاملـين معه، وكان مرتبطًـا بابنـة شـعراوي جمعة، فقاموا بتخيـيره بين أن يـترك خطيبته ليظل في

عمله، أو الانتقال إلى مكان آخر غير المخابرات العامة، لكنه اختار التمسك بخطيبته فاستدعيته وقلت له: أنا معجب بك لأنك تمسكت بخطيبتك.

لقد ساعدني في عدم القيام بعملية تطهير في جهاز المخابرات، وجود عدد من تلاميذي من عملوا معي في الجيش، وكنت أعرفهم جيدًا؛ ولذا لم أستبعد أيًّا منهم، واكتفيت باستبعاد رئيس الجهاز السابق وثلاثة من القيادات لعلاقتهم بمراكز القوى.

في تلك الفترة، كانت أعيننا على جبهة القتال، ونصحت المسئولين باصطحاب الأسرى الإسرائيليين في العمليات، في جولات على الأهرامات والمتاحف المصرية، وكان القصد منها كسر الروح المعنوية لدى الجندي الإسرائيلي وأن يعرف أن الشعب المصري من أرقى الشعوب.

بعد عام من عملي في المخابرات التقيت الفريق محمد عبد الغني الجمسي بالمصادفة في مطار القاهرة الدولي، وكان كل منا يودع أحد المسئولين الأجانب، وأثناء خروجنا معًا من المطار قلت له هامسًا: «متى ستحاربون يا جمسي؟» فكان رده «سنحارب عندما تصبح أنت وزيرًا للحربية وقائدًا عامًّا للقوات المسلحة وعندما تتولى هذه المسؤلية ستعلم لماذا لم نحارب كل هذه الفترة السابقة والحالية».

وقتها كنت ما زلت رئيسًا للمخابرات العامة، وألتقي الرئيس السادات بشكل مستمر بحكم عملي، وكان لا يمل من سؤالي عن أوضاع الجيش والبلد كله، وكنت أرد بنفس الإجابة التي كان مقتنعًا بها دائمًا «مصر لا تستطيع أن تحارب بشكل كامل، لابد من خطة مختلفة».

وكان أن عرضت على الرئيس أنور السادات أن يزور المخابرات، وكانت المرة الأولى في تاريخ مصر التي يزور رئيس الجمهورية المخابرات العامة، لرفع الروح المعنوية للضباط، ويومها قال السادات كلمة للضباط، وزار غرفة العمليات وبدأ يؤكد على العمليات التي تخدم الحرب.

ونشطت في تلك الفترة دراسات الحدود الآمنة وباب المندب، التي تولتها المخابرات العامة، كما أن دراسة الأعياد اليهودية لاختيار اليوم قامت بها المخابرات العامة أيضًا، وساعتها علم الجميع معي أن مصر ستخوض الحرب ضد إسرائيل.

قبلها كان يراودني شك في محاولة عمل انقلاب على السادات، لكن انقطع الشك باليقين بعد أن استمعت لتسجيلات المؤامرة وقتها، وعلمت أن الرئيس كان على حق فيما فعل.

كنت أومن بأن مهمة المخابرات الأولى هي حماية المصريين من العدو، وأن أول ما ينبغي القيام به هو إعادة الثقة بين الجهاز والناس، ومن هذا المنطلق بدأت خطوات من قبيل تبديل الصورة المرسومة عن المخابرات في أذهان الناس، وأعلنت أنه يجب أن نمسح مصطلحات غسيل المخ وإدارة التعذيب من قاموس المخابرات، بالطبع لم يكن الأمر بالسهل، لكني كنت دائم التأكيد على أن جهاز المخابرات العامة لن يكون في يوم من الأيام سيفًا مصلتًا على رقاب الشعب المصري أو العربي، لكنه سيكون الند والصديق المخلص لكل مواطن في الداخل وفي الخارج.

واستطعنا توظيف الخبرة في تحقيق العديد من أهم إنجازات عهد الرئيس

السادات، مثل القضاء على الحالة المتوترة، التي وصلت إليها العلاقات العربية المصرية بسبب الأنشطة التي كانت المخابرات المصرية تمارسها داخل دول عربية، وكنت ألقن الضباط ضرورة الإيمان بالحرية الفردية والمجتمع المفتوح.

كان رجال المخابرات يسابقون الزمن، لا لكشف عمليات التجسس التي تحاول إسرائيل من خلالها اختراق الجبهة المصرية ـ سياسيًّا وعسكريًّا ـ وحسب، ولكن أيضًا كانوا يواصلون الليل بالنهار لجمع أكبر كم من المعلومات عن العدو وتحركاته وعتاده الحربي، والموقف على الجبهة الداخلية له؛ ولذا أنشأنا في جهاز المخابرات إدارة أطلقنا عليها اسم «إدارة الخداع» كانت مهمتها تزويد العدو بمعلومات مضللة عن مصر عبر عملائنا المنتشرين على خط المواجهة. وربما لن أكشف سرًّا إن قلت: إنه كان لدينا قبل نشوب حرب أكتوبر أكثر من عشرة عملاء نجحنا في تجنيدهم من بين القوات الإسرائيلية المتمركزة في خط بارليف. ولم يستطع «الشين بيت» أو إدارة الأمن العام المختصة بمكافحة التجسس داخل إسرائيل اكتشافهم، أو معرفة أن من بين جنودها وضباط جيش دفاعها في حصون بارليف من يتجسس لصالح مصر، ولا أخفي سرًّا آخر إن قلت: إن نحو 85 ٪ مما حصلت عليه إسرائيل من معلومات عسكرية وسياسية عن مصر تم تسريبه لها من جهاز المخابرات العامة. كنا نعلم أنه وبعد نكسة يونيو 1967 قد وقع في يد إسرائيل الكثير من الخرائط والمعلومات والبيانات عن وحدات قواتنا المسلحة وكان ذلك نتيجة الانسحاب المتسرع غير المخطط له؛ ولذا كان علينا مضاعفة المجهود المخابراتي لجعل تلك المعلومات لا قيمة لها، أو على الأقل

تقليل أثرها. لقد حصلت المخابرات المصرية على معلومات عبر عملائنا على الجانب الإسرائيلي في غاية الخطورة، منها خرائط حقول الألغام التي زرعتها القوات الإسرائيلية حول مواقع المدافع الثقيلة ومرابض الدبابات، وخرائط أخرى سرية لمولدات الكهرباء في خط بارليف، وأماكن خزانات النابالم، ومواقع غرف الضباط والجنود في خط بارليف ونظام الحراسات الليلية على الجبهة الشرقية للقناة، وأنواع الذخائر وخرائط مخازنها في سيناء وغيرها من المعلومات التي ساعدت في الإعداد للحرب.

كثيرًا ما ألمح إليَّ مراقبون سياسيون أن اختيار السادات لي لرئاسة المخابرات العامة ما هو إلا تمهيد لتولي أمور القوات المسلحة، لكن بعد أن تتهيأ الأمور، وكان هذا صحيحًا فيما بعد، وعلمت أن السادات كان ينوي أن يعهد إليَّ بمهمة قيادة القوات المسلحة من البداية، ولكن لحكمته لم يفعل ذلك مباشرة، وجعل من محطة المخابرات الخطة الأولى لهدفه. وكنت لذلك الرجل العسكري الوحيد الذي رافق الدكتور عزيز صدقي رئيس الوزراء المصري في زيارته إلى موسكو بينما بقي وزير الحربية في القاهرة.

الواقع أن مسئولية إدارة جهاز المخابرات المصرية، جعلتني غير بعيد بل ربما قربتني جدًّا من القوات المسلحة ورفاق السلاح والعمر، لكنني برغم تلك المشاركة والاقتراب المباشر من القوات المسلحة، لم أتوقع أن يجيء اليوم الذي أعود فيه إلى القوات المسلحة مرة ثانية وإلى صفوف الجيش.

كان الرئيس أنور السادات يريد أن يدخل الحرب ضد إسرائيل، وكانت مبادرة «روجرز» نتيجة للاشتباكات بين مصر وإسرائيل وحرب الاستنزاف بينهما التي دامت لأكثر من عام ونصف العام، تصاعد خلالها القتال تصاعدًا

عنيفًا، وتقدم وليم روجرز، وزير الخارجية الأمريكية، بمبادرة يوم 5 يونيو عام 1970، لإيقاف النيران 90 يومًا، وأن يدخل الطرفان في مفاوضات جديدة عن طريق السفير يارنج، لتنفيذ القرار 242، وبالفعل استجاب الطرفان لإيقاف النيران في 8 أغسطس بنفس العام، إلا أن إسرائيل لم تفِ بالشق الثاني، وأمريكا لم تمارس أي ضغط على إسرائيل للاستجابة لمبادرة روجرز، وأعلن الرئيس السادات أن مصر ترفض مد وقف إطلاق النار أكثر من هذا التاريخ، رفضًا لسياسة الأمر الواقع. وبعد انتهاء ميعاد مبادرة روجرز، لم تكن لدى السادات أي حلول نهائيًا، والجيش غير مستعد، حتى القادة غير مستعدين، ولم يستطع الجيش المصري وقتها شن حرب شاملة يحرر بها أرض سيناء بالكامل، وإمكانياته لا تسمح بذلك، فماذا كان الحل وقتها؟ إما حرب استنزاف مرة أخرى، وهي مكلفة لإسرائيل لكنها في نفس الوقت مكلفة لمصر، أو حرب تحرير شاملة، وبدا أن هناك نوعًا من عدم وضوح الرؤية، كما أن الرئيس السادات أعطى توجيهات للفريق محمد صادق بالإعداد لحرب.

كنت بحكم عملي كرئيس لجهاز المخابرات العامة أقابل السادات بشكل مستمر، حيث كانت المخابرات تلعب دورًا مهمًا جدًّا في تاريخ مصر، بسبب قضايا التجسس الهامة، التي كشفتها المخابرات في ذلك الوقت. وخلال مقابلاتي مع الرئيس السادات لعرض شئون المخابرات عليه، كنت أعلم أن السادات لديه نية قوية لإعلان الحرب على إسرائيل، فانتهزت الفرصة وعرضت عليه خطة حرب أكتوبر وتحرير سيناء على مراحل، والحصول على جزء من الضفة، وأعطيته المقال والخطاب اللذين كنت أريد إرسالهما قبل

ذلك إلى الرئيس عبدالناصر، وبالفعل أخذها السادات وقرأها وشعر أن هذه الخطة هي المخرج الوحيد لمصر، خاصة أن الرئيس السادات كان أعلن أن هذه السنة هي سنة «الحسم».

في أحد أيام شهر رمضان عام 1972، كان «سيف» ابني الأصغر، وهو طالب في كلية الطب، يذاكر على منضدة «السفرة»، ووجد سيارة نصف نقل تدخل إلى جراج الڤيلا بظهرها، وكانت غرفة السفرة تطل على الجراج، واعتقد سيف في البداية أن السيارة أخطأت ودخلت إلى الڤيلا بطريق الخطأ، لكنه اكتشف أن عليها مُجسمًا يحمله 3 أشخاص مصنوعًا من الأسمنت على شكل سيناء، ثم فوجئ بدخولي والرئيس السادات عليه في غرفة السفرة وأمرناه بمغادرتها، وبدأ السادات يقول لي «اشرح لي الفكرة التي أخذتها منك، وكيفية تنفيذها»، فبدأت أشرح الفكرة، وظللت لمدة أسبوع ما بين منزل الرئيس السادات ومنزلي، وبعد انتهاء الأسبوع اتصل بي الرئيس وطلب مني الحضور لمنزله، وكنا وقتها ما زلنا في شهر رمضان، وقال لي السادات «رشح لي 5 أشخاص من الجيش المصري لتنفيذ الخطة التي تم وضعها»، فرشحت 5 من القادة الموجودين في الجيش، لكن السادات لم يوافق على أي منهم، وقال لي: «واضح أنه قدرك يا أحمد، وأنا أريدك أن تتولى رئاسة الجيش المصري وتنفذ خطة حرب أكتوبر».

▲ المشير أحمد إسماعيل يصافح أحد الجنود مُترجلًا من سيارته.

▲ المشير أحمد إسماعيل يصافح قادة الجيش عقب عودته من رحلة علاج!!

▲ من اليمين اللواء ممدوح سالم والرئيس السادات والمشير أحمد إسماعيل واللواء محمد حسني مبارك.

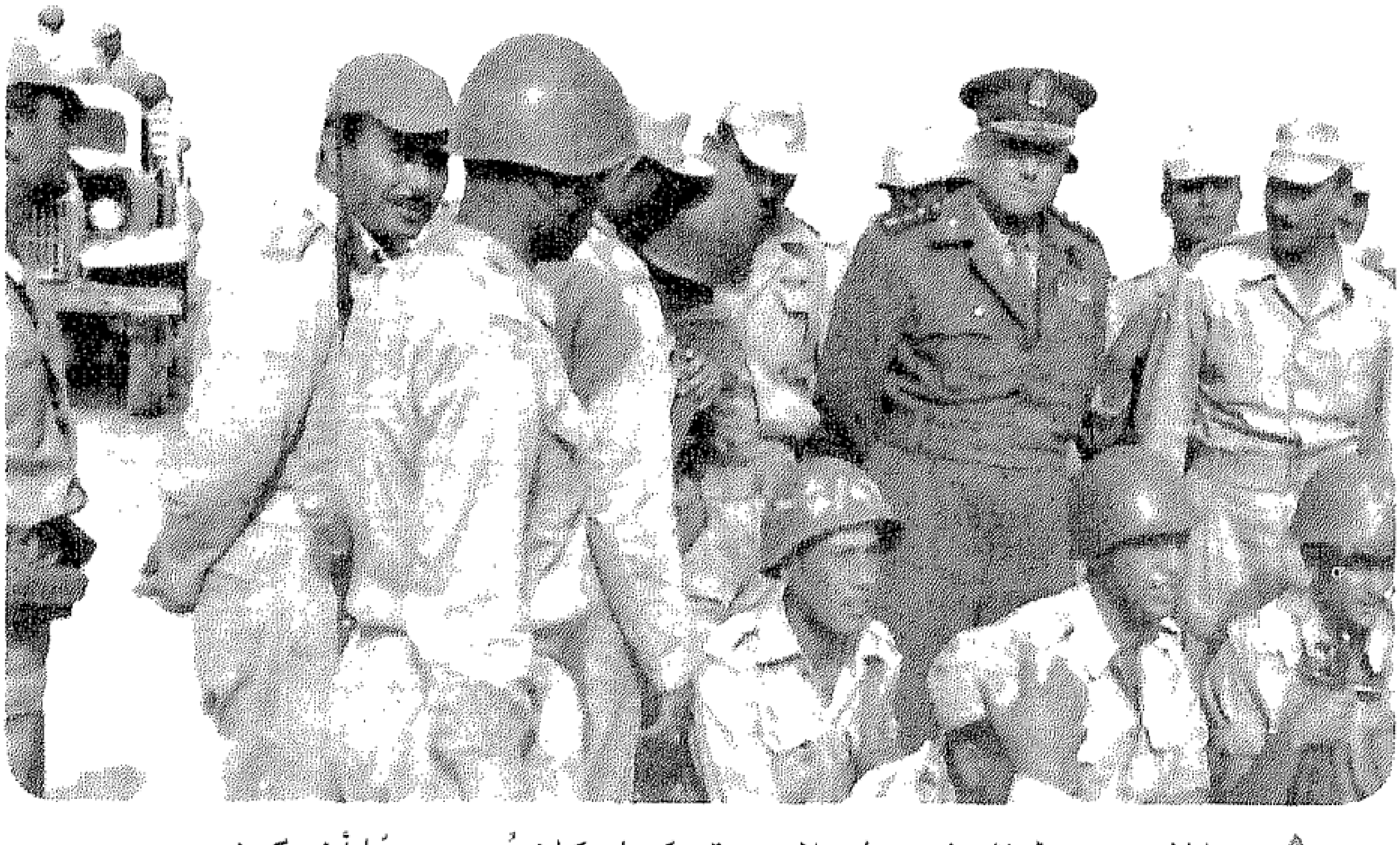

▲ .. والمشير وسط الجنود على الجبهة كما كان يُحب دومًا أن يكون.

التكليف والاستعداد

كان اجتماع المجلس الأعلى للقوات المسلحة في 24 أكتوبر 1972 الذي انعقد في مكتب الرئيس بالجيزة في الساعة التاسعة من المساء، واستمر ثلاث ساعات وربع الساعة يعتبر أخطر اجتماع تاريخي، إذا أردنا أن نقيم الوثائق العسكرية لحرب أكتوبر.

لقد حدد الرئيس السادات في هذا الاجتماع الموقف بحسم، دون أن يسمح بأي تراجع أو تشكيك، الموقف هو الحرب. تحريك القضية عسكريًّا، وأعلن للقادة في هذا الاجتماع أنه ليس الرجل الذي يناور لكي يحتفظ بكرسي الرياسة.. وأعلن أنه لن يستسلم وأن الموت في سبيل الأرض، أشرف من هذه الحياة المهينة. وقال لأعضاء المجلس الأعلى إنه يستدعيهم، ليبلغهم هذا القرار المصيري. لا مناقشة في قرار الحرب. ولكن يجب الاستعداد بالتخطيط والدراسة، والاعتماد على ما نملك من تسليح.. وعلينا أن نعوض التفوق

الإسرائيلي بروح العسكرية المصرية.. بروح المقاتل المصري.. بشجاعة الإنسان المصري.

وفي هذا الاجتماع اتضح أن بعض القادة لا يريدون الحرب. وقد كونوا تفكيرهم على أن إسرائيل ستنتصر، وتضرب في الأعماق، وستكون النتيجة خرابًا.. وذلك بسبب موقف الاتحاد السوفيتي من ناحية التسليح.

وغضب أنور السادات في هذا الاجتماع، وأصر على قرار الحرب، وأعلن أنه مؤمن بالعسكرية المصرية. وإذا كانت إسرائيل متفوقة في الجو.. فلن تتفوق أبدًا على الأرض، وأنه علينا أن نواجه قدرنا ومصيرنا بشجاعة.. إن الاتحاد السوفيتي لن يحارب من أجلنا ونحن نرفض أن يحارب أحد من أجلنا. هذه معركتنا. إما أن نكون أو لا نكون هذا قدرنا التاريخي، ويجب أن نواجهه.

كانت جلسة عاصفة..ولكن غالبية أعضاء المجلس الأعلى أعلنوا أنهم مصرون على المعركة.. ومستعدون للتضحية.

وبعد هذه الجلسة صدرت قرارات الرئيس بإعفاء الفريق صادق.. واللواء عبدالقادر حسن مساعد وزير الحربية.. واللواء محمود على فهمي قائد البحرية.. الذي كان قد تدخل في المناقشة العنيفة لتهدئة الجو.. ولكن كلماته صدرت وكأنها مؤيدة لما قاله اللواء عبدالقادر حسن.

قال السادات لهؤلاء: لو أخذت بمنطقكم.. إن شاء الله نقعد 50 سنة في هذا الوضع.. لقد سمعت هذا الكلام كثيرًا.. والرجولة.. والوطنية تفرض علينا أن نحرر الأرض.. ونواجه امتحان التاريخ.

وليعـذرني القارئ أننـي اضطررت لحذف فقرات قليلة من هذه الجلسـة التاريخيـة، حفاظًـا عـلى أسرار عسـكرية، عندمـا ناقـش الرئيـس القـادة في الاستعدادات العسكرية..

جاء نهار أحد الأيام الهامة والحاسمة في تاريخ حياتي كلها، بل لعله أهمها على الإطلاق.

وبرغم مضي أكثر من عامين فإنني أتذكر ملامحه تفصيلًا.

التاريـخ: 26 أكتوبر عـام 1972 - 19 رمضان 1392، السـاعة الثالثة بعد الظهر.

المكان: منزل الرئيس محمد أنور السادات بالجيزة.

كنا نسـير: سـيادته وأنا في حديقة المنزل، ولم أكن أدري سبب استدعائي، لكنني توقعت أن يكون لأمر هام وخطير، من عادة السـيد الرئيس في شـهر رمضان ألا يقابل مسئولًا إلا بعد الإفطار.

وبعـد حوار قصير عـن الموقف حـدث ما توقعته، حيث أبلغني سـيادته بقرار تعييني وزيرًا للحربية اعتبارًا من ذلك اليوم.

وفي نفـس الوقـت كلفني بإعداد القوات المسـلحة للقتـال بخطة مصرية خالصـة، تنفذهـا القـوات المسـلحة لتخلـص بهـا الوطـن مـن الاحتـلال الصهيوني.

كان لقاؤه بي ودودًا إلى أقصى حدٍّ.

وكان حديثه معي صريحًا إلى كل حدٍّ.

وعندمـا انتهـى اللقاء وركبـت السـيارة لتنطلق بي عبر شـوارع القاهرة،

بدأ شريط طويل من الذكريات والأحداث والظروف يمر في ذهني وأمام عيني.

ها أنا أعود مرة أخرى لأرتدي الملابس العسكرية.

كانت آخر مرة خدمت فيها يوم 12 - 9 - 1969 عندما استدعاني وزير الحربية وأبلغني بقرار إعفائي من منصبي كرئيس للأركان، وبرغم مضي أكثر من خمس سنوات فإنني لا أزال أذكر أنني قلت لوزير الحربية لحظتها «كل مارجوته أن أتمكن من الاشتراك في القتال عندما يتقرر قيام القوات المسلحة بحرب شاملة ضد إسرائيل، وفي هذه الحالة أرجو أن أعود للخدمة ولو كقائد فصيلة أو جندي..».

وانصرفت إلى منزلي، وكان ظني أنه لن تُتاح لي فرصة العودة إلى صفوف القوات المسلحة مرة أخرى.

وبت شهورًا طويلة أمارس حياتي كـ «لواء» متقاعد، أتقاضى معاشي، وفي سنة 1970 رُفع معاشي إلى معاش وزير، وإن كان ذلك يعني ردَّ اعتبار لي فإنه لم تكن به إشارة إلى احتمال عودتي للعمل الرسمي.

ومرت أشهر عديدة، وظروفي مختلفة ولم ينقطع تفكيري خلالها عن القوات المسلحة، لدرجة أني تخيلت نفسي وكأني لا أزال في الخدمة، وتصورت ما كنت سأفعله حينذاك، وكتبت تقريرًا عما يمكن أن تقوم به القوات المسلحة في أي عمليات مقبلة لاقتحام قناة السويس والانطلاق لتحرير الأرض. فكرت في أن أطلب مقابلة الرئيس جمال عبدالناصر لتسليمه هذا التقرير،

وفي اللحظة الأخيرة ترددت ثم رفضت الفكرة نهائيًا منعًا من تأويلها إلى أبعد من حقيقة هدفي المجرد.

وفي فجر 14 مايو 1971 أصدر الرئيس محمد أنور السادات قرارًا بتعييني رئيسًا للمخابرات العامة، والحق أعترف أني سعدت بهذا القرار فقد كان تقديرًا لي كجندي وهب حياته لمصر. كانت فرصة لي للإسهام بشكل ما في خدمة بلدي وفي معركتها المقدسة..

وبدأت أمارس مهمتي الجديدة، والواقع أن تلك المسئولية جعلتني غير بعيد، بل ربما قريبًا جدًّا من القوات المسلحة ورفاق السلاح والعمر، لكنني برغم تلك المشاركة والاقتراب المباشر من القوات المسلحة لم أتوقع كما ذكرت يومًا أن أعود للخدمة في صفوفها مرة أخرى لكن ها هو اليوم قد جاء عندما كلفني القائد الأعلى بالمهمة ومع ضخامة المسئولية وخطورة حجمها فإنني كنت على قدر كبير من التفاؤل والثقة بالنفس، وبشكل مبدئي أجريت بناء على ما لدي من معلومات تقديرًا شاملًا للموقف.

وليس سرًّا أن القوات المسلحة المصرية كانت تعاني مشاكل عديدة تطلبت مني أن أضع أولويات لها وفق خطة سليمة وبدقة .

من هذه المشاكل على سبيل المثال :

1 – مضى 5 سنوات والقوات المسلحة رابضة في خنادقها على جبهة القناة. وبهذا أصبح الأفراد مهددين بما يُطلق عليه عسكريًّا مرض الخنادق من طول المدة، وذلك أمر خطير يؤثر على الروح المعنوية وكفاءة القتال.

2 – السياسة دخلت إلى القوات المسلحة من الباب الخلفي، لكثرة الأحاديث

السياسية من غير المختصين، واهتزت الثقة وتخلخلت في نفوس بعض القادة وبين صفوف القوات المسلحة بحيث لاح مرض التراخي شبحًا يوسوس بعدم المقدرة على أي عمل قتالي.

3 - نتيجة ما سبق - وهو في الوقت نفسه بالغ الأهمية - أصبحت كفاءة الخطة الدفاعية عن الدولة موضع شك وساءت التجهيزات الهندسية وأُهمل العمل تمامًا في تحسين أوضاع القوات، بحيث صار الحال في مواقع الجبهة بغير تجاوز دون المستوى المطلوب.

وترتيبًا على ما وجدت من مشاكل وبخطة مدروسة ذات أهداف محددة واضحة كنت أتحدث إلى القادة والضباط والجنود بإصرار أن القضية لن تُحل إلا بالحرب، لكن البعض كان يبتسم كأنني أتحدث عن خيال؛ لأنهم كانوا قد وصلوا إلى درجة اقتنعوا معها بأنه لا قدرة على ذلك الحل.

وعندما كان يُقال إن مصر وسوريا ستتحدان في عمل مشترك ضد العدو كانت الظروف المتشككة عارضة، ولن تفت في عضد الرجال ولن تؤثر في معدن الإنسان المصري الذي حارب وانتصر عبر العصور.

أفقت من حديثي لنفسي في السيارة التي أعادتني لمنزلي بعد تكليفي من الرئيس بتولي وزارة الحربية، واتصلت من تليفون السيارة بابني الأكبر محمد، وأخبرته بأن يأتي إلى المنزل، وبالفعل جاء محمد وكنت أجلس في غرفة نومي، ودخل محمد وكان يقف على باب الغرفة ابني سيف، وأخبرتهما بأن السادات عينني وزيرًا للحربية ودار بيننا هذا الحوار:

محمد: وافقت؟

قلت: أيوه.

محمد: لو وافقت تكون غلطان، لأنك لو انتصرت فلن تكون صاحب الانتصار، وإذا خسرت فستكون في وجه المدفع وستتحمل الخسارة كاملة.

قلت: لو كل واحد قال هذا، فلن تحارب مصر، وأنا وافقت من أجل بلدي، وكان شيئًا غريبًا وقتها، حيث بكى ابني سيف خوفًا عليَّ، واعتبرت أسرتي أنه من الغريب أن يوافق من يشغل منصب مدير المخابرات على تولي قيادة جيش متهالك، ومن المحتمل ألا يكسب الحرب وأن تتكرر هزيمة 1967.

وبدأت تنفيذ الخطة في ظل الإمكانيات الموجودة في الجيش، وتطورت الفكرة وعرضت على القوات المسلحة، وأصررت على الحصول على تصريح مكتوب من الرئيس السادات، وعندما ذهبت إلى الجيش واجتمعت بكل القادة، قلت لهم: «يا جماعة، نحن الآن نريد أن نحارب، ماذا نفعل لكل واحد من أصغر عسكري لأكبر ضابط؟»، وطفت على الجبهة وقلت لهم: «السلاح بالرجل وليس الرجل بالسلاح». ثم بدأنا نجتمع على مستوى الكتيبة وعلى مستوى الجيش ومستوى القادة، واستمعت لجميع القيادات.

وكانت وجهة نظر القادة المصريين أن يضربوا أكبر ضربة ممكنة، وعندما نتلقى منهم ضربة نكون كبدناهم بضربات مبرحة، ثم ندخل على السلام، وأننا نستطيع أن نعبر ونحرر أرضنا على مراحل. وعملت تدريبات على الجبهة بشكل عملي، فأخذت مكانًا خارج القاهرة، وأخذت الناس لتدريبهم عمليًّا على الخطة، وكانت أولى جلساتي مع قادة الجيش في 28 أكتوبر عام 1972

بعد 48 ساعة من تولي وزارة الحربية، وكانت أول جلسة للمجلس الأعلى للقوات المسلحة تعقد برئاسة وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة، وفيها لقنت الحاضرين الموقف، وأصدرت توجيهاتي وهي:

1 – القضية لن تحل سلميًّا ومهمتنا تحرير الأرض بالقتال، والقوات المسلحة هي السبيل لتحرير الأرض.

2 – أول مهمة أؤكد عليها لقادة القوات المسلحة هي أن يتأكدوا وفورًا من كفاءة الخطة الدفاعية عن الدولة.

3 – وفي الوقت نفسه تجهيز الخطة الهجومية كأن المعركة ستبدأ غدًا.

4 – يجب أن تشعر إسرائيل أننا قادرون وبشتى الوسائل على استرداد أرضنا وتكبيدها خسائر لا تتحملها.

5 – الوقت المتيسر لدينا من اليوم حتى بدء القتال يجب أن يُشتغل وبجدية كاملة في سبيل المعركة، وهذا يتطلب: إتقان كل فرد عمله والمحافظة على سلاحنا والجدية الكاملة في التدريب، وتكاتف الجميع كفريق واحد يعمل لهدف واحد وهو المعركة.

6 – لدينا رجال على مستوى عال من الشرف والكرامة والرجولة، ولدينا أسلحة وروح وطنية، وهذه جميعًا هي مقومات النصر.

7 – يجب أن نثق في الله وفي قادتنا وأنفسنا ونثق في النصر وسننتصر بإذن الله.

وفي الجلسة المنعقدة في الشهر الثاني من تولي القيادة، شعرت بموقف جديد بعد زيارتي لسوريا، وهو أن التنسيق بين مصر وسوريا ستكون له

نتائج حاسـمة، وتوجد 3 مراحل واضحة ومحددة للعمل، وقرار إنهاء عمل المستشارين السوفيت يعني أننا قادرون على التخطيط وإدارة المعركة، وقلت خـلال الجلسـة الثانية: «لقد مررت على الجبهة والعجلـة تدور بجدية في كل اتجاه، وأريد أن أؤكد على الآتي:

1 – يجب أن يقتنع الجميع اقتناعًا كاملًا بأنه لا يوجد حل سلمي ،علاوة على أننا عسكريون لا دخل لنا بالسياسة.

2 – لا بد من المعركة لحل القضية وسنقاتل بإذن الله.

3 – ما دام أن هناك معركة، ومعركة شرسة، فلا بد من الاستعداد لها تمامًا.

4 – هذه المعركة المنتظرة ستكون بإمكانياتنا المتيسرة، وبحسابات دقيقة دون تهور، وفي الوقت نفسه دون تخاذل.

5 – نتيجة لزيارتي لسوريا شعرت بموقف جديد، تأكدوا أننا لسنا وحدنا في المعركة. إن التنسـيق – وهذه مسـئوليتي – بين سوريا ومصر ستكون له نتائج حاسمة وتأكدوا أن ذلك سيتم بمشيئة الله.

6 – يجب العمل على 3 مراحل واضحة:

المرحلة الأولى:

الاطمئنـان التام على الخطة الدفاعية ومراجعتها بواسـطة القادة على كافة المستويات، واستكمال تجهيز مسرح العمليات بما يؤمن الخطة الدفاعية ويخدم المعركـة الهجوميـة، وتجهيـز خطط الـردع والتدريب المتواصل والشـاق ليلًا ونهارًا لإعداد القوات لمهامها.

المرحلة الثانية:

إعداد الخطة الهجومية واستكمال تجهيز مسرح العمليات للهجوم.

المرحلة الثالثة:

استكمال إعداد القوات للهجوم، وانتظار القرار السياسي لبدء العمليات وبكل جدية، وفي هذا المجال أؤكد على الابتكار وعدم النمطية والعناية الكاملة بالأسلحة والمعدات، ويجب أن تتأكدوا أن قرار إنهاء عمل المستشارين السوفيت كان على أساس أن القوات المسلحة المصرية قادرة بقادتها ورجالها على التخطيط وإدارة المعركة المقبلة، ويجب أن نكون أهلًا لهذه الثقة.

وخلال الفترة ما بين تعييني وزيرًا للحربية، وبين حرب أكتوبر، زرت سوريا 5 مرات، بهدف تنسيق جهود القوات المسلحة في البلدين للقيام بعمل عسكري مشترك في إطار الاتفاق السياسي بين كل من الرئيس محمد أنور السادات والرئيس حافظ الأسد، وكانت الزيارة الأولى من 10 إلى 13 فبراير عام 1972، وكانت أهدافها مراجعة الخطة والتخطيط لعمليات الردع، والإعداد لعمليات هجومية مشتركة.

واستقبلني الرئيس حافظ الأسد وتبادلنا وجهات النظر في الموقف، ثم تبادلت الآراء مع اللواء مصطفى طلاس والقادة العسكريين السوريين، وذلك على ضوء الاقتناع الكامل بعدم جدية الحل السلمي. وخصصت بعض المهام للقوات المسلحة السورية، وهي نفس المهام التي أصدرت بها أوامر للقوات المسلحة المصرية في أولى جلساتي مع القادة.

وقلت لهم: «الحقيقة أنني استرحت كثيرًا لما لمسته في القوات السورية من

روح معنويــة عالية، وتصميــم كامل على القتال وتحريــر الأرض، ما جعلني أوجه الثناء للإخوة الســوريين لما يبذلونه من جهد، وما يقومون به من أعمال باسـلة تؤكد صلابة وفاعلية الجبهة الشمالية، ودورها الكبير الذي يمكنها أن تؤديـه في المعركـة، وأود أن أؤكد على ثقة بأننا - بـما في أيدينا من عتاد وما في قلوبنـا من إيمان بالله وبأنفســنا وبثقتنا في وطنية وحكمـة قائدنا الرئيس أنور الســادات، وبتصميمنـا عـلى تحريـر أرضنا بالقتـال - قادرون عـلى أن نفعل الكثير، وســنعمل ونقاتل بالدراسة والحســاب والتخطيط، وتراب الأوطان لا يحرره غير الدم، وأدعو الله أن يوفقنا ويؤتينا نصره».

مرة أخرى كان لابد من دعم الروح المعنوية لدى قوات الجيش المصري، ومـا أؤكد عليه هنا هو أنني لم أغير من هؤلاء الرجال أو أبدلهم تبديلًا، وكل ما فعلته إذا كان لي فضل، أني هيأت لهم المناخ الطيب والظروف الجيدة، وهنا تأججـت نفوسـهم وتوهَّج تحت النـيران جوهرهـم الأصيل. كانت مهمتي في سـبيل ذلـك - وكحلـول عاجلة - أن أُعيـد الثقة للرجـال برفع روحهم المعنوية. وإذا كانت الحرب امتدادًا للعمل السياسي أو هي كما يقولون سياسة بالنار، فليس معنى ذلك خلطًا بين الاثنين. للسياســة رجالها وللقتال رجاله، ومن ثم فنحن عسـكريون لنا واجب وأمامنـا مهمة ومهارتنا تتمثل في كيف نرفع من درجة اسـتعدادنا وكفاءتنا القتالية، لا أن نتحدث بالسياسة، وعبرة التاريخ أمامنا شاهد يقول: إن السياسة عندما تدخل إلى الجيوش تفسدها.

كان الإعداد للحرب يتطلب مني أداء مهمتين؛ الأولى التنسيق مع سوريا في سريـة تامـة للدخول في الحـرب بعد أن طلب الرئيس أنور الســادات مني بـــدء الاسـتعـداد للحـرب فعليًا. وهو ما اسـتدعى سـفري إلى سـوريا يوم

10 نوفمبر عام 1972 وكان معي اللواء محمد عبدالغني الجمسي رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة واللواء حسن الجريدلي سكرتير عام وزارة الحربية، وسكرتيري العسكري حمدي الجندي.

وقضينا في سوريا 3 أيام اجتمعت فيها مع الرئيس حافظ الأسد لمدة 3 ساعات منفردين وطلب حافظ الأسد أن نكون بمفردنا وأمر الجميع أن يتركوا المكتب بمن فيهم وزير الدفاع السوري، وتحدث معي عن الحرب التي نخطط لها. وبعد هذه المقابلة وافق الأسد على دخول سوريا الحرب مع مصر، وظللنا خلال ثلاث ساعات نتناقش في كيفية التنسيق بين البلدين، وعدم تخلي أي منهما عن الآخر في الحرب، واتفقت معه على ذلك، وهو ما يفسر تطوير مصر للهجوم على إسرائيل أثناء الحرب يوم 14 أكتوبر عام 1973 لتخفيف الضغط عن الجبهة السورية التي كانت إسرائيل قاربت السيطرة عليها.

أما المهمة الثانية فكانت صفقة أسلحة الاتحاد السوفيتي التي تعتبر من أهم المهام التي قمت بها، رغم أنها شديدة الصعوبة بعد ترحيل الخبراء الروس من مصر عام 1972. وقتها كانت العلاقات سيئة بين مصر وروسيا وعندما سافرت إلى روسيا استطعت إبرام اتفاق معهم بشكل شخصي لتوريد صفقة الأسلحة لمصر تقديرًا من الروس لقدرتي العلمية والعملية ولارتباطهم بي بشكل شخصي. وتعتبر الصفقة من أكبر الصفقات التي قامت بها مصر مع روسيا بشكل مباشر عبر مدير المخابرات الروسي وقتها « أندروا بوف» وكان صديقًا شخصيًا لي، وكان لـ «بوف» سلطة قوية في الاتحاد السوفيتي وعن طريقه استطعت إتمام الصفقة. كان الاستعداد للحرب يجري على قدم وساق. كنا نسابق الزمن ونقص الإمكانيات ونعالج كل ما يصادفنا من عوائق.

في الأول من أكتوبر، أصدر الرئيس السادات توجيه الحرب وأرسله لي وكان نصه:

الرئيس

بسم الله

توجيه صادر إلى القائد العام للقوات المسلحة ووزير الحربية الفريق أول أحمد إسماعيل علي:

أولاً: عن الوضع العام:

1 - لقد مضت حتى الآن أكثر من ست سنوات على احتلال العدو الإسرائيلي لأجزاء من التراب العربي.

2 - إن إسرائيل مؤيدة بدعم أمريكي خصوصًا في مجال إمدادات السلاح.. حاولت وتحاول فرض إرادتها علينا وإنهاء أزمة الشرق الأوسط على نحو يحقق لها سيطرة شبه مطلقة في المنطقة العربية وفي أمنها وفي مصائرها.

3 - إن مصر حاولت بكل الوسائل، ومنذ صدر قرار إطلاق النار من مجلس الأمن في 8 يونية 1967 أن تجد حلًّا للأزمة.. وفي هذا السبيل فقد تنوعت وسائلها من قبول قرار مجلس الأمن رقم 242 بتاريخ 22 نوفمبر 1967 إلى قبول جهود السفير جونار بارتيج، ثم جهود الدول الأربعة الكبرى، ثم جهود قامت بها القوتان العظميان، ثم مبادرة تقدم بها وزير الخارجية الأمريكية وليام روجرز، حتى تقدمت مباشرة بمبادرة لحل يكون فيه فتح قناة السويس بداية لمراحل انسحاب شامل تطبيقًا لقرار مجلس الأمن.

ولكن كل هذه الجهود لم تصل إلى نتيجة، فهي إما أنها فشلت وإما أنها توقفت.. أو حاول أعداؤنا الخروج بها عن مقاصدها.

4 - إن مصر قامت بعمليات عسكرية ذات طابع محدود في سنوات 1967 و1969 و1970، كذلك قدمت دعمًا كبيرًا لقرار المقاومة الفلسطينية لمباشرة عمليات فدائية على الخطوط أو داخل الأرض المحتلة.. ولكن مدة العمليات كلها وإن أدت إلى نتائج لها أثرها فإنها لأسباب متعددة لم تصل في ضغطها على العدو إلى الحد اللازم.

5 - إن مصر كانت تدرك طوال الوقت أنه سوف يجيء وقت يتعين عليها فيه أن تتحمل مسئولياتها.. وكان أهم ما يجب أن نعني هو أن نوفر لهذا اليوم كل ما نستطيع.. وفي حدود طاقتنا.. ومع التزامنا بواجب الدفاع عن التراب والشرف.

6 - إن الشعب في مصر يعمل بأكثر مما كان يتصور أحد؛ خصومه وأصدقاؤه على السواء.. ولقد كانت الأعباء التي تحمَّلها الشعب، مادية ومعنوية، أعباء فادحة لا يتحملها إلا شعب يؤمن بالحرية ويمضي في سبيلها.

7 - إن تحسينات مهمة طرأت على الموقف السياسي العربي عمومًا وزادت من احتمالات تأثيره.. ومع تزايد أهمية أزمة الطاقة وأزمة النقد في العالم فإن الضغط العربي في أحوال ملائمة يستطيع أن يكون عاملًا له قيمته.

8 - إن تأثيرات الموقف العربي العام تجلت بشكل واضح في أوضاع تسليحنا.. فإلى جانب ما حصلنا عليه من الاتحاد السوفيتي والكتلة

الشرقية، وهو كثير، فقد أتيحت لنا من مصادر أخرى أنواع من السلاح لم تكن متوافرة لنا.

9 - إن العدو في شبه عزلة عالمية، بعد الجهود المصرية الناجحة في مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة ومؤتمر منظمة الوحدة الإفريقية الأخير في أديس أبابا، ومؤتمر الدول غير المنحازة الذي لحقه في الجزائر.

10 - إن الموقف الدولي يتغير.. وما زالت حركته مستمرة.. وقد نجد أنفسنا أمام توازنات طويلة الأجل تؤثر على حرية حركتنا وعلى حقنا في اختيار أنسب البدائل.

ثانيًا: عن استراتيجية العدو:

إن العدو الإسرائيلي كما نرى انتهج لنفسه سياسة تقوم على التخويف، والادعاء بتفوق لا يستطيع العرب تحديده.. وهذا هو أساس نظرية الأمن الإسرائيلي التي تقوم على الردع النفسي والسياسي والعسكري.

إن نقطة الأساس في نظرية الأمن الإسرائيلي هي الوصول إلى إقناع مصر والأمة العربية أنه لا فائدة من تحدي إسرائيل، وبالتالي فليس هناك مفر من الرضوخ لشروطها حتى وإن تضمنت هذه الشروط تنازلات عن السيادة الوطنية.

ثالثًا: عن استراتيجية مصر في مدة المرحلة:

إن الهدف الاستراتيجي الذي تحمل المسئولية السياسية في إعطائه للقوات المسلحة المصرية.. وعلى أساس كل ما سمعت وعرفت من أوضاع الاستعداد يتلخص فيما يلي:

تحدي نظرية الأمن الإسرائيلي وذلك عن طريق عمل عسكري حسب

إمكانيات القوات المسلحة، يكون هدفه إلحاق أكبر قدر من الخسائر بالعدو وإقناعه أن مواصلة احتلاله لأراضينا يفرض عليه ثمنًا لا يستطيع دفعه.. وبالتالي فإن نظريته في الأمن - على أساس التخويف النفسي والسياسي والعسكري - ليس درعًا من الفولاذ يحميه الآن أو في المستقبل.

وإذا استطعنا بنجاح أن نتحدى نظرية الأمن الإسرائيلي فإن ذلك سوف يؤدي إلى نتائج محققة في المدى القريب وفي المدى البعيد.

في المدى القريب: فإن تحدي نظرية الأمن الإسرائيلي يمكن أن يصل بنا إلى نتائج محققة تجعل في الإمكان أن نصل إلى حل مشرف لأزمة الشرق الأوسط.

وفي المدى البعيد: فإن تحدي نظرية الأمن الإسرائيلي يمكن أن يحدث متغيرات تؤدي بالتراكم إلى تغيير أساسي في فكر العدو ونفسيته ونزعاته العدوانية.

رابعًا: عن التوقيت:

إن الوقت من الآن، ومن وجهة نظر سياسية، ملائم كل الملائمة لمثل هذا العمل الذي أشرت إليه في ثالثًا من هذا التوجيه.

إن أوضاع الجبهة الداخلية وأوضاع الجبهة العربية العامة بما في ذلك التنسيق الدقيق مع الجبهة الشمالية، وأوضاع المسرح الدولي تعطينا من الآن فرصة مناسبة للبدء.

ومع العزلة الدولية للعدو.. ومع الجو الذي يسود عنده بنزاعات

الانتخابات العربية وصراعات الشخصيات - فإن احتمالات الفرصة المناسبة تصبح أحسن أمامنا.

وبدأ العد التنازلي للحرب، كانت الأيام تقترب من ساعة الصفر واضطررت للسفر لسوريا يوم الثلاثاء السابق ليوم السبت الذي حدد لبدء العمليات العسكرية. وعدت في اليوم نفسه، وكان الهدف من الزيارة تحديد ساعة الصفر والاتفاق عليها. وعدت لمصر، وفي اليوم التالي ذهبت ومعي «سيف» ابني الأصغر إلى أحد أقاربنا للإفطار معهم في شهر رمضان، وأثناء ذهابنا في الطريق إليهم أخبرت «سيف» أني أريد زيارة قبر والدي، وهناك دار حوار وقلت له: «احتمال أكون هنا بعد أيام قليلة، وأُدفن بجوار جدك». لم يرد «سيف»، والتزم الصمت والدخول في حالة خوف على والده، فقلت له: «أريد أن أقول لك شيئًا.. إنني مخلص للبلد وأبذل قصارى جهدي لخدمته».

كان «سيف» يشعر أن شيئًا مهمًّا أو حربًا ستقع خلال الأيام المقبلة، خصوصًا بسبب زياراتي المتقطعة إلى المنزل في شهر رمضان، حيث كان المعتاد أن أتواجد على الإفطار مع الأسرة، وكان لا يوجد أحد في المنزل سواي و«سيف»، وكنت أرتدي ملابس الميدان وأستقل سيارة جيب وليس السيارة العادية. كل هذا كان يؤكد لسيف أن مصر ستدخل حالة حرب.

حدث يوم 5 أكتوبر أن جاءني «سيف» وأبلغني أن حركة الطيران من وإلى مصر، ومن وإلى جميع أنحاء العالم توقفت، وقال إنه علم بذلك عندما ذهب إلى مطار القاهرة لاستقبال والدته العائدة من لندن وشقيقه الأكبر محمد أيضًا العائد على طائرة ليبيا الساعة 8 مساء في اليوم نفسه، وانتظر

شقيقه «محمد» فلم يأت، ووجد حالة من الهرج والمرج في المطار وتواجد عدد كبير من الناس، وشعر «سيف» بشيء غير مطمئن فتوجه إلى الشرطة العسكرية وسأل ضابط مصر للطيران الذي أخبره أن جميع الرحلات من وإلى مصر متوقفة.

عاد «سيف» على الفور إلى المنزل واتصل بالسكرتارية وأبلغني بوقف حركة الطيران فاتصلت باللواء أحمد نوح، وكان وقتها وزيرًا للطيران، وطلبت عودة الطيران المدني إلى حركته الطبيعية، ورغم هدوئي المعتاد فإنني غضبت فور علمي بإيقاف حركة الطيران في ذلك اليوم، والتي عادت إلى طبيعتها مرة ثانية بعد ساعة.

أذكر أنني استدعيت «سيف» لغرفتي مساء يوم 5 أكتوبر عام 1973 وقلت له: «وضعت خطابًا في درج الشفونيرة وغير مصرح لك بقراءته إلا إذا حدث شيء لي، ولابد أن تعلم أن والدك كان مخلصًا للبلد وفعل كل ما في استطاعته لخدمة الوطن»، ورد سيف: «حاضر»، وقلت: «أريد أن أستيقظ الساعة 9 صباحًا»، فرد «حاضر أنا سأظل أذاكر حتى الصباح». وبالفعل لم ينم «سيف» لأنه من المفترض أن يذاكر لكنه لم يستطع التركيز، وعند صلاة الفجر وجدني مستيقظًا أصلي الفجر، سعيدًا.

كانت زوجتي قد سافرت للندن قبل الحرب بأسابيع للعلاج من ورم في يدها، وعَمَلِ فحص شامل عند طبيبها المختص هناك، كنت أرفض فكرة السفر تحسبًا لاندلاع الحرب دون أن أبدي أسبابًا للرفض. لكن أمام إصرارها على السفر للعلاج وافقت شريطة أن تعود بأسرع وقت وبمجرد إجراء العملية الجراحية. فسافرت ومعها ابنتانا نيرمين ودينا، وأجرت العملية، وفي اليوم التالي من إجراء العملية وجدت مدير مكتبي لديها في

المستشـفى، يبلغها أني مسـافر مأمورية ويطلب منها العـودة لمصر، فقالت له إنهـا لن تتمكن من الخروج من المستشـفى قبل يومـين أو ثلاثة، فقال لها إنني أريـد عودتهـا إلى مصر فـورًا، ولم تعرف أي شيء عن الحـرب، وكان الرئيس أنور السـادات هو الذي أرسـل إليها مدير مكتبـي، حيث كنت في مركز 10 اسـتعدادًا للحرب، وطلـب منها مدير مكتبي أن تجهـز أغراضها ليمر عليها في اليـوم التالي لاصطحابها والعـودة بها إلى مصر، وذهبت نيرمين إلى الفندق في لنـدن لتحضـير أغراضهـن وظلت دينا مـع والدتها في المستشـفى وحضر مديـر المكتب ومعـه الملحق العسـكري في لندن وتركت زوجتي المستشـفى دون أن تخـبر الطبيب المعالج لها. وتوجهت للمطـار مع ابنتينا ومدير مكتبي والملحـق العسـكري، وأثناء تواجدهم في المطار أخبروهم أنه لا يوجد سـفر ولا طائـرات، فاضطـرت إدارة المطار أن تحجز للمسـافرين في فندق المطار، واصطحـب مديـر مكتبي زوجتـي وابنتيَّ للفندق مرة أخـرى لأنه كان أكثر أمنًا، لحين إصلاح الطائرة التي حدث بها عطل.

وفي صباح اليوم الثاني وجدتْ حرسًا على باب غرفتها وعندما سألتهم ماذا يفعلون أخبرها الملحق العسكري أن مصر دخلت الحرب مع إسرائيل، وكسبنا الحرب، واخترقوا خط بارليف، وكانت مفاجأة لها، فسـارعت لارتداء ملابس الإحرام التي اعتادت دومًا على أخذها معها في كل سفرياتها. وصلت لله صلاة شـكر وظلت تدعو للقوات المسـلحة، وجاء إليها السـفير كمال الدين رفعت، وقـال لهـا إن لديه أوامر بالتحفـظ عليها هي والبنتين في الفندق تحت الحراسـة حتى يأتيه أمر بالسماح لهنَّ بالسفر لأنهم خائفون إذا علمت إسرائيل بوجودهن في لنـدن أن تتعـرض حياتهن للخطـر. وهو ما حدث حتى نجحـت في العودة لمصر مع البنات عن طريق السفر إلى ليبيا ومنها لمصر عبر الحدود الليبية.

▲ المشير أحمد إسماعيل مع الرئيس السادات قبل أكتوبر 1973 في منزل الرئيس.

▲ المشير أحمد إسماعيل في استراحة القناطر الخيرية ومناقشات لا تنتهي عن المعارك.

▲ أحمد إسماعيل والسادات ودراسة تفاصيل الحرب.

▲ المشير أحمد إسماعيل أثناء إلقائه كلمة للقوات المسلحة.

ضرب نظرية الحدود الآمنة

يستخدم المسئولون الإسرائيليون اصطلاح الحدود الآمنة في مواجهة الضغوط التي تطالبهم بالانسحاب من المناطق المحتلة، وفي تبرير مطالبتهم بضم أجزاء من المناطق المحتلة (كما وضح في تصريح جولدا مائير لصحيفة التايمز اللندنية في 8/ 3/ 1971 الذي حددت فيه المطالب الإسرائيلية الإقليمية)، وذلك في نطاق الاتصالات السياسية لحل الأزمة في الشرق الأوسط بالطرق السلمية، بينما اصطلاح الحدود الآمنة في حقيقة الأمر هو اصطلاح دخيل على الاستراتيجية العسكرية تستخدمه إسرائيل للتعبير عن رغبتها في التوسع الإقليمي - وهو هدفها الرئيسي - وهو كلمة مخادعة براقة تحمل معنى الدولة التي ترغب في أن تعيش في أمن وسلام ولا تبغي من اعتداءاتها التي تضطر إليها إلا أن تكون لها حدود يمكن الدفاع عنها، وبذلك توهم دول العالم بعدالة مطالبها.

ومن ثم فإن الحدود الآمنة اصطلاح لا ينسجم مع المعركة الحديثة في

عصرنا، وبعد أن ثبت فشل مثل تلك الحدود في الحرب العالمية الثانية؛ إذ أمكن التغلب على خط ماجينو الذي استنفد ملايين الدولارات في إعداده وتجهيزه - فما بالنا اليوم بالتطورات الحديثة في الطيران والصواريخ والأقمار الصناعية والإبرار الجوي والبحري وخلافه. وهل الحدود الآمنة عبارة عن حدود طبيعية مثل الجبال والأنهار والوديان؟ وهل في زماننا المعاصر تعتبر مثل تلك الصفات الجغرافية الطبيعية موانع للأسلحة الحديثة للمعدات البرمائية والمعدات التي تسير في الصحراء وعلى جميع أنواع الأراضي؟ خصوصًا بعد التوسع في استخدام الطائرات العمودية (الهليوكوبتر) التي تتمكن من نقل المعدات والأفراد عبر أي نوع من الحدود والأراضي.

إن إسرائيل تدعي أنها ترغب في حدود آمنة مع جيرانها العرب، أي نوع من الحدود تلك التي تكون آمنة؟ وما شكلها؟ أهي حدود طبيعية: جبال - صحراء - أنهار؟ وهل تكفل هذه الحدود لها الأمن حقيقةً؟ وهي حدود آمنة مِن مَن؟ ومن أي نوع من العمليات؟ أمن قصف المدفعية، أم من الطيران، أم من الهجوم المدبر، أم من التسلل؟ وهو تسلل الفلسطينيين الفدائيين عبر الحدود إلى أراضيهم الأصلية ووطنهم السليب، وقد أكدت جميع النظريات العسكرية أنه لا يمكن منع تسلل الأفراد مهما عظمت القوات المدافعة ومهما كانت مناعة المواقع الدفاعية؛ فالتسلل ممكن عبر أي نوع من الأراضي وأي نوع من الحدود، وعلى ذلك فكلما كبرت الحدود وزادت قلت فرص الدفاع عنها، وبالتالي سهل التسلل منها.

هل تسعى إسرائيل إلى حدود آمنة من قصف نيران المدفعية ضد المستعمرات والمدن؟ على الرغم من علمها بأن مدى الأسلحة الحديثة زاد

زيـادة كبـيرة وأمكن بالمدفعية أن يتم الضرب وبدقة إلى مسـافة تصل إلى 25 كـم وأكثر، فهناك من الصواريخ متوسـطة المدى مـا يمكنها أن تصل إلى 80 كـم وأكثر، وعلى ذلك مهما كانت الحدود سـواء أكانـت صحراوية أم صلبة أم مائيـة فلن تمنع مـن قصفات المدفعية، كذلك فإن سرعـة الطيران الحديث والطـيران المنخفـض الـذي يصعب اكتشـافه على مسـافات بعيدة بواسـطة الـرادار - ذلك كله جعله يتمكن من عبـور أي نوع من الحدود بسرعة فائقة قبل أن يتم اكتشـافه؛ أي أن فرصة الإنذار لن تكون كافية مهما كانت اليقظة ومهما كانت الحدود.

ودار في رأسي العديد من الأسـئلة العسـكرية ومنهـا كيف تحمي الحدود الآمنـة إسرائيـل مـن هجوم الـدول العربيـة عليهـا؟ كيف تمنع الحـدود أي عمليـات هجوميـة مفاجئة، فـإن مفاجأة الضربـة الأولى سـواء كانت جوية أو بريـة يمكـن تحقيقها، لكن العـبرة بتلقي الضربة وامتصاصهـا، ثم توجيه الضربة المضادة، ولم تمنع سيناء ورمالها وجبالها إسرائيل من القيام بالعمليات الهجوميـة، وعـلى العكس أيضًا لـن تمنع سـيناء قواتنا من القيـام بالعمليات الهجومية في الوقت المناسب.

الحـدود الآمنة لمـن وضد من؟ آمنة لإسرائيل ضد الـدول العربية أم ضد أصحاب فلسـطين الشرعيين؟ إذا كان التأمين ضد الدول العربية فإن الدول العربيـة هي التـي تطالب بالحدود الآمنة ضد إسرائيـل التي بدأت بالعدوان واعتـدت على حدودنـا أعوام 48، 56، 67 إذن فـإن المنطق يقتضي العكس فليـس مـن العدل أن تطلـب الدول المعتديـة أن تؤمن حدودهـا ضد الدول المعتدَى عليها».

وانتهيـت إلى الخلاصـة أن الحـدود الآمنـة لن تكـون كذلك ولـن تؤمن إسرائيـل ضد أي نوع من العمليـات الحربية إذا كانت النيـة مبيتة على القيام بأي نوع من العمليات سواء كانت عمليات إزعاج أو هجومًا فعليًّا».

ومنـذ انتهاء عمليات يونية 1967 لم يكف المسـئولون الإسرائيليون عن إعـلان التصريحات والتفسـيرات حـول الحدود الآمنـة والمناطـق التي ترى إسرائيـل الاسـتيلاء عليهـا ما يحقـق الأمن لهـا. ولنناقش المناطـق التي ترى إسرائيـل أنهـا تؤمـن حدودها على لسـان مسئوليها، وهل حقيقـة ضم هذه المناطق لإسرائيل يحقق لها الأمن؟

طالبـت إسرائيـل بوجـود عسـكري لهـا في شرم الشـيخ لتأمـين الملاحة الإسرائيليـة في خليـج العقبة (كما جاء في تصريح جولدا مائير وفي تصريحات موشي ديان) فهل تأمين الملاحة يحتاج إلى شرم الشـيخ وخليج العقبة؟ بنظرة عسكرية مبسطة نستطيع أن نقول: إذا احتل العدو هذه المنطقة يمكن تعطيل الملاحـة من أماكن أخرى، وإذا احتل العدو الشـاطئ المصري يمكن تعطيل الملاحة من الشـاطئ السـعودي المقابـل، كما يمكن تعطيـل الملاحة من ميناء العقبة نفسه، وإذا كانت منطقة تيران هي أضيق منطقة في الخليج enterprise فهناك الآن الأسـلحة السـاحلية سـواء كانـت مدفعية سـاحلية أو صواريخ «أرض/ أرض» وهي أسلحة بعيدة المدى وتتميز بالدقة في إصابة الهدف، مما يمكنها من غلق الخليج من الشـاطئ، إضافـة إلى وجود الغواصات وقدرتها عـلى إغـراق أي قطعة بحريـة في المضيق فتتعطل الملاحـة في الخليج المغلق في نهايته، فضلًا عن إمكانية اسـتخدام الطـيران في إغراق بعض القطع البحرية في المضيق.

ثـم إن هناك نقطـة أخرى يجب ألا نغفلهـا هنا وهـي: إذا كانت إسرائيل تطلـب احتلال مضيـق تيران بقواتهـا لتأمين ملاحتها إلى مينـاء إيلات وهي الدولـة المعتدية، فكيف تؤمن الأردن ميناء العقبة مـن إسرائيل وهي الدولة المعتدَى عليها؟

وعـلى ضوء مـا سـبق يتضـح أن كل مـا أورده المسئولون الإسرائيليون للتمسـك بشرم الشـيخ مـا هو إلا حجـج واهية ترمـي إسرائيل مـن ورائها إلى أن تمـد حدودها على سـاحل البحر الأحمر لمسـافة مائتـي كيلومتر أو أكثر على شـاطئ الخليج، وحتى يمكنها اسـتخدام الطريق البري الذي أنشأته من رأس النقب حتى شرم الشـيخ، كما تضمن وجودًا لها بصفة دائمة في جنوب سيناء.

نعـود إلى الحدود الآمنة، ونـضرب مثالًا آخر بمرتفعـات الجولان؛ فهي في حـد ذاتها ليسـت مانعًا طبيعيًّا يمنع الاسـتيلاء عليها، ولكنها تسـاعد على الدفاع، والدفاع نفسه ليس هدفًا للنصر في الحروب بل يعتبر مرحلة الاستعداد للهجـوم أو تثبيـت قـوات في جهـة معينة للهجـوم من جهة أخـرى، ولا يتم النـصر إلا بتدمير قوات العدو وفرض الاستسـلام عليه وهـذا لا يتحقق إلا بالهجـوم الفعـلي، وإذا ركز الهجوم عـلى أي منطقة مهما كانـت مناعتها أمكن الاسـتيلاء عليهـا، وإذا كانت القـوات الإسرائيلية قد أمكنها الاسـتيلاء على مرتفعـات الجـولان بالرغم من مناعتهـا كهضبة مرتفعة حاكمـة فإن القوات العربية يمكنها أن تستولي على المرتفعات بالأسلوب نفسه، أما بالنسبة لادعاء إسرائيـل بأنها تحتل قمم الجولان حتى تمنع ضرب المسـتعمرات الإسرائيلية، فالأسـلحة الحديثة لا تحتاج لأن توضع على المرتفعات؛ إذ إن معظم الأسلحة

يمكنها الضرب من خلف الهضاب ويمكن توجيه النيران بالطائرات ومعظم المدفعية البعيدة المدى لا تحتاج إلى تصحيح النيران بالنظر، إذن فمطالبة إسرائيل بضم الجولان لحمايتها من الجيوش العربية أو لحماية مستعمراتها من ضربات المدفعية السورية يعتبر حجة للتوسع على حساب سوريا.

مثال آخر في حدود وادي الأردن.. وأسأل: هل هي مانع طبيعي حقيقي؟ وإذا كان كذلك فكيف نفسر دخول وخروج الفدائيين الفلسطينيين يوميًّا؟ إن الحدود مع الأردن تمتد مسافة 500 كم وسواء أكانت الحدود وادي الأردن أم خلافه فإنها تحتاج إلى قوات كبيرة لحمايتها والدفاع عنها أو نقط للمراقبة، إذًا فإن الحدود مع الأردن غير آمنة سواء كانت الحدود القديمة أو الحدود ضد وادي الأردن.

وإذا كانت الحدود هي نهر الأردن، فما الحل بالنسبة للمدن العربية والمليون عربي الموجودين حاليًّا غرب الأردن؟ هل ينضمون إلى دولة إسرائيل وعندئذ يصبح داخل إسرائيل أقلية عربية قد تتسبب في نسف إسرائيل من الداخل في يوم ما، إذا ما أخذنا في الاعتبار ارتفاع معدل المواليد بين العرب عنه بين اليهود وهو الوضع الذي يرفضه زعماء إسرائيل.

وعن المناطق منزوعة السلاح - أقول إنه اقتراح ثبت فشله في العديد من المناسبات، أذكر منها تجربتنا مع إسرائيل نفسها؛ فالأرض المنزوعة السلاح يمكن لأي من الطرفين أو طرف ثالث أن يحتلها في فترة وجيزة برًّا كانت أو جوًّا، كما يمكن للدولة المشرفة إداريًّا على المنطقة منزوعة السلاح أن تجهزها كمسرح مستقبلي للعمليات تحت ستار التحسينات المدنية للمنطقة.

وفي حالـة وجود بوليس دولي تابع لهيئة الأمـم المتحدة في المنطقة، وهناك نية من إحدى الدول لانتهاك حيادها، فإن البوليس الدولي كقوة معنوية غير مسـلحة لن يتمكن من وقف احتلال هـذه الأرض، وقد كان لنا تجربتان مع إسرائيل في هذا المجال: الأولى هي اعتداء اليهود أنفسهم على منطقة العوجة منزوعة السـلاح عام 1955 رغم وجود ممثلي الأمم المتحدة بعد أن طردتهم مـع المندوبين المصريين واحتلالها العوجة وفرض سيطرتها عليها ولم تتحرك هيئة الأمم المتحدة، والتجربة الثانية في حرب يونية 1967 حين قتلت القوات الإسرائيليـة قوات الأمم المتحـدة الهنود في غزة، وهي تعلم أنهم جنود الأمم المتحدة متحدية بذلك الأمم المتحدة غير عابئة بقراراتها.

ويحـضرني هنا تصريح «أبا إيبان» في حديث له مـع الأوبزيرفر البريطانية بتاريـخ 18/ 6/ 1967 قـال فيه «حتى لو تـم التصويـت في الجمعية العامة للأمم المتحدة بأغلبية 121 صوتًا ضد صوت واحد لتأييد انسحاب القوات الإسرائيلية إلى ما وراء خطوط الهدنة فإن إسرائيل لن تلتزم بهذا القرار».

هل تتصور إسرائيل أن الحدود الآمنة هي مشـكلة عسـكرية بحتة أم أنها مشـكلة أسـلحة وحرب، وأن الأمن مجرد حالة من الاسـتعداد المسلح فقط يتمثل في ترسانة ضخمة من الأسلحة المختلفة. إن أي دولة تستطيع أن تصل إلى النقطـة التـي لا يمكنها أن تشـتري مزيدًا من الأمن لنفسـها بمجرد مزيد من المعدات العسـكرية، إن العامل الحاسم بالنسبة لأمة قوية مسلحة بالفعل تسـليحًا كافيًـا هو طابـع العلاقات الـذي يحفظ أمنهـا الجوهـري والاقتناع بالعدالة وإعطاء كل ذي حق حقه.

ويقول مكنمارا «وزير الدفاع الأمريكي الأسبق» في تعريفه للأمن في كتابه

«جوهر الأمن»: «معناه التنمية وليس المعدات العسكرية وإن كان يتضمن المعدات العسكرية، كما أنه ليس هو القوة العسكرية وإن كان يتضمنها، وليس النشاط العسكري التقليدي وإن كان يشمله، فالأمن هو التنمية ومن دون تنمية لا يمكن أن يوجد أمن».

كما أود أن أورد هنا فقرة من التصريح الأخير لـ«بن جوريون» السياسي الإسرائيلي العتيد والأب الروحي لإسرائيل الذي أدلى به لمجلة ساترداي ريفيو في 25/ 3/ 1971 قال فيه: «إن وجود حدود يمكن الدفاع عنها عسكريًّا لن يكفي في حد ذاته لضمان مستقبلنا على الرغم من أنها قد تكون شيئًا مرغوبًا فيه».

وأعود بذاكرتي إلى عام 1948 وكيف وصلت إسرائيل إلى خليج نعمة، رغم أنها لم تستول على إيلات بالقوة العسكرية ولم تنشأ معارك في هذه المنطقة، فإن إيلات التي تتباهى بها إسرائيل وتعطيها أهمية قصوى من الناحية الاستراتيجية والاقتصادية تعتبرها المنفذ الوحيد الحالي إلى البحر الأحمر ودول آسيا وإفريقيا استولت عليها إسرائيل بعد وقف القتال في عام 1949 في غفلة منا ومن الأردن ومن العرب جميعًا.

الاسم العربي لـ«إيلات» وقت الانتداب على فلسطين هو «أم رشراش»، وقد كان عبارة عن ميناء عربي صغير لقوارب الصيد يحرسه ستة جنود وضابط صف عربي، وحتى عام 49 وبعد وقف القتال كانت لا تزال بها هذه القوة للحراسة وهي مفتوحة للبعض، ولكي تصل إلى إيلات، كان يجب أن تمر بـ«رأس النقب» وهي منطقة جبلية مرتفعة جدًّا بها طريق جبلي ضيق مرتفع وممتدة في اتجاه البحر، والطريق نصفه يمر بأرض مصرية والنصف

الآخـر في أرض فلسـطين، ثم ينحـدر نحو البحر إلى طابـا، وهي ميناء ضيق مجـاور لبئر مياه، وهي أيضًا منطقة صيد، ومن طابا تمر على شـاطئ البحر إلى إيلات مسـافة 3 أو 4 كم ثم بعد خمسـة كيلومترات تصل إلى العقبة، أي إلى العقبـة وإيلات على مرأى العين، وبالعكس تقع إيلات بين طابا في الأراضي المصرية والعقبة في الأراضي الأردنية مواجهة للأراضي السعودية.

وهذه المنطقة عمومًا هي منطقة خلال 20 كم بين أربع دول هي السعودية والأردن وفلسطين ومصر، ويمكن لأي فرد أن يبدأ من رأس النقب إلى طابا إلى أم الـرشراش إلى العقبـة إلى الأراضي السـعودية متنقلًا بسـيارته في وقت وجيز.

والعقليـة اليهودية وضعت في اعتبارها أهمية هذه المنطقة، وبمجرد وقف القتـال عـام 1948 اسـتولت عـلى «أم رشراش» دون قتـال واعتبرتها ميناء إسرائيليًا وأنشأت ميناء للداخل يربط «أم رشراش» بباقي الدول شمالًا.

ومـع عجزنـا عن القيام بعمـل إيجابي، وصلنـا إلى طابا ووضعنـا الألغام والأسـلاك الشـائكة ووضعنا قوة صغيرة مجاورة لإيلات وبدأنا التفكير بعد الحرب في كيفية منع إسرائيل من الاستفادة بهذا الميناء باتخاذ إجراءات سلبية لحرمان إسرائيل من الانتفاع بهذا الميناء.

ونعلـم أن البحر الأحمر في شـماله وعند منطقة رأس محمد جنوب سـيناء يتفرع إلى خليج العقبة وخليج السـويس، وأن مدينتي العقبة والسـويس لهما تاريخ قديم من ناحية التجارة مع دول آسـيا ومواسـم الحج وخليج العقبة، ويسـتمر البحر شمالًا بين الشـاطئين: السعودي والمصري لمسـافة 300 كم،

عـلى أن يصل إلى منطقة إيلات، وتمثل مواجهة حوالي 5 كم من الشـاطئ إلى حدود ميناء العقبة؛ أي أن الملاحة في الخليج بين ساحلين سعودي ومصري، تصل إلى مينائي إيلات والعقبة، ويقع عند مدخل الخليج وأمام رأس نصراني بالذات جزيرتان. وعلى الشـاطئ المصري مضيق «إنتر بريز» الذي لا يسمح إلا بمـرور سـفينة واحدة ذهابًـا أو إيابًا والمنطقة حوله كلها شـعب صخرية خطـيرة بالنسـبة للملاحة، وعلى ذلك فإن البواخر في هـذه المنطقة تهدئ من سرعتهـا وتسـير في الممـر القريب من الشـاطئ المصري، وبذلـك يمكن منع مـرور السـفن في هـذا الممر بأي نوع من الأسـلحة؛ لذلـك يمكن من خلال جزيـرتي صنافـير وتـيران ومدينة رأس نـصراني التحكم في منطقـة المرور في الخليـج، ولخدمـة رأس نصراني اسـتخدمت ميناء شرم الشـيخ وهي جنوب رأس نـصراني كميناء آمـن، ووضع رصيـف متحرك وأصبح مينـاءً صناعيًّا صالحًا لرسـو السـفن الصغيرة وتم إنشاء مطار بشرم الشـيخ ومنطقة إدارية لخدمة منطقة رأس نصراني التي تتحكم في الملاحة.

وفي هـذه المنطقة أعراب قلائل والمياه غير متوافرة، لكنها منطقة بها جبال شاهقة ومناطق طبيعية جميلة صالحة جدًّا للسياحة، وبجوار طابا هناك جزيرة فرعون والشاطئ في هذه المنطقة يتميز بالرمال الناعمة والموج الهادئ.

وأنشأت إسرائيل - بعد الاعتداء في 5 يونية - طريقًا أسفلتيًّا على الشاطئ السعودي يربط إيلات بشرم الشيخ كما توسعت في مطار شرم الشيخ وزودته بممرات إضافية للطائرات.

ولعل من المناسب أن أشير هنا إلى الأهمية الاستراتيجية لخليج العقبة:

1 - يمنح إسرائيل شاطئًا على الخليج الموصل للبحر الأحمر طوله 200 كم بقدر طول ساحلها على البحر الأبيض المتوسط تقريبًا.

2 - احتلال إسرائيل شرم الشيخ يعني إبعاد مصر نهائيًا عن خليج العقبة، ويصبح الخليج بعد ذلك مشتركًا بين الأردن والسعودية وإسرائيل، وستكون إسرائيل بذلك هي صاحبة المصلحة الكبرى وصاحبة البناء الأهم في تلك المنطقة، وستكون لإسرائيل أيضًا أكبر قوة بحرية في الخليج فيصبح بذلك الخليج مسيطرًا عليه تمامًا من إسرائيل.

3 - بوجود الطائرات الإسرائيلية في مطار شرم الشيخ والبحرية الإسرائيلية في ميناء شرم الشيخ بعد توسيعه يمكن التحكم في القوافل المتقدمة من البحر الأحمر إلى خليج العقبة ومدخل السويس ذهابًا وإيابًا.

4 - إذا انسحبت إسرائيل من سيناء واستمرت في احتلال شرم الشيخ فمعنى ذلك أن لإسرائيل ذراعًا طويلة ممتدة طولها 200 كم في اتجاه قلب مصر؛ أي أنها تختصر المسافة إلى منتصف الوجه القبلي والمناطق المصرية على البحر الأحمر بواسطة الطيران أو البحرية.

5 - هذه الذراع لن تهدد مصر فقط بل ستهدد دول المشرق العربي أيضًا وبصفة خاصة السعودية والعراق والكويت من شاطئ خليج العقبة كما أنها قربت المسافة لتهديد ميناء السودان الوحيد وهو بورسودان.

والخلاصة أن منطقة شرم الشيخ حيوية من الناحية الاستراتيجية لمصر ووضعها في يد إسرائيل يعتبر تهديدًا مباشرًا لأمن الجمهورية العربية المتحدة والدول العربية المجاورة.

أما بشأن التذرع بوضع قوات إسرائيلية في شرم الشيخ لتأمين إسرائيل فإن ذلك لا يؤمن ولا يحقق لها أي زيادة في الأمن؛ إذ إن الملاحة يمكن تعطيلها من البحر الأحمر قبل وصولها إلى الخليج أو بعد خروجها منه، كما يمكن استخدام الطيران في إغراق أي قطعة بحرية في الممر نفسه، وبذلك يمكن تعطيل الملاحة، كما أن الشاطئ السعودي وميناء العقبة يهددان الملاحة أيضًا، بل يهددان إيلات نفسها بواسطة أسلحة المدفعية الساحلية الحديثة وإذا كان مبدأ الاستيلاء على الأراضي بغرض التأمين هو الأساس فيجب إذن أن تستولي إسرائيل أيضًا على الشاطئ السعودي ثم تستولي على ميناء العقبة وهكذا.

وحول وضع البوليس الدولي في شرم الشيخ، إذا وافقت مصر على أن يعمل البوليس الدولي في هذه المنطقة فإنه سيحصل على أرض مصرية بحتة، ويجب أن يستند إلى قاعدة في سيناء، وليس على إيلات حيث إن إسرائيل أنشأت طريقًا يصل إيلات بشرم الشيخ وأن إسرائيل بإنشائها هذا الطريق تعلم مقدمًا قيمته بالنسبة لها، سواء استمرت في شرم الشيخ أو سلمتها للبوليس الدولي وبذلك لا تصبح المنطقة مفتوحة على إسرائيل.

وإذا عقدنا النية على مواجهة النيّات العدوانية الإسرائيلية المقبلة في المنطقة يجب علينا السعي لتحقيق التالي:

1 - تدعيم ميناء العقبة وتأمينه بالمدفعية الساحلية وعمل التحصينات اللازمة، كما يجب إنشاء مطارات حول المنطقة محصنة بالدعم اللازم للطائرات.

2 – الاهتمام بالزوارق خفيفة الحركة السريعة المسلحة بالأسلحة الحديثة للعمل كدوريات منتظمة في منطقة ميناء العقبة.

3 – اهتمام المملكة العربية السعودية بشاطئها المقابل خليج العقبة مع استغلال الموانئ الصغيرة به والقيام باستخدام قوارب حديثة أيضًا مع استخدام المدفعيات الساحلية المتحركة على شاطئها.

4 – تهتم مصر بمنطقة البحر الأحمر من ناحية المطارات والموانئ مع عمل تحصينات كاملة في هذه المناطق والسيطرة على البحر الأحمر بواسطة الزوارق السريعة خفيفة الحركة ذات الدوريات المستمرة، وذلك بالاشتراك مع السعودية والسودان.

5 – عمل عدد من النطاقات للإنذار والدفاع الجوي من البحر الأحمر حتى وادي النيل.

6 – وبما أن تخطيط إسرائيل عند الاستيلاء على هذه المنطقة هو التوسع على مراحل فيجب أن تتم دراسة كاملة بتشكيل لجنة عسكرية من الدول الأربع «مصر والأردن والسعودية والسودان» لعمل دراسة وافية ووضع خطة عمل يبدأ تنفيذها بطريقة سرية من الآن وعلى مدى طويل.

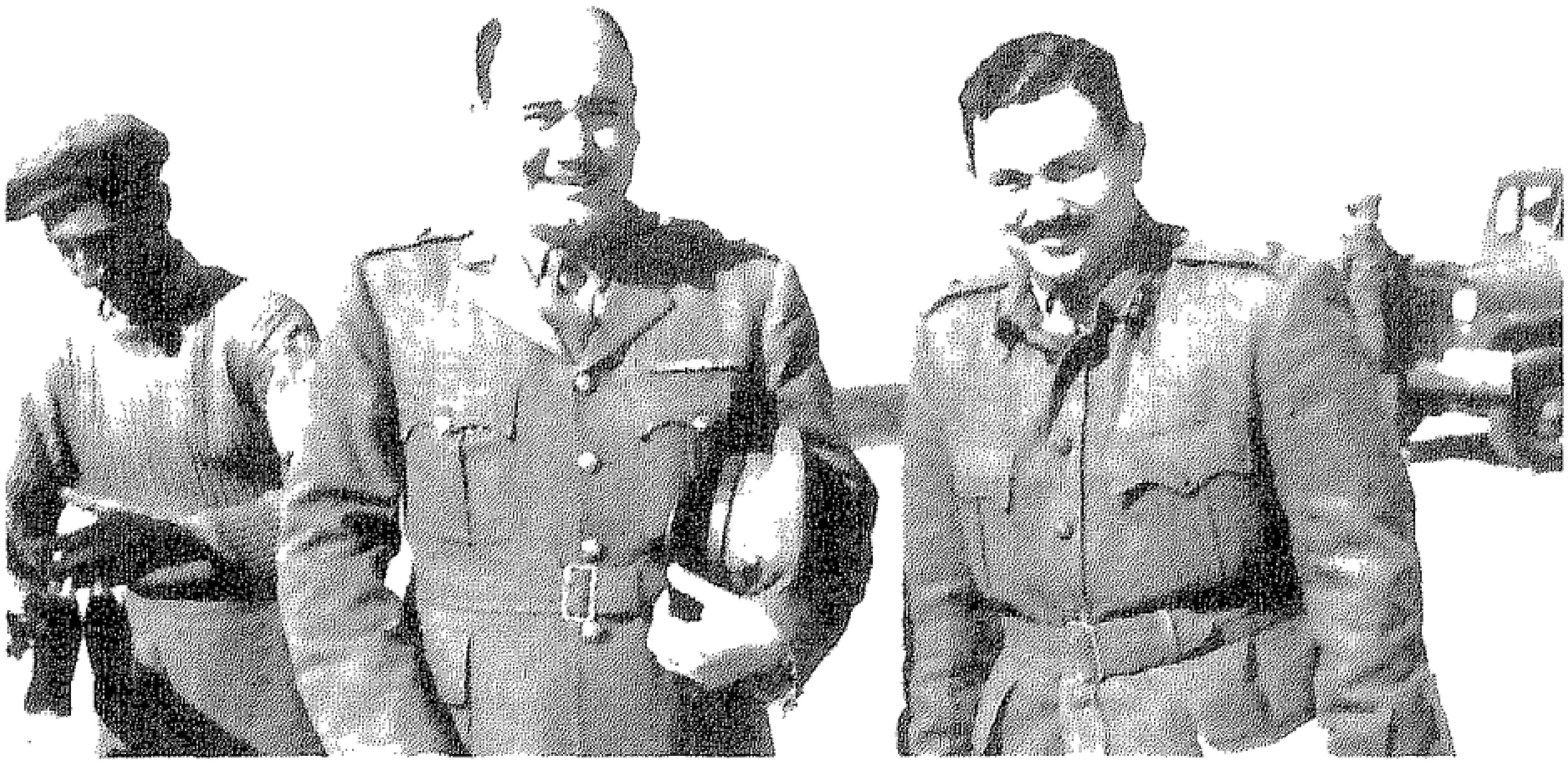

▲ أحمد إسماعيل مع كمال الدين حسين.

▲ يراجع على الجبهة مُجسم الرمل للمهام القتالية وسط القوات.

▲ مع اللواء عبدالمنعم واصل قائد الجيش الثالث أثناء الإعداد لحرب أكتوبر.

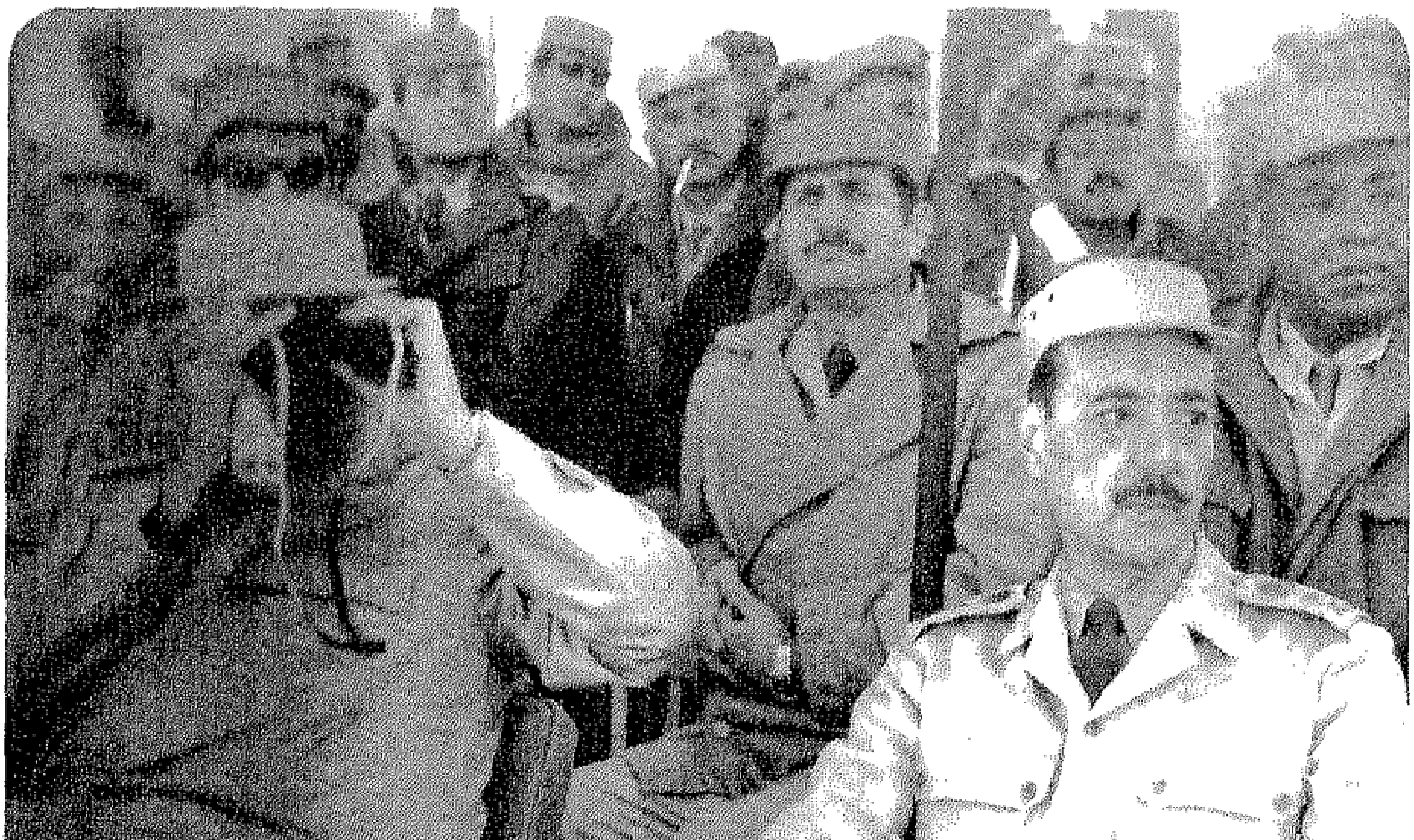

▲ .. يتابع التدريبات مع اللواء الجمسي.

حسابات النصر والهزيمة

هل من الممكن أن تنسحب إسرائيل طواعية من الأراضي العربية، وكم مرة انسحب الاستعمار من أية دولة برغبته؟ ولماذا ينسحب وأصحاب الأرض منشقون على بعضهم متهالكون في كل شيء إلا الاستعداد؟

كلها أسئلة دارت في رأسي قبل الحرب التي وجدت لها الإجابة كما كتبت بخط يدي، أن أي احتلال لا يخلي موقعه إلا بالقوة العسكرية المؤكدة سواء مارست هذه القوة ضغطها بالقتال الدامي أو أشعرت العدو بها فخشي من تكبيده خسائر فادحة إذن كان لابد أن تكون قواتنا المسلحة قادرة واثقة من نفسها، ومن سلاحها، ومن قادتها بحيث تمثل درجة عالية من الكفاءة تتيح لها أفضل الأداء في الوقت المناسب، ولابد بالطبع أن تعتنق القوات مبدأ حتمية القتال بديلًا، وأن الحل السلمي ليس واردًا إطلاقًا وأن المعركة لابد أن تحدث وفي أقرب وأنسب وقت ممكن، تلك قناعتي وهي مساوية لشرف بدلتي العسكرية التي عدت إليها مرة أخرى.

لقد كنت مقتنعًا طوال مدة خدمتي العسكرية أن الرجل، لا السلاح، هو الذي ينتصر، فالنصر يتكون أولًا في قلوب الرجال ثم يكتسبه الرجال في ساحة القتال، وعلى هذا لا يمكن للمقاتل مهما تكن رتبته أو درجته ومهما تعطه من سلاح أن ينجح أو ينتصر إلا إذا وثق في نفسه أساسًا، ووثق في قادته وفي سلاحه وفي عدالة قضيته، كل هذا إلى جانب إيمانه أولًا وأخيرًا بالله.

وعلى هذا فإن غرس الثقة في النفس بين الجنود بعضهم البعض، وبينهم وبين القادة وبين الجميع، والسلاح، كان من أهم الأمور التي ركزت عليها في كلماتي منذ أول يوم مارست فيه مسئولية القيادة، لقد كان في يدنا سلاح جيد إلا أن المناخ العام شك فيه كثيرًا، شك في حجمه، وشك في نوعيته، نعم أعترف بوجود أسلحة ومعدات أكثر تقدمًا عما لدينا في بعض التخصصات، لكن من قال إن السلاح الذي في أيدينا انعدمت مقدرته لأنه غير كفء أو غير متطور؟ إن من يقول ذلك يستهدف به عن قصد إيجاد ذريعة لعدم القتال مع أنه من الممكن وبمعدات تكميلية أن ترفع كفاءة بعض الأسلحة وهذا مافعلناه فعلًا إذ حصلنا على معدات تكميلية من دول مختلفة رفعت كفاءة تلك الأسلحة، وفاعليتها، بل إن بعض تطويرات الأسلحة والمعدات ابتكر على يد مصريين.

وعلى أي حال ومهما تكن الأسباب فإنه يجب أن نراعي عند تخصيص المهام للقوات أن تناسب طبيعة الأسلحة، والإمكانيات المتاحة لنا، وأن نعرف نقاط ضعف العدو ونحاول استغلالها، ونقاط قوته ونحاول إبطالها بخطط ذكية وفي الوقت نفسه نستفيد من نقاط وعوامل قوتنا ونقلل بقدر

الإمكان من نقاط ضعفنا، أي باختصار شديد يمكن أن نضع أفضل الخطط حسب الظروف والإمكانيات المتاحة لنا، ويمكن بتلك الخطط أن نحقق مهامنا القتالية، لذلك ركزت في لقائي مع رجال القوات المسلحة على وجوب الثقة في كفاءة السلاح الذي بأيدينا، ولم يكن ذلك مجاملة لأحد، المهم كيف نستخدمه بشكل أكثر فاعلية وتأثيرًا، ولعل نتائج حرب أكتوبر أكدت صدق ماكنت أقول، وكان علينا بالنسبة للظروف المحيطة بنا أن نصون هذا السلاح، وأن نرعاه وأن نستخدمه أفضل استخدام، ليس لتطبيق المبادئ العسكرية فحسب، بل لأن ما كان لدينا هو الأساس ولم يكن لنا أن نتركه هدرًا، إن تركناه نحن فلن يتركه العدو.

وللحق استجاب الرجال وتعاونوا معي بسرعة وبمنتهى الجدية خصوصًا أنه تربطني بمعظمهم أواصر زمالة سابقة لمسوا من خلالها مدى جديتي وعزمي على بذل أقصى جهد وطاقة للارتقاء بالكفاءة القتالية للوحدات والتشكيلات التي خدمت بها، إضافة إلى جهودي عندما كنت قائدًا للجبهة بعد عدوان 67، ثم وأنا رئيس للأركان، وكان لذلك أكبر فضل في دعم الثقة المتبادلة بينهم وبيني فضاعفوا من جهودهم وكان عملهم أقرب إلى المعجزة لا سيما أنهم استشعروا في كل لحظة أن أمل أمتهم ومصير وطنهم بين أيديهم، كما أنهم استشعروا دورهم المتعاظم خصوصًا بعد قرار السيد الرئيس الصادر في 8 يوليو عام 1972 بإنهاء عمل الخبراء السوفيت، وكان هذا القرار يعني أن حتمية المعركة أصبحت غير قابلة للنقاش، وأن المسئولية بأكملها أصبحت في عنق الفكر المصري والساعد المصري، كما أن ذلك كان

يعني أيضًا ثقة مطلقة من القائد الأعلى في القوات المسلحة، وكانت تلك ملامح الصورة على الجبهة.

لكن ماذا كانت عليه الصورة في الجبهة السورية؟ وماذا كانت ظلالها تخفي؟

لقد هالني ماقيل من عدم إمكانية تحقيق أي تعاون أو تنسيق بين سوريا ومصر، كنت أسأل نفسي وأقول لزملائي: لماذا هذا الكلام؟ إن مصر وسوريا منذ عصور التاريخ الغابرة لهما دورهما الخالد في الدفاع عن المنطقة، تقول لنا كل شواهد التاريخ المعاصر كما يقوله لنا المنطق والحسابات العسكرية: إن البلدين يشكلان فكّي كماشة تطبق على العدو كالبندقية ، وتستطيعان تحطيم ضلوعه وشل حركته، وهما دولتان عربيتان بينهما تاريخ بعيد مشترك، وتاريخ قريب ممتد وتربطهما اليوم مصالح واحدة ويجمعهما معًا هدف واحد، والإنسان العربي في سوريا مثله مثل الإنسان العربي في مصر كفء وقادر على البذل والعطاء فلماذا إذن تلك الهواجس والشكوك، وكان منطقيًا أن أزور سوريا الشقيقة، وهناك التقيت رفاق السلاح، وناقشنا الموقف كله بصراحة وبدأنا على الفور نجهز ونرتب لعمل مشترك مرتقب وحتمي، وعندما كنت أنظر إلى ملامح الصورة على الجانب الآخر كنت أتوقف أمام عناصر القوة لدى العدو.

فهذه هي قناة السويس كمانع مائي فريد في طوله وعرضه وعمقه، وتلك هي تحصينات خط بارليف الممتدة بطول القناة وبما تحويه من نقط قوية مدعمة بالأسلحة والمعدات المتطورة، ويحيط بها كل ما تفتق عنه الفكر البشري من الموانع، ومن وراء ذلك كله خطوطه الدفاعية الأخرى وتجمعات مدرعاته

القوية وطيرانه المتفوق، وعلى ضوء تلك الحقائق أخذنا نفكر - القادة كل في اختصاصه وأنا - بعد أن طرحنا نهائيًا فكرة تأجيل الحرب إلى حين الحصول على سلاح مماثل، وفي إطار ثقتنا جميعًا في أن السلاح بالرجل وانتهينا إلى وضع خطة شاملة تكفل حل كل المشكلات والعقبات العسكرية وتؤدي في الوقت نفسه إلى تحقيق الآتي:

أولًا: مفاجأة العدو:

واستلزم تحقيق هذا الهدف وضع خطة خداع استراتيجي وتعبوي وتكتيكي اشترك في تنفيذها مع وزارة الحربية الأجهزة المعنية في الدولة.

ثانيًا: اقتحام قناة السويس، وتدمير خط بارليف:

ومثلما تطلب اقتحام القناة دراسات عديدة ودقيقة لتحديد أنسب الوسائل وأنسب الأوقات التي تضمن نجاح هذه المهمة في أقصر وقت وبأقل خسائر ممكنة، فقد تطلب تدمير خط بارليف واقتحامه دراسات مكثفة أخرى وتدريبات واقعية عنيفة استخدمت فيها المعدات التي ابتكرها فكر المقاتل المصري، وكانت إلى جانب إصراره سببًا في سقوط هذا الخط في زمن أثار دهشة العدو وإعجاب رجال الفكر العسكري في أنحاء العالم لاسيما أن الاقتحام تم بالمواجهة.

ثالثًا: تقليل أثر تفوق العدو في المدرعات والطيران:

بالنسبة للمدرعات قررنا أن نمكن الجندي من مواجهة الدبابة، والتغلب عليها بشتى الوسائل خصوصًا في الساعات الباقية على الانتهاء من إقامة المعابر التي تعبر عليها مدرعاتنا وأسلحتنا الثقيلة، ولقد نجح جنودنا في

تحقيق تلك المهمة وأصبح أمر صمود الدبابات في المعارك موضع تساؤل ودراسات على ضوء ما حدث أثناء معارك أكتوبر.

وللتغلب على تفوق العدو في الطيران كان سبيلنا إليه تحقيق أمرين:

1 - أن يكون هجومنا على طول المواجهة وهو ما يرغم العدو على توزيع ضرباته الجوية المضادة.

2 - تعاون كامل ودقيق بين قوات الدفاع الجوي بشبكة صواريخ وقواتنا الجوية بطائراتها بحيث يتمكن الاثنان معًا وبتنسيق بينهما من مواجهة طائرات العدو.

ولقد نجح الأسلوب إلى أقصى حدٍّ وفقد العدو منذ الساعات الأولى للحرب ميزة تفوقه الجوي.

ولم تكن تلك هي كل المشكلات التي واجهتنا ونجحنا في التغلب عليها؛ إذ كانت هناك مشكلات أخرى كثيرة، ولكن لم يحن الوقت للكشف عنها أو للحديث عن أسلوبنا في التغلب عليها، هكذا كان الموقف مصريًّا وسوريًّا وفي جبهة العدو على أن هناك ساحة أخرى هامة لتحركاتنا وأعني بها الدول العربية، إنها بغير جدال أمة واحدة لها تاريخها المشترك، وثقافتها الواحدة، ومصيرها الواحد أيضًا، وهي قوة لها ثقلها في المحيط العالمي، فهل يمكن أن ندخل الحرب ونحن بعيدون عنها أو وهي في معزل عنا؟

بديهيًّا لا يمكن ذلك، وهذا هو ما دفع الرئيس أنور السادات إلى تنقية الجو العربي وإزالة ما علق به من شوائب تعمل مع استمرار وجودها على

إيجـاد الخلافـات والتناقضـات بين أبنـاء الأسرة الواحـدة، وهـذا أيضًا كان راسخًا في يقيني واعتقادي..

وعـلى ضوئه، بـدأت جولاتي في الـدول العربية وكان حديثـي مع القادة العرب يدور حول تأكيد حتمية المعركة وحتمية النصر فيها بأي ثمن، لم نكن نطلب من أحد أن يحارب معركتنا بدلًا منا، ولم نكره أحدًا على المساهمة بجهد محدد، بل كان الهدف إيجاد مناخ صالح للمعركة وحشـد الإمكانيات المتاحة والممكنة سواء كانت بشرية أو سلاحًا أو مالًا أو حتى تأييدًا سياسيًّا ومعنويًّا، وكانت جولتي مجرد خطوة على طريق التمهيد السياسي والجهود المكثفة التي بذلها القائد الأعلى الرئيس محمد أنور السادات أثناء لقاءاته بالرؤساء العرب ومن خلال زيارته لأكثر من دولة عربية خصوصًا في الأسـابيع السـابقة على الحـرب مباشرة، وبهـذه التحركات أصبح مسرح العمليـات جاهزًا للحركة وصارت القوات المسلحة المصرية والسورية في وضع الاستعداد النهائي.

وخلال تلك الفترة بطبيعة الحال لم تنقطع الاجتماعات على كل المستويات وأهمها اجتماعات المجلس الأعلى للقوات المسلحة في مصر، وعقد عدد منها برئاسـة الرئيس السـادات وكان بصفته القائد الأعلى للقوات المسـلحة يركز على ثلاثة عناصر:

1 - ثقته المطلقة في القوات المسلحة فكرًا وقيادة وأداء.

2 - مسئوليته التاريخية لمعركة التحرير والمصير.

3 - تحذيره من اتباع النمطية في التخطيط والتنفيذ.

لقـد كانت النمطية هي ما أكرهه كرهًا شـديدًا فهي أسـلوب كلاسـيكي

يضع قيدًا على الحركة ولا يترك مجالًا للابتكار والإبداع سواء في التخطيط أو في التطبيق التكتيكي والنواحي الفنية خلال التنفيذ.

أيضًا كانت هناك على مستوى القيادة الاتحادية اجتماعات للمجلس الأعلى المشترك للقوات المسلحة في مصر وسوريا اعتبارًا من يوم 21 أغسطس عام 1973 لتنسيق الشكل النهائي للمعركة.

ولعلني الآن - وأنا أسترجع تلك الأيام العصيبة في ذهني - أجد أن ما رسمناه من خطوط رئيسية لمرحلتنا كان واضحًا تمامًا في فكري، لم يكن هناك مجال للصدفة، كان كل شيء يمضي وفق أحدث الأساليب علميًّا وعالميًّا لقد كنا نسير في ثلاثة محاور رئيسية هامة:

أولها: رفع كفاءة الخطة الدفاعية عن البلاد وما يستلزمه ذلك من تجهيزات وإمكانيات.

ثانيها: وضع الخطط لردع العدو إذا ما حاول بقدرته المعتادة أن يعتدي علينا.

ثالثها: وهو الأهم وضع الخطة الشاملة للمعركة المنتظرة.

وعلى الرغم من تعارض هذه المحاور أحيانًا فإننا - وبفكر مصري خالص - استطعنا أن ننفذها بكفاءة عالية عبرنا بها مرحلة الاستعداد الصابرة إلى مرحلة الاقتحام الدموي التي اقتحمت بها أمتنا العربية كلها آفاق العصر الجديدة لتحتل مكانتها اللائقة كقوة مؤثرة لها حسابها في موازين العالم كله.

كان لابد من وضع خطة خداع شارك فيها الرئيس نفسه، ووزارة الخارجية كان لها دور مهم في خطة الخداع.

وفعـلًا قبل الحـرب بــ 60 يومًا وجد ضبـاط متخصصـون لتنفيذ خطة الخـداع ومعهم ورقة ينفِّذون ما بها بالضبط، وكانت كلمة سر الحرب حرف الياء وقبل الحرب بأسبوع أو عشرة أيام، وضعت غرفة العمليات خطة من ضمن خطط الخداع، تمثلت في أن مصر ستنفذ مشروعًا استراتيجيًّا وسُرِّب الخـبر وبياناتـه إلى إسرائيل وجزء منه مشـفر، وبالفعل صدقـت إسرائيل أن مصر على وشـك دخولهـا في مشـروع، لذلك استطعنا أن نوهـم العـدو أنه لا توجـد حرب ووجدوا عسـاكر يلعبون كرة قدم وجاء موشي ديان بنفسـه لـيرى الوضع على الجبهة يـوم الحرب، ووجد العسـاكر يلعبون، ورجع وفي السـاعة الثانيـة وخمس دقائق قال لجولدا مائير إنـه لا يوجد أي حرب فردَّت عليه: لا، تم ضرب قواتنا الجوية مركز 10، وهو مركز تحت الأرض بمسافة طويلة وعبارة عن غرفة رئيسـية ويوجد منها غرف جانبية بمحطات كهرباء وتكييـف لكن حـدث عطـل في التكييف أثنـاء الحرب وتم تشـغيل المراوح العاديـة كما يوجد تليفونات لاسـلكية ولكـن تم توصيلها بمـكان بعيد عن مركز 10 حتى لا يتسنى للعدو معرفة مكان قيادة الحرب.

لم يُعـرف موعد الحرب ولا يوجد أي ضابط يعرف الموعد إلا مسـاء يوم الجمعـة عندما جاء اللواء الجريدلي مع رئيس هيئـة العمليات اللواء الجمسي وأخذوا مجموعة من الضباط وكتبوا ورقًا بخط اليد تقرر أن تكون ساعة سين سـاعة 1405 يوم 6 أكتوبر، ووضعت في أظرف وسـلمت لضابط المراسلة الذي سـيصل إلى قائد الجيش شـخصيًّا، وتم اختيار ضباط المراسلة، وصدر لهم تعليمات مفادها: إذا حدثت له مشـكلة في الطريق يبلع الورقة على الفور

ماعـدا فرقـة واحدة هي التي أخذت هذا الظرف قبلها بأسـبوع مع العلم أن الضباط المتواجدين في نفس غرفة العمليات لم يعرفوا ذلك.

وكانـت مدمـرة تذهب مـن خليج طبرق مـن البحر الأحمـر وتنحدر إلى مضيق باب المندب وكانت الرحلة تستغرق أسبوعًا في رحلتها.

بعد ذلك يوم السـبت في الصباح، قلت لهم أن ينزلوا خريطة الحرب التي تدربوا عليها، وكانت عملية منظمة جدًّا.

وفي السـاعة 12 والنصـف خرجت من مركـز 10 ولم أترك أي خبر لأي شـخص، أين سـأذهب، وتوجهت للرئيس السـادات في منزلـه واصطحبته معي مرة أخرى إلى مركز 10.

مركـز 10 عبارة عن غرفة كبيرة مربعة ويوجد طاولة كبيرة بطول الغرفة والرئيس السـادات يجلس في النصف على يمينه، وعلى الشـمال رئيس أركان حرب الفريق سعد الدين الشاذلي ويواجهنا من الناحية الأخرى اللواء حسن الجريدلي وبجانبه 2 من الضباط يتناوبان كتابة أي أوامر يصدرها لهم الرئيس أو أنا أو رئيس الأركان.

وكان الجمسي جالس عـلى مكتب بمفرده وبجانبه النائب الخاص به وفي بعض الأحيان يجلسـون بجانب بعض، وبعد مكتب الجمسي مكتب مشـابه لـه يجلس فيه 2 مـن العمداء يعملان فقط على السـيطرة على المـكان ومن له حق الدخول أو الخروج، ويدعوان رئيس مكتب السيطرة، وليس لهما علاقة بالحرب أو العمل الذي يتم.

وفي الجانب الآخر البعيد توجد شاشة من الزجاج وخلف الشاشة عساكر

يرتدون ملابس سوداء، وهذه الشاشة مرسوم عليها منطقة القناة والمطارات العسكرية والعدو وسيناء كلها ويتم الرسم بالعكس حتى يرى ما بداخل غرفة مركز 10، الرسومات مضبوطة ويرسمون بألوان مختلفة الطيارات المصرية لون لمصر وطيارات العدو لون مختلف.

وفي الجانب الأخير من مركز 10 معلق عليه خريطة كبيرة عليها خطة الحرب التي تم تنفيذها، وفي منتصف المركز خريطة كبيرة موضوعة وحولها ضباط فرع التخطيط وعليهم مسئولية متابعة الخطة.

وهمست في أذن الرئيس أنور السادات قائلًا: «مبروك يافندم كل الضربة الجوية نجحت والبقاء لله شقيقك عاطف استشهد توفي في الضربة الجوية» فرد عليَّ السادات «كلهم أولادي زيه زي باقي زملائه».

▲ المشير أحمد إسماعيل مع الكاتب محمد حسنين هيكل بمركز 10.

▲ في زيارة للجبهة مع الرئيس السادات بعد حرب أكتوبر 1973.

▲ مع الرئيس السادات في الجبهة بعد حرب أكتوبر 1973.

▲ الرئيس والمشير يستمعان للشرح.

الساتر.. القناة... الخط
نكون أو لا نكون

كان خط بارليف والساتر الترابي هو أكثر ما يشغلني أثناء الإعداد لتخطيط مسار الحرب في أكتوبر 1973، وكان السؤال الذي لا يفارقنا ـ أنا واللواء الجمسي ـ هو كيف سنتغلب على تلك الحواجز التي أعلنت جولدا مائير يوم زيارتها لها، أنها رمز للذكاء الإسرائيلي، وأن أي اعتداء على خط بارليف بمثابة إهانة لهذا الذكاء الإسرائيلي.. لم يكن الأمر مقصورًا على خط بارليف والساتر الترابي فقط، ولكنه امتد لقناة السويس ذاتها، فهي مانع مائي بعمق 16 مترًا، وعرض يتراوح ما بين 180 مترًا – 220 مترًا. وهو ما يعني تركيز نقاط العبور بشكل يجعل اصطياد قواتنا، أمرًا سهلًا. بالإضافة إلى قيام إسرائيل بتلغيم حافة القناة على ضفتها الشرقية بشكل لم يسبق له مثيل. وكأن الجغرافيا تعاندنا هي الأخرى وتضع أمامنا عائقًا تلو العائق..

فقد كانت ظاهرتا المد والجزر في مياه القناة، مشكلة أخرى تزيد من صعوبة قوات العبور عند البدء في تثبيت الكباري. فمنسوب المياه يتغير في القناة أربع مرات في اليوم الواحد، ليصل الفارق بين أعلى وأقل جذر 60 سنتيمترًا في شمال القناة، و200 سنتيمتر في جنوبها. وقد تغلبنا على تلك المشكلة بدراستها لتحديد أنسب ساعة في اليوم للعبور، وبدأنا في تدريب قواتنا على إنشاء الكباري في أقل وقت ممكن، كي تتمكن الدبابات والأسلحة الثقيلة من العبور للضفة الشرقية لفتح ثغرات وممرات في الساتر الترابي، وكذلك دخول المدرعات والدبابات لعمق سيناء. كان التدريب يتم على ذلك في غرب الدلتا، ومن خلال التدريب اكتشفنا أن إحداث ثغرات في الساتر الترابي باستخدام نيران المدفعية والعبوات الناسفة، يستغرق وقتًا لا يناسب عملية العبور. فبدأ سلاح المهندسين في القوات المسلحة في إجراء التجارب على استخدام مضخات مياه ألمانية بعد إجراء تعديلات على طريقة عملها لتضخ 200 متر مكعب من المياه في الساعة. وكانت تلك هي الطريقة التي وقع اختيارنا عليها. فقمنا بشراء 150 مضخة ألمانية بالإضافة إلى ما كان لدينا وهو 350 مضخة بريطانية الصنع، وخصصنا خمس مضخات لكل ثغرة؛ إذ كان على القوات أن تفتح ما بين 75-85 ثغرة في الساتر الترابي في فترة لا تتجاوز خمس ساعات، لإزالة 1500 متر مكعب من الرمال.

ورأينا أنه في ذات الوقت الذي تبدأ فيه المضخات بعمل الثغرات، يكون عبور جنودنا من طلائع القوات من الصاعقة والمشاة، لتسلق الساتر الترابي،

بزاويـة حـادة تم قياسـها بدقة. حاملـين على ظهورهـم الصواريـخ المضادة للدبابات، والأسلحة الخاصة بهم.

الحقيقة أنه لم يكن لدينا ما يكفي من تلك الأسلحة، وكان الخوف الشديد على قواتنا ورجالنا الذين جازفوا بحياتهم في تلك اللحظة حيث أمطار النيران الإسرائيلية التي كانت تتربص بهم. ولكن كان عليهم مهمة تدمير المدرعات والدبابـات الإسرائيليـة التي أنشـأ لها العدو مرابض في أعلى السـاتر الترابي. وقد تدرب الرجال على العبور عشرات المرات في أحد المواقع بجنوب مصر؛ ولذا لم يكن من الصعب عليهم عبور القناة يوم 6 أكتوبر.

أما خـط بارليف فكان يتكون من 30 موقعًا حصينًا، تم تشـييدها بطول القناة من منطقة بورسـعيد حتى بور توفيق، وكانت مسـاحة كل موقع 500 مـتر × 500 مـتر، ويمثـل كل موقـع منها نقطة اسـتطلاع، إضافـة إلى كونها مركـزًا هندسـيًّا قويًّا، وهو ما منح العدو فرصة السـيطرة على قناة السـويس شـمالًا وجنوبًـا، لا مـن ناحية الضفـة الشرقية وحسـب، بل الضفـة الغربية أيضًـا. ودعـم هذا الخـط بخط ثان داخل سـيناء على مسـافة كيلومترات من الخط الأول، تحسبًا لأي محاولة ناجحة لقواتنا في عبور القناة.

كانت القناة هي نقطة الضعف الكبرى رغم التدريب عشرات المرات على العبـور في جنوب مصر، إذ إن العبور كان سـيتم باسـتخدام مراكب مطاطية بطيئة، تُعد أهدافًا سـهلة لمدافع العدو. بل إن إسرائيل أنشـأت خزانات نابالم أوصلتها بأنابيب في اتجاه الشاطئ الغربي للقناة، تشتعل أتوماتيكيًّا من داخل حصون خط بارليف في حال حدوث أي محاولة لعبور القناة.

لقد كنا موضع إشفاق كل من يزور الجبهة من الخبراء العسكريين أو المسئولين في الدول التي حافظنا على علاقتنا بها. كانوا يقولون عبارة واحدة: «إن عبور القناة مشكلة ليس لها حل، ولا يوجد لها حل، ولن يكون لها حل».. ولكن أثبت الرجال خير أجناد الأرض أن لا شيء يستحيل عليهم..

كان لدينا في جبهة القناة جيشان ميدانيان هما الجيش الثاني والثالث، يتضمنا خمس فرق مشاة في النسق الأول للقوات المسلحة، بالإضافة إلى قطاع بورسعيد العسكري، وخططنا لاقتحام القناة بالمواجهة وليس من الجوانب لعدم امتلاكنا العدد الكافي من طائرات الهليكوبتر التي تسمح بإنزال القوات كلها جوًّا، مع جعل الهجوم بطول خط المواجهة لتقليل ضربات طائرات العدو على قوات العبور. وكانت الخطة أن يعبر المشاة بأسلحتهم الخفيفة والأسلحة المضادة للمدرعات والدبابات ليشكلوا موجة العبور الأولى، وأن يصمدوا في وجه العدو لمدة 24 ساعة لحين الانتهاء من إنشاء الكبارى وتثبيتها لعبور الدبابات. لقد كان تثبيت الكوبري يستغرق ما بين 6 إلى 8 ساعات.

لا يمكنني هنا إغفال الحديث عن الهيئات والإدارات صلب تنظيم القوات المسلحة التي بذلت ما في وسعها لإزاحة العقبات الماثلة أمام القوات لإنجاح عملية العبور التي لم تكن بأي حال من الأحوال مصادفة، أو هدية من الحظ، ولكنها جاءت نتيجة للعمل الشاق، والإرادة المصرية التي أبت انكسار مصر. لقد عمل الرجال في القوات المسلحة على تذليل كافة الصعاب، ومنها تقليل زمن تثبيت وتركيب الكبارى على ضفتي القناة

لتتراوح بين 6-8 ساعات، بدلًا من 12-24 ساعة. كما أنشأنا مصاطب للدبابات على الساتر الترابي المصري على الضفة الغربية لمعاونة قوات المشاة ودعمها في حربها مع المدرعات والدبابات الإسرائيلية لحين عبور الدبابات المصرية. وكان مدى نيران الأسلحة والدبابات المصرية يصل لعمق 2.5 كيلومتر.

وقمنا بتصنيع عربات جر لحمل الذخيرة المضادة للدبابات خلف المشاة مباشرة نظرًا لاحتياجهم لها في الساعات الأولى للمعركة، كما تم تدريب القوات المصرية على القتال الليلي والنهاري وبأرقى مستويات التدريب. كان تركيزنا طيلة فترة الإعداد للحرب يرتكن على رفع الحالة المعنوية للجنود، وبناء جدار الثقة بينهم وبين قادتهم؛ ولذا قسمنا عملية العبور لتبدأ بقادة الفصائل والسرايا في الموجة الأولى، ثم قادة الكتائب بعد 15 دقيقة من بدء القتال، ثم قادة اللواءات بعد 45 دقيقة من بدء القتال، ثم قادة الفرق بعد 90 دقيقة. وكان إصرارنا على وجود القادة في أقسى أيام المعركة لرفع الروح المعنوية للجنود، وإشعارهم أن المعركة معركة وطن. وكانت هذه نقطة مؤثرة في مسار الحرب دعمتها صيحة «الله أكبر».

وقد ظن الكثيرون أن صيحة الله أكبر التي دوت في سماء المعركة، منطلقة من قلوب جنود مصر، قبل حناجرهم، كانت صيحة متفقًا عليها. ولكن حقيقة الأمر لم تكن كذلك. ففي العام 1970 اقترحت الشئون المعنوية جعل صيحة «الله أكبر» هي الهتاف الذي يردده الجنود أثناء التدريب بدلًا من صيحة «ها» المعتادة. ولكن وفي زحام الإعداد للحرب والغوص في التفاصيل نسينا

الأمـر. حتى كانت حـرب أكتوبر حينها بـدأ الجنود العبـور للضفة الشرقية، فانطلقـت الصيحـة مُدوية بعفوية تامة ودونها إعداد مسـبق. لقد كان الله عز وجـل حاضرًا في المعركـة في قلوب وأذهان الجنود. كانـوا يعلمون أنه معهم وهم يُدافعون عن الحق والوطن.

أتذكـر هنـا مقولة رددهـا رئيـس الأركان الإسرائيلي دافيـد إليعازر، بعد حرب أكتوبر حينها قال: «كانت أكبر مفاجأة لنا في هذه الحرب، كفاءة الجندي المصري.. وإصراره.. واستعداده للتضحية بروحه لتحقيق أهدافه».

▲ مُداعبة بين الرئيس السادات والمشير أحمد إسماعيل.

▲ المشير أحمد إسماعيل وسط قادة وجنود القوات المسلحة على الجبهة بعد أكتوبر 1973.

قبل العاصفة..

تلقيت صباح الخميس 4 أكتوبر، اتصالًا هاتفيًا من الرئيس السادات، أخبرني فيه باجتماعه مع السفير السوفيتي لدينا، في منزله بالجيزة، وإن السفير نقل له طلب الكرملين السماح بهبوط أربع طائرات نقل سوفيتية في مطار القاهرة صباح الجمعة 5 أكتوبر لنقل الخبراء والمدنيين السوفييت من العاملين في المصانع والقطاع المدني، والعودة بهم لبلادهم. وقال لي الرئيس إنه وافق على ذلك، وعلم من السفير أن سبب تلك الخطوة المفاجئة خشية موسكو من اندلاع حرب باتت وشيكة. وخشيت أن يثير سفر تلك الأعداد ريبة المترددين على المطار، وأن يثير الشكوك حول أسباب سفرهم. فاقترحت على الرئيس هبوط الطائرات في أحد المطارات العسكرية فوافقني الرأي.

كان الإعداد للمعركة ولساعة الحسم يجري على قدم وساق. وانتقل الرئيس السادات يومها إلى قصر الطاهرة، حيث كان قد تم إعداده من قبل القوات المسلحة بكافة تقنيات الاتصال، ليتمكن الرئيس السادات من متابعة

الموقف أثناء الحرب في حال تعرض شبكة الاتصالات لأية مشكلة قد تنجم عن الأعمال العسكرية. في ذات الوقت الذي كنت أحمل هم رحيل أكثر من ثمانمائة سوفيتي، خوفًا من أن يلفت هذا نظر قادة إسرائيل ويدفعهم للبحث وراء أسبابه؛ ولذا قلت للسفير السوفيتي حينما جاء للاتفاق على إجراءات رحيل مواطنيه؛ إن من حقه أن يفعل ما يشاء، ولكنني أرى الوقت غير مناسب للقيام بتلك الخطوة. فلم يجب سوى بالقول إن تلك إرادة القيادة في موسكو. وكان له ما أراد يوم الجمعة الخامس من أكتوبر.

كانت الأوامر قد صدرت بتدمير محطة المحولات الكهربائية الإسرائيلية الواقعة خلف جسر وادي العريش، وذلك لمنع إمداد معسكرات العدو في سيناء وثلاجات حفظ طعامه الضخمة وأجهزة التكييف في غرفة العمليات، بالطاقة الكهربائية إلى جانب تدمير مركز التنصت الذي أقامته إسرائيل في تلك المنطقة.. وكان السؤال المُلح كيف نفعل هذا؟ ولكن رجال المخابرات المصرية كانوا قد حددوا الوسيلة، وموعد التنفيذ الذي بدأ صباح الخميس 4 أكتوبر، ولذلك قصة لا بد من روايتها، حيث تعبر عن معدن المصري الأصيل واستعداده لبذل الغالي والرخيص من أجل وطنه. وما حدث أنه وفي يوم الخميس دخل رجل في الأربعين من عمره لصيدلية في شارع 23 يوليو بمدينة العريش المحتلة منذ عام 1967، وأعطى تذكرة الدواء للصيدلي محمود حمودة، الذي بدأ في قراءتها وكانت تحتوي على نوعين من الدواء، هما: 6 حقن ڤيتامين ب المركب و12 كبسولة مضاد حيوي كلورومايسين، ولكن كان هناك خطوط صغيرة تحت رقم 6، وحرف ب ورقم 12 في التذكرة. فأدرك الصيدلي أن تلك رسالة مُشفرة، سرعان ما فك رموزها وعرف المهمة

المكلـف بهـا. فمنـح الرجل الدواء، وسـارع لإغـلاق صيدليته، والإرسـال لبعض زملائه لتنفيذ مهمة تدمير محطة المحولات التي خططت لها المخابرات العامـة المصرية منذ أسـابيع معهم، وزودتهم بالمتفجرات والعبوات الناسـفة اللازمة لذلك.

ولهذا توجهت لمكتبي في صباح يوم الجمعة، الذي كان قد تم تحديده كيوم لتنفيذ تلك العملية في العريش وظللت في انتظار خبر نجاح العملية، وذلك لأهمية تدمير تلك المحطة قبل بدء الحرب.

وشـعرت بالارتياح مع ورود أخبار نجاح عملية التدمير، ولا أملك هنا سوى الانحناء لهؤلاء الأبطال الذين كتبوا بدمائهم بطولة جديدة لحماية أمن الوطن.

أثنـاء تواجـدي في مكتبـي يوم الجمعـة الخامس من أكتوبـر، دخل علـيَّ اللواء حسـن الجريدلي، وسـألني إن كان معي أمر موقع بالحرب والقتال من القائد الأعلى للقوات المسـلحة، فأجبته بالنفي. وأضفت: «يا حسـن الخطط جاهـزة، والريس يعرف كل التفاصيل، وأصدر التوجيه السـياسي في الأول من أكتوبر». فأجابني حسن بقوله إن الواجب علينا حفظًا للتاريخ، أن يكون معنا أمر مكتوب وموقع من القائد الأعلى للقوات المسـلحة، كوثيقة للتاريخ يتـم حفظهـا بالسـجلات الرسـمية. وهو مـا حـدث. فعندما جـاء الرئيس السـادات إلى مركز العمليات مساء الخامس من أكتوبر لمتابعة الاستعدادات النهائية للقوات، وقع على أمر القتال الذي كتب نصه اللواء حسـن الجريدلي وكان نصه:

توجيه اسـتراتيجي من رئيس الجمهورية والقائد الأعلى للقوات المسلحة إلى الفريـق أول أحمـد إسـماعيل عـلي وزيـر الحربيـة والقائـد العـام للقوات المسلحة..

1 – بنـاء على التوجيه السـياسي العسـكري الصادر لكم منـي في أول أكتوبر 1973، وبناءً على الظروف المحيطة بالموقف السـياسي والاستراتيجي:
قررت تكليف القوات المسلحة بتنفيذ المهام الاستراتيجية الآتية:
(ا) إزالة الجمود العسكري الحالي، بكسر وقف إطلاق النار اعتبارًا من يوم 6 أكتوبر 1973.
(ب) تكبيد العدو أكبر خسائر ممكنة في الأفراد والأسلحة والمعدات.
(جـ) العمل عـلى تحرير الأرض المحتلة على مراحل قتالية حسـب نمو وتطور إمكانيات وقدرات القوات المسلحة.

2 – تنفيذ هذه المهام بواسطة القوات المسلحة المصرية ـ منفردة أو بالتعاون ـ مع القوات المسلحة السورية..

وهكذا سـجل التاريخ وثيقة أمر بدء القتال والموقع من الرئيس السادات في 5 أكتوبر عام 1973 كنت أتابع الاستعدادات في اللحظات الأخيرة قبيل المعركة بقلق شديد وذلك لأسباب عديدة منها تسريبات الصحافة الإسرائيلية أن قـوات جيش الدفاع الإسرائيلي تراقب عن كثب كل ما يدور على الجانب المـصري من قناة السـويس، وتتخذ كافة الإجـراءات لتفادي هجوم مصري مفاجـئ. لقـد توقعـت أن تثـير تدريباتنا وتحركاتنـا على ضفة القناة شـكوك إسرائيـل، ولكـن كان الغـرور قد وصـل منتهاه بقيـادات العـدو الذي كان يرفـض تحليل البنتاجون لما يرد من أخبار عن الجبهة المصرية، واحتمال وقوع

هجوم وشيك، بل إنهم كانوا يتعاملون مع التحرك على الجبهة المصرية على أنه مجرد مناورة لإيمانهم أن المصريين لن يفعلوا شيئًا. في ذات الوقت الذي خشيت فيه أن يلفت رحيل الخبراء المدنيين السوفييت يوم 5 أكتوبر، أنظار إسرائيل ومحلليها، ولكنهم لم يسمعوا سوى أصوات عقولهم.

الغريب في الأمر، أن العدو حصل في يوم الخميس 4 أكتوبر على صور التقطتها طائرات الاستطلاع الأمريكية توضح اتخاذ قواتنا وضع الهجوم، وكذلك الأمر على الجبهة السورية التي كانت تتأهب لوضع هجومي بدفع المدفعية المتوسطة للأمام، ولكن رجال المخابرات الإسرائيلية تعالوا على تلك اللقطات ولم يروا فيها سوى مناورة عسكرية.

والحقيقة أننا كنا سَرَّبنا تلك المعلومات قبل أشهر من الحرب، مبررين ما نقوم به من مناورات عسكرية، برغبة الرئيس السادات في امتصاص غضب قوات الجيش من تأخر إعلان موعد بدء الحرب.

في صباح السادس من أكتوبر، وأثناء تواجدي في مكتبي، جاءني كل من اللواء محمد حسني مبارك، واللواء محمد علي فهمي، وكان هدف زيارتهما الاطمئنان على وضع القوات الجوية وقوات الدفاع الجوي، بعدها بدأت في الاتصال من داخل مركز العمليات (10) بكل القادة وقادة الجيوش الميدانية لأخذ تمام الاستعداد لتنفيذ عملية الهجوم من كل قائد، كان اللواء حسني مبارك قائد القوات الجوية، قد نبهني إلى أن سماء مصر لا يوجد بها طائرة واحدة، بعد إصدار الأوامر للطيارين بأخذ وضع الاستعداد لساعة الصفر. وخشي مبارك أن يثير اختفاء طائراتنا شكوك الإسرائيليين الذين اعتادوا رؤية طائراتنا بشكل يومي أثناء التدريب، فما كان من قائد القوات الجوية

إلا أن أصدر قراره لقادة بعض القواعد الجوية، بالسماح لعدد من الطائرات بالانطلاق والقيام بأعمال تدريبية معتادة على ارتفاعات يُسمح باكتشافها ليطمئن العدو بأننا نمارس نشاطنا التدريبي المعتاد.

قبيل الحرب بساعات، أخبرتني المخابرات الحربية أن جولدا مائير صدقت لرئيس الأركان الإسرائيلي على طلب منحه سلطة إعلان تعبئة القوات الاحتياطية في السابعة من صباح يوم السبت السادس من أكتوبر، وكان دافعه في ذلك ورود معلومات له بقرب وقوع هجوم مصري سوري وشيك.. والأكثر أن الجنرال داقيد اليعازر طلب من الحكومة الإسرائيلية - بناء على هذه المعلومات الواردة له - السماح له بشن هجوم إجهاضي ضد الجبهة المصرية والسورية، في الواحدة ظهر السادس من أكتوبر. أي قبل ساعة واحدة من بدء هجومنا، إلا أن حكومته رفضت طلبه!!

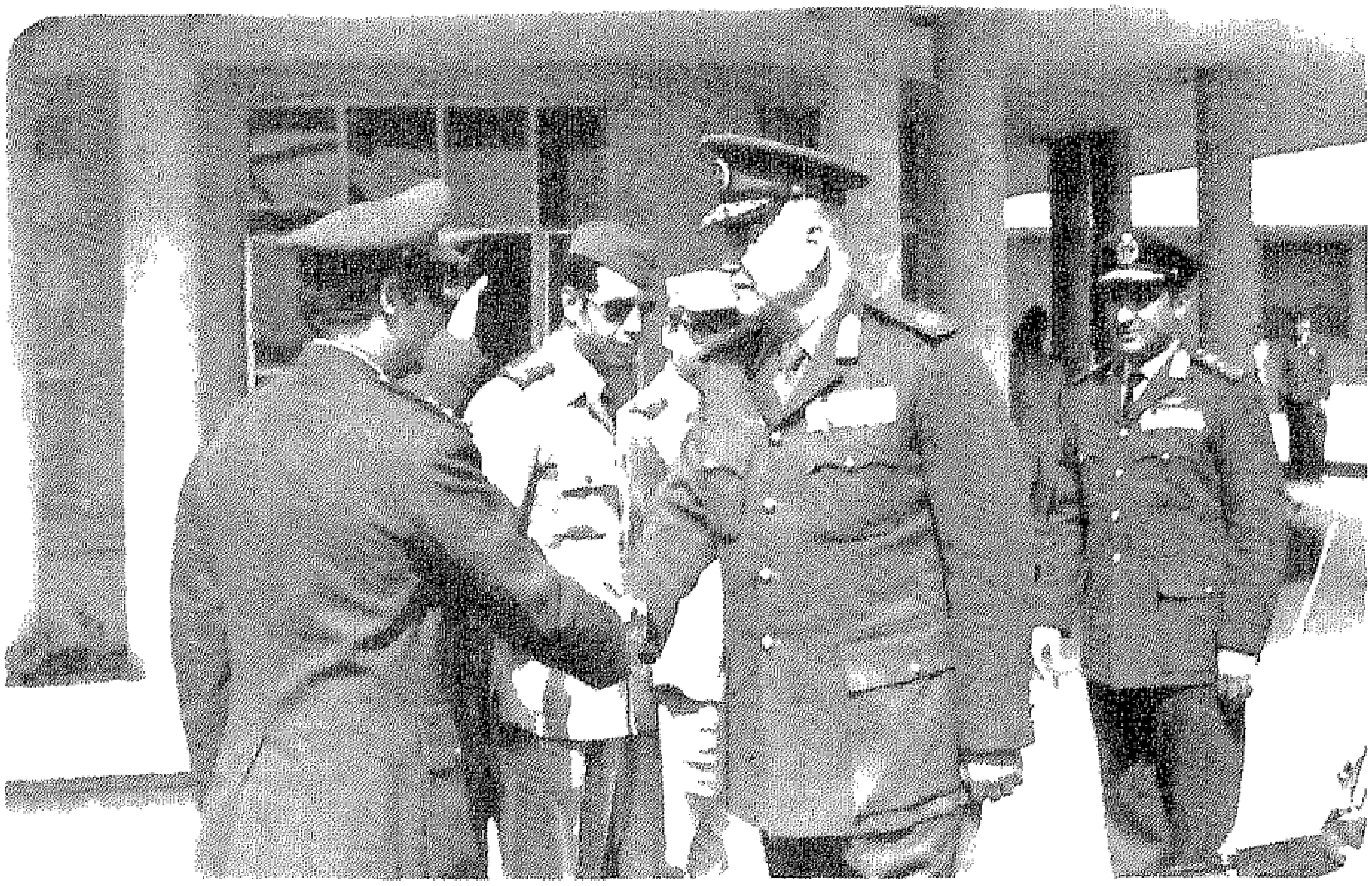

▲ المشير يصافح بعض قادة الجيش وخلفه قائد القوات الجوية اللواء محمد حسني مبارك.

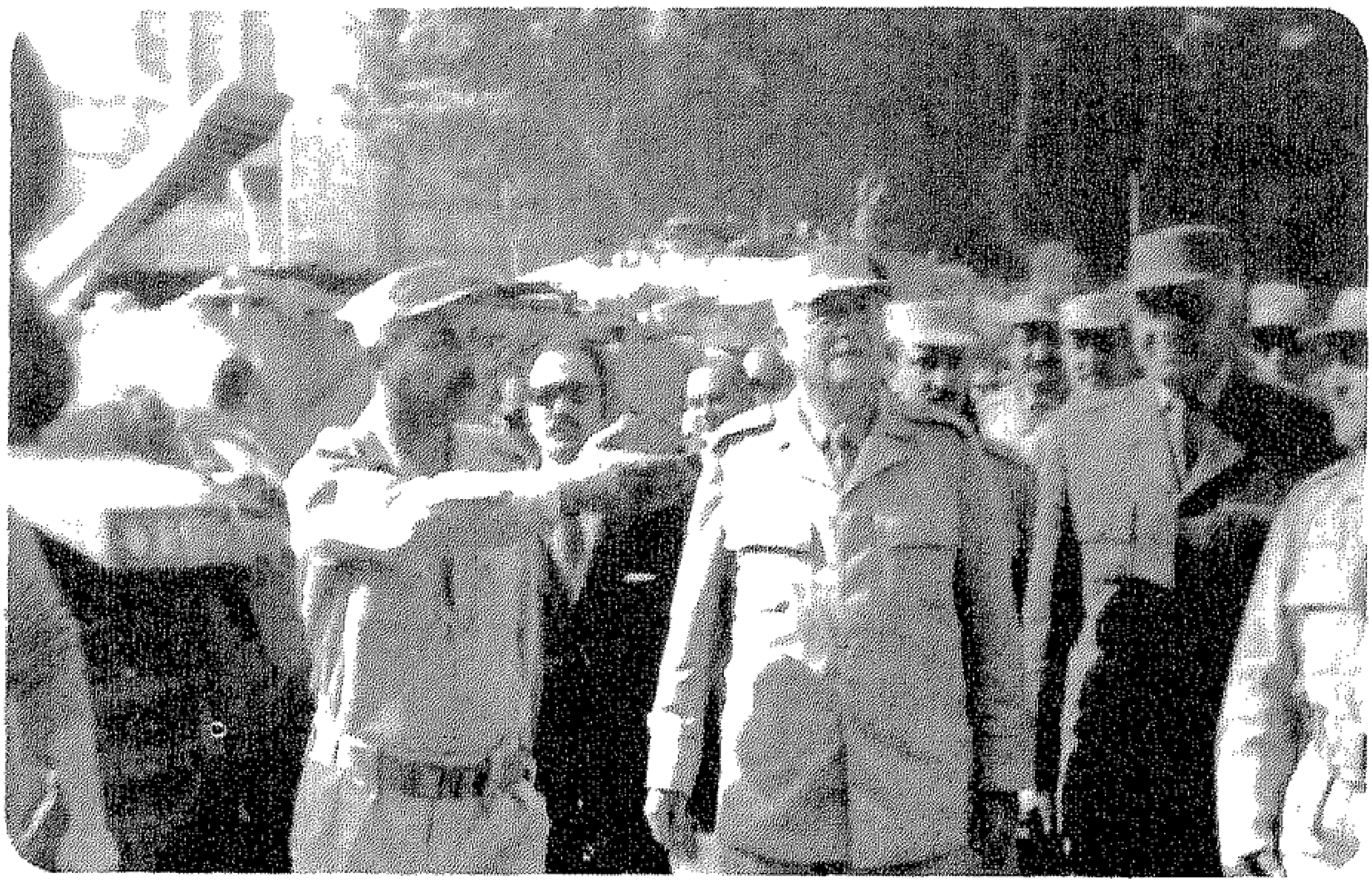

▲ المشير يتفقد معرض غنائم حرب أكتوبر 1973 وبجواره من اليمين اللواء ممدوح سالم.

حرب الكرامة

كان طبيعيًّا أن يكون أول هدف سياسي استراتيجي لأي عمليات للقوات المسلحة المصرية هو إثبات فشل نظرية الحدود الآمنة لإسرائيل، وأن هذه النظرية ما هي إلا وسيلة للتمسك بالأراضي المحتلة من قبل قادة الصهيونية. وعلى ضوء هذا الهدف، وصلنا إلى أن تحقيقه يتطلب من القوات المسلحة تحقيق عدد من الأهداف تتلخص في: هزيمة قوات العدو الإسرائيلي في سيناء والهضبة السورية، والاستيلاء على مناطق ذات أهمية استراتيجية تهيئ الظروف المناسبة لاستكمال تحرير الأراضي المحتلة بالقوة، لفرض الحل السياسي العادل للمشكلة.

وبناءً على هذا الهدف الواضح، كان على القيادة المصرية أن تخطط للقيام بعمليات هجومية استراتيجية مشتركة، تنفذ بالتعاون مع القوات المسلحة السورية وتقوم فيها مصر بالاقتحام المباشر لقناة السويس، وتدمير خط بارليف، والاستيلاء على «رءوس كباري» بعمق 10 - 15 كيلومترًا على

الضفة الشرقية للقناة، وتكبيد العدو أكبر خسائر ممكنة، وصد وتدمير هجمات العدو المضادة، وتطوير الهجوم شرقًا لتحقيق مهمة القوات المسلحة.

وقد تحقق هذا الهدف كاملًا. لقد ثبت لإسرائيل والعالم أن نظريتها في الحدود الآمنة باطلة. وبالتالي، انكشفت حجتها في الاستيلاء على الأراضي العربية بالقوة، وانكشفت رغبتها الحقيقية في التوسع والضم. وكما قال مؤلف أجنبي: إن إسرائيل انتصرت سنة 1967 من حدود غير آمنة، وهزمت سنة 1973 من حدود آمنة!

وبالنسبة لنا، لقد خرجنا من المعركة أحسن وأكفأ مما دخلنا، من حيث النوع والخبرة والمعنويات والتدريب، واستفدنا من خبرة حرب أكتوبر استفادة كاملة.

ولا شك أن المعركة القادمة، إذا قدر لنا أن نقوم بها، ستكون مختلفة تمامًا عن الحرب السابقة. ستكون بمفهوم جديد، وبتفكير جديد، وبتخطيط علمي جديد مدروس لكل الاحتمالات المقبلة بنفس روح أكتوبر العظيمة.

أما بالنسبة لعنصر المفاجأة، فإنني أعدكم أن نحصل عليه أيضًا مرة أخرى، فهناك وسائل شتى للحصول عليه، إذ إنه ليس نمطيًا. واستعدادنا، انتظارًا لأي حرب قادمة، يسير اليوم في مجالات متعددة، منها إعداد القوات بتدريبات جيدة، ورفع الكفاءة الفنية للمعدات، وتطوير قواتنا المسلحة بوجه عام. وأحب هنا أن أسجل أن كل ذلك يتم أيضًا على الجبهة السورية، وأن التنسيق كامل بين الجبهتين.

وأؤكد أننا في وضع أفضل بما لا يقاس. فلنا الآن اتصال بري مع العدو،

ولا يوجد بيننا وبينه مانع مائي، أو خط بارليف. ولا أعني بذلك أننا لا نحافظ على كلمتنا في فصل القوات وانتظار محادثات جنيف والاستعداد لها. وقد تختلف الوسائل والخطط، ولكن لكل مشكلة حلها. إننا نعرف سيناء شبرًا شبرًا، فهي أرضنا الحبيبة.

لابد هنا من التأكيد على دعم الجبهة الداخلية للقوات المسلحة في حربها لاستعادة الكرامة، فلأول مرة تم ما يسمى بإعداد الدولة للحرب، وكان الفضل في هذا للرئيس السادات. كان للتنسيق بين القوات المسلحة وأجهزة الدولة المعنية قبل المعركة بوقت طويل فيما يتعلق بإعداد الدولة للحرب، أثره الفعال عند إدارة العمليات الحربية. وعلى سبيل المثال، فقد تم الآتي: التنسيق مع أجهزة الإعلام ووزارة الخارجية فيما يتعلق بخطة الخداع الاستراتيجي التعبوي. التنسيق مع وزارة البترول فيما يتعلق بحجم الاحتياطي من البترول ومدة كفايته، ووضع الخطط البديلة لاستمرار إمدادات البترول الخارجية في حالة توقف المصادر المحلية. التنسيق مع وزارة التموين فيما يختص بالاحتياجات الإدارية اللازمة للقوات المسلحة. إنشاء مراكز القيادة اللازمة للوزارات المختلفة والتي تعمل منها أثناء إدارة العمليات الحربية، وربطها بجهاز القيادة العامة للقوات المسلحة. إلمام الوزارات المختلفة بأعمال العدو المحتملة وتصورات المعركة القادمة، ودراسة ردود الفعل المحتملة لدى أجهزة الدولة، مع دراسة أسلحة العدو وإمكانياتها ومدى تأثيرها على المنشآت الحيوية بلجان قامت بالمرور على الوزارات. علاوة على الجهود الذاتية الجبارة التي قامت بها الوزارات، كل في اختصاصها.

كانت إسرائيل قد وضعت في تقديرها السياسي الاستراتيجي، أنه من المستحيل على مصر أو مصر وسورية أن تشنا حربًا، معتمدة في ذلك على

تصورها أن جيشها فعلًا لا يقهر، وأنه ما من حاكم مصري يمكنه أن يتخذ قرار حرب في الوقت الذي يمكن أن يتعرض فيه عمق الدولة المصرية لضربات ردع قوية، وكانت أسيرة هذا التقدير في كل تصرفاتها. إلا أنه من الناحية السياسية، كان لسوء حظها أن وجد هذا الرئيس القائد الأعلى للقوات المسلحة الذي قرر الحرب واتخذ القرار.

أما من الناحية العسكرية، فكانت إسرائيل تبني استراتيجيتها على نظرية الأمن الإسرائيلية. وهذه النظرية كانت مبنية، في تصوري، على الأسس التالية: اعتمادها على مخابرات على درجة عالية من الكفاءة وكانت تعاونها المخابرات الأمريكية، حدود آمنة بعيدة عن قلب إسرائيل، والكثافة السكانية مع الاحتفاظ بخط قناة السويس ومرتفعات الجولان التي استولت عليها عام 1967، كفاءة عالية في تعبئة الاحتياط، وقد كانت إسرائيل تبني على هذه السرعة أسس تكوين جيشها من جعل القوة الصغرى هي القوة النظامية، والقوة الكبرى هي القوة الاحتياط، معتمدة في ذلك، كما قلت، على اطمئنانها التام أنه خلال 48 ساعة يمكن أن تعبئ قواتها المسلحة بالكامل. تفوق جوي وقوة ردع بالطيران بنوعيات طائراتها ومداها، وأن في هذه القوة الجوية من الضمانات التي تجعل كلًّا من مصر وسورية لا يمكن أن تفكر في شن أي هجوم عليها، ليس خوفًا فقط على إبادة قواتها المسلحة بل على عمق الدولة في كل من سورية ومصر. اعتماد مطلق على قواتها المدرعة وكفاءتها بالتعاون مع طيرانها القوي في شن ضربات عنيفة في الأرض الصحراوية المفتوحة ضد أي قوات يمكن أن تعبر قناة السويس. فما بالنا، في تصورهم، إذا اعتمدت هذه الضربات المضادة على خط بارليف الحصين المنشأ على أخطر وأمنع مانع مائي صناعي في التاريخ؟ اعتماد إسرائيل على أنه لا يمكن أن تشترك أي دولة

عربية مع الأخرى في أي حرب؛ لذا، كانت إسرائيل تضع في اعتبارها العمل ضد كل جبهة منفصلة. كما كانت إسرائيل تعتمد على أمرين آخرين، وهما اعتمادها دائمًا على دولة عظمى. وفي السنوات الأخيرة، كانت تعتمد اعتمادًا كليًّا على أمريكا، وهو ما ثبتت صحته في هذه الحرب، ثم تفضيلها الدائم لأن تكون الحرب قصيرة وخاطفة.

لذلك، فإن الخطوط الرئيسية لخطط إسرائيل كانت تبنى على أساس الاحتفاظ بخط قناة السويس الذي حصنته بقلاع بارليف وشرم الشيخ، التي تؤمن ملاحتها، والتمسك بمرتفعات الجولان السوري، واعتمادها الكامل على خطط التعبئة والتفوق الجوي والمدرعات.

وقد درسنا وحللنا هذا تمامًا، ووضعنا خططنا التي كانت تهدف أساسًا إلى التقليل من نقاط قوة العدو والاستفادة من نقط قوتنا، واستغلال نقط ضعف العدو والتقليل من نقط ضعفنا - طبقًا لإمكانياتنا المتاحة - وهذا التحليل العميق يوصلنا إلى النتائج الآتية:

أولًا: وضح تمامًا أن مخابراتها فشلت تمامًا في فهم كل ما تم قيامنا به من إجراءات خداعية على كافة المستويات، علاوة على كفاءتنا الحقيقية في تخطيط وتنفيذ خطط الخداع الاستراتيجي والتعبوي والتكتيكي وأدى هذا الفشل إلى تحقيقنا للمفاجأة، مما أدى إلى عدم إمكانية تنفيذ التعبئة في الوقت المناسب. ورغم أن إسرائيل قد أمرت بالتعبئة فعلًا يوم 5/ 10، فإن هذا القرار كان متأخرًا.

ثانيًا: كذلك لم تتمكن من القيام بالحرب الوقائية، بأن تكون البادئة بضربة إجهاض لتحضيراتنا، ولأول مرة أخذنا في يدنا زمام المبادأة.

ثالثًا: ثبت أن هناك أوجه قصور كثيرة في تنفيذ التعبئة، ولم تسر كما هو مخطط لها، رغم تصورهم أن نظام تعبئتهم من أفضل الأنظمة في العالم.

رابعًا: أما بالنسبة لتفوقه الجوي، واعتماده عليه كقوة ردع، فلقد فوجئ العدو بأنه أمكن لمصر أن تسقط طائراته بالعشرات كل يوم، حتى أنه خسر 75 طائرة في اليوم الأول للقتال معتمدين في مصر على خطة ذكية، وهي أنه يمكن تحييد القوات الجوية بإنشاء شبكة دفاع جوي متكاملة بالتعاون الكامل مع المقاتلات. ولم يأت ذلك جزافًا، بل جاء نتيجة دراسة عميقة وتجربة كبيرة في حرب الاستنزاف.

ولقد فوجئ العدو فعلًا بهذه النظرية الجديدة في الحرب ضد الطائرات، ولم يتصور أن مصر يمكنها أن تقوم بمثل هذا العمل.

أما عن استخدام قواته الجوية كقوة ردع في عمق الدولة، فإن تقديره كان خطأً، بدليل أنه لم يحاول ضرب العمق، لأنه كما قال السيد الرئيس «العمق بالعمق»، وكنا جاهزين للتنفيذ إذا أمرنا بذلك.

أما عن كفاءة قواته المدرعة، وقوله المأثور في إسرائيل كشعار (الفخر كل الفخر للمدرعات)، فإن ما حدث لمدرعات إسرائيل في هذه الحرب قد فاجأها، بل وفاجأ العالم كله، ولو أنني لا أنقص من قدر المدرعات مطلقًا، إلا أنه ثبت أن فرد المشاة الشجاع المسلح بالأسلحة المضادة للدبابات والصواريخ المضادة للدبابات، يمكن أن يقلب سيادة المدرعات رأسًا على عقب في مواقف معينة. فلقد فشل العدو، ولم يمكنه فرد المشاة الشجاع من استخدام قواته المدرعة في الآتي، على سبيل المثال:

لم يقم بالفتح التعبوي أو التكتيكي في الوقت المناسب، وبالتبعية لم يحتل

الســاتر الترابي الذي كان مجهـزًا به موقع لكل دبابة، بـين الواحدة والأخرى 150 مترًا، على مدى 175 كم بطول قناة الســويس. هاجمت قواتنا المســلحة على مواجهة تقدر بـ 175 كم، وأجبرناه على تشـتيت جهود مدرعاته في كل اتجاه وبأعداد قليلة، مما سهل تدميرها جزءًا جزءًا.

لم يسـتوعب درس قتـال اليـوم الأول أو الثـاني بسرعـة كافيـة من ذهـول المفاجـأة، ممـا جعله مسـتمرًّا في قيامه بهجـمات مضادة بالشـكل النمطي، مما أدخله في نطاق ما أطلق على أسـلوبنا المبتكر هذا بمفرمة اللحم، وهو تدمير جميـع دباباته في هجماتـه المضادة المتكررة. أما فيما يختـص باعتماده على حرب قصيرة، فلأول مرة تعتبر حربنا - نسبيًّا - ليست بحرب قصيرة، وتكبد فيها خسائر فادحة على الجبهتين المصرية والسورية.

وأصل إلى قمة فشــله في هذه المعركة، والتي أجلت الحديث فيها إلى آخر الحديـث، وهو ما أظنكم توافقونـي، والعالم كله يوافقنـي، أن نظرية الأمن الإسرائيلية ثبت فشـلها. فلا احتفاظه بشرم الشـيخ منعنا مـن إقفال الملاحة الإسرائيليـة في باب المندب، ولا احتلالـه للمانع المائي بحصون خط بارليف منعنا من اقتحامه والاستيلاء عليه. لقد نجحت إسرائيل في شيء واحد، هو اعتمادها على دولة عظمى. نعم.

وأعتقد أنه لولا التدخل الأمريكي لأصيبت إسرائيل بهزيمة نهائية.

نعم. درست القوات المسلحة نفسية وسمات الجنود الإسرائيليين الأسرى في حرب أكتوبر سنة 1973.

وخرجت باستنتاجات كثيرة، منها، على سبيل المثال وليس الحصر:

معظم جنود الرتب الصغيرة من اليهود الشرقيين (85 ٪)، والرتب الكبيرة مقصورة على الغربيين.

معظمهم يقع تحت أوهام الدعاية الإسرائيلية الداخلية. مثلًا، يصورون لهم مشكلة فلسطين، بأنه حدث تبادل بشري بين الدول العربية وإسرائيل، ولا يوجد يهود في مصر، بل إن مصر شردتهم وحطمت معابدهم.

وعندما زار عساف ياغوري أسرًا مصرية يهودية في الزمالك والمعبد اليهودي، فإنه قال بالحرف الواحد: لقد وقعنا تحت وهم المؤسسة العسكرية في إسرائيل لأكثر من 20 عامًا.

معظم القادة والجنود من الاحتياط (4 من خمسة)، ويكرهون الحرب، ويفضلون وظائفهم المدنية عليها. مثلًا، عساف ياغوري يعمل مدير فندق في ناتانيا، ولما زار بعض فنادق مصر (شبرد، سميراميس، مينا هاوس، إلخ)، قال: هذه الفنادق لا تقارن بفنادق إسرائيل ولكن تقارن بفنادق أوروبا!

جعلنا، بعد ذلك، كل أصحاب مهنة يزورون المصانع والمؤسسات التي تماثل مهنهم. الأطباء يزورون المستشفيات ومعامل الأدوية، المهندسون يزورون مصانع الحديد والصلب وغيرها. وقالوا إنهم فوجئوا (على خلاف الدعاية الداخلية عندهم عن مصر)، بمدى هذا التقدم.

أتذكر حوارًا باسمًا دار بين الرئيس السادات وبيني قبل الحرب بأيام قال لي فيها وهو يتصنع الجدية: هي الحرب يوم إيه؟ فقلت: يوم السبت. فقال السادات: والنهارده إيه؟

قلت: الثلاثاء. فقال السادات مازحًا: أنا خايف يوم السبت الجاي تكون جثتك متعلقة في ميدان التحرير وأنا موافق من أجل مصر......

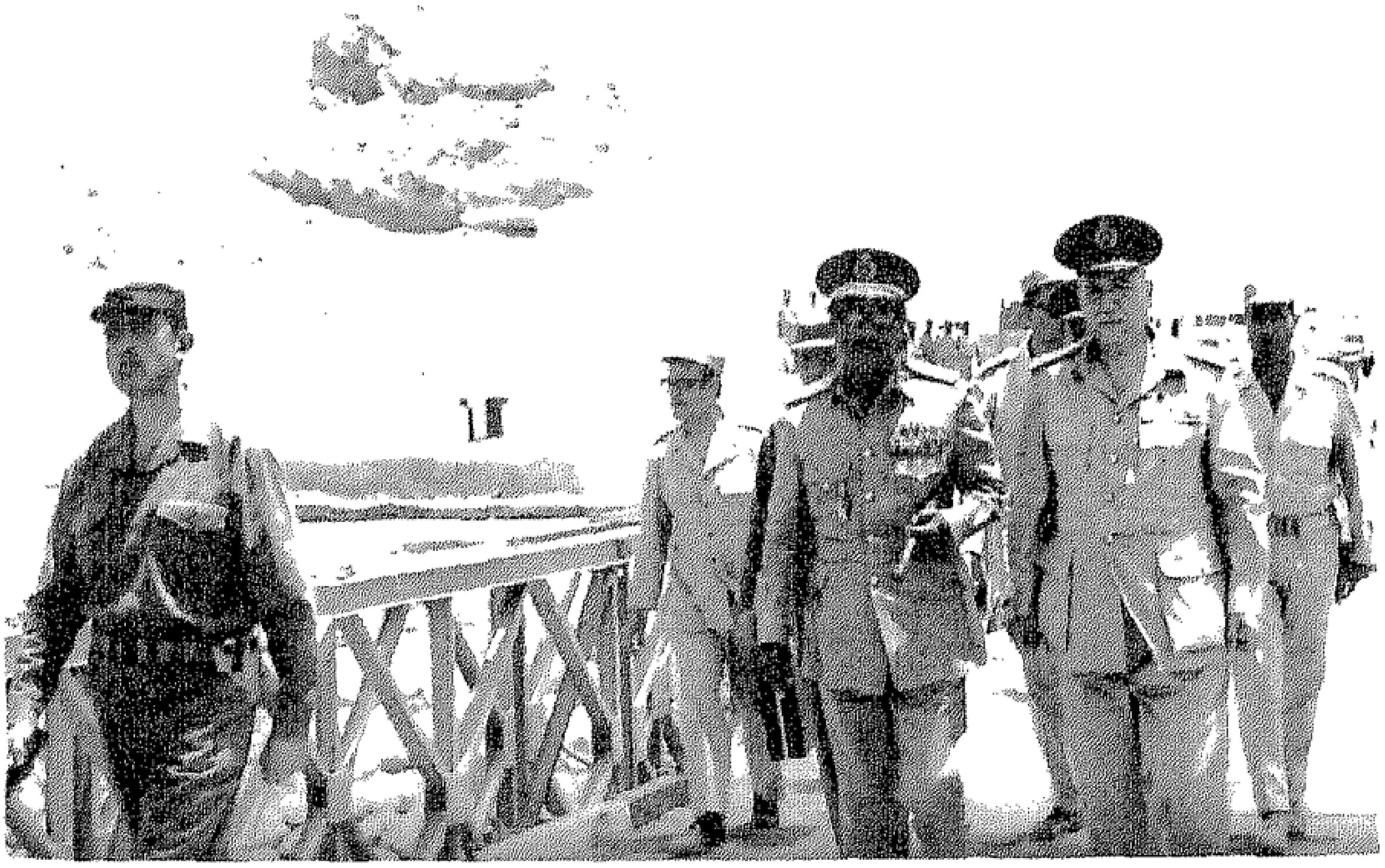

▲ السادات وأحمد إسماعيل على أحد المعابر بعد حرب أكتوبر 1973.

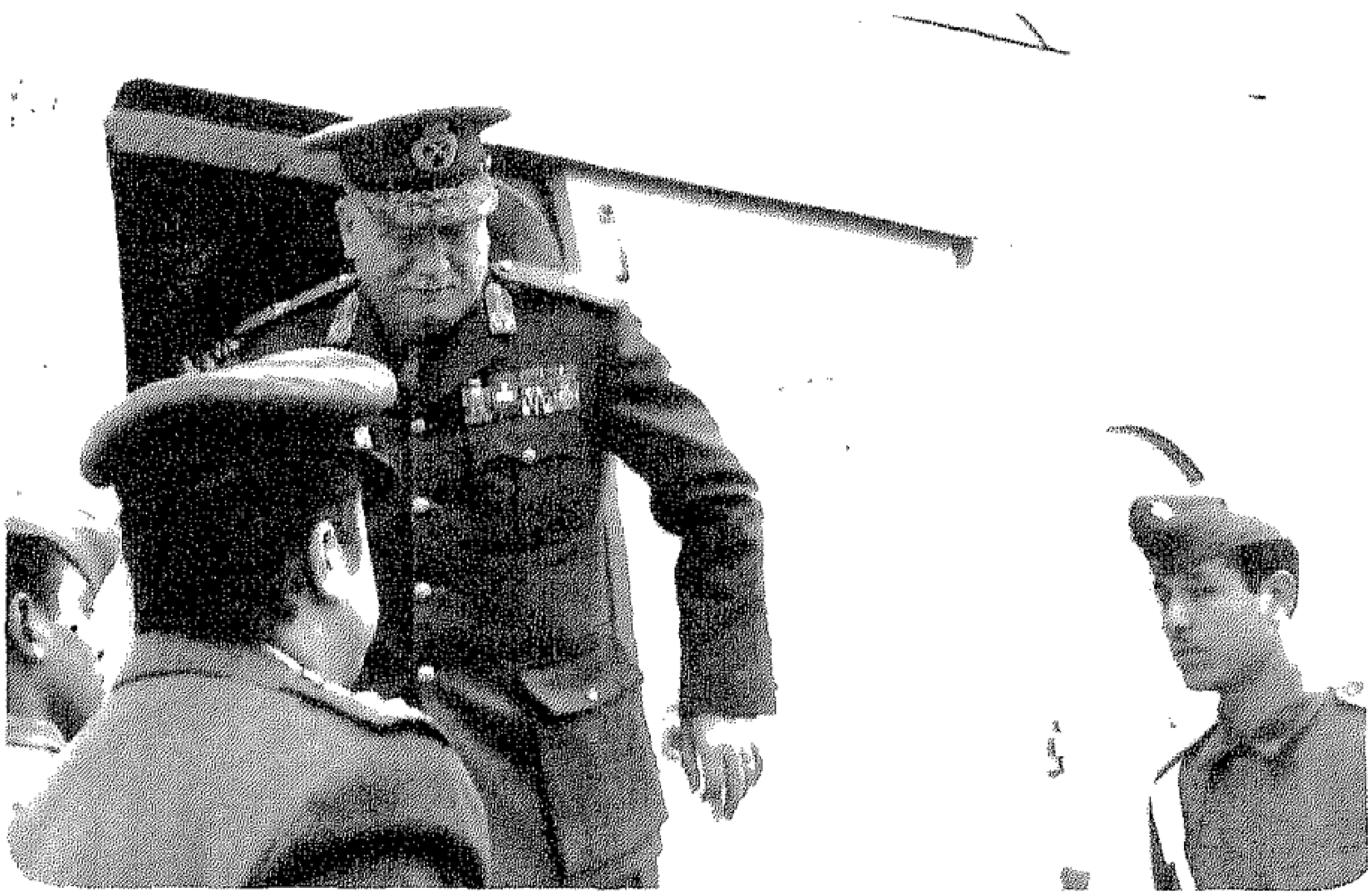

▲ المشير هابطًا من طائرته لتفقد القوات بعد حرب أكتوبر 1973.

حقيقة الثغرة

أود، أولًا، أن أذكر بتسلسل الأحداث منذ بداية حرب أكتوبر بشكل مختصر جدًّا، ولكنني أجده لازمًا قبل أن أشرح بعض التفاصيل عن جيب الدفرسوار والخطط التي كانت موضوعة لتدميره.

نذكر أن الجيشين الثاني والثالث على مواجهة 175 كم، تمكنا من اقتحام قناة السويس، والاستيلاء على خط بارليف بالكامل، وإنشاء خمسة «رءوس كباري» بخمس فرق. ثم وحدت الجيوش رءوس كباري الفرق في رأس كوبري لكل جيش، وصدت جميع هجمات العدو المضادة وبلا استثناء، وكبدته خسائر جسيمة.

وبعد أن حققنا أهداف هذه المرحلة، وهي الاستيلاء على خط بارليف وإحداث أكبر خسائر للعدو في قوته البشرية وأسلحته ومعداته، وبالنسبة لظروف القتال في سورية في ذلك الوقت، وجد من المناسب الضغط شرقًا

على طول المواجهة لجذب احتياطي العدو، سواء طيرانه أو مدرعاته، من جبهة سورية تجاه الجبهة المصرية واكتساب مزيد من الأرض.

وفعلًا، تم خلال يوم 14 أكتوبر 1973 هذا التطوير الذي وإن لم يحقق أهدافه كاملة إلا أنه حقق الأهداف الرئيسية منه، وهي:

- تخفيف الضغط على سورية لسحب طيران العدو ومدرعاته من الجبهة السورية تجاه الجبهة المصرية.

- إحداث خسائر فادحة للعدو، وبصفة خاصة في مدرعاته، في معارك كبرى اشتركت فيها من الجانبين أكثر من 1500 مدرعة.

- اكتسابنا مزيدًا من الأرض، ولكن، في الواقع، ليس كل المنطقة التي كنا قد خططنا لها.

وبسحب العدو لطيرانه ومدرعاته من جبهة سورية وجد العدو أن الحل الأنسب له التركيز بكل قواته وفي اتجاه واحد لإحداث أي اختراق في مواجهتنا والعبور إلى الغرب تحت ستار وقف إطلاق النار المتوقع في ذلك الحين في أي وقت، والذي كانت القوى الكبرى تحاول بكل ثقلها تنفيذه، وخصوصًا أن الولايات المتحدة بدأت ترسل دعمها يوم 9، وبدأت آثار الدعم تظهر في خط القتال من يوم 11.

وقام العدو، ليلة 15/ 16 أكتوبر، بعد هجوم مركز على الجانب الأيسر للفرقة 16 من الجيش الثاني، باستغلال هذا الهجوم، وعبر في منطقة الدفرسوار بقوة من المظلات وسبع دبابات زادت إلى 30 دبابة، مستغلًا طبيعة الأرض من المناطق المزروعة والمباني المهدمة في اختفاء دباباته والقتال

في الدفرسوار. ثم دارت معارك طاحنة شرق وغرب الدفرسوار بين قواتنا وقوات العدو، وتكبد فيها الطرفان خسائر كبيرة إلا أن خسائر إسرائيل، باعترافهم واعتراف أمريكا في هذه المنطقة، كانت من الفداحة حتى إن إسرائيل قررت وقف هذه العملية في مرحلة معينة.

ولا أفشي لك سرًّا إن قلت إن هذه الثغرة كدنا نقفلها تمامًا في المراحل الأولى لها بواسطة قواتنا.

وفي الوقت نفسه، فشلت هجمات العدو المضادة تمامًا على طول مواجهة الجيشين في الشرق بقصد فتح ثغرات أخرى في أماكن أخرى، وفشلت في جميع الأماكن عدا الدفرسوار.

وأريد أن أنوه هنا أنه بنهاية يوم 22 أكتوبر 1973، وعند تنفيذ قرار مجلس الأمن رقم 338 بوقف إطلاق النار، كان جيب العدو غرب القناة لا يزيد في حجمه عن نصف رأس كوبري واحد لإحدى فرقنا الخمس شرق القناة، وأنه استنفد ستة أيام من القتال الرهيب، استخدمنا فيه كل قواتنا الجوية وكل أنواع الصواريخ والمدفعية.

ثم استمر العدو، وتحت ستار وقف إطلاق النار، في التوسع جنوبًا ليحول مغامرته المحفوفة بالخطر إلى وضع أكثر أمنًا لقواته. وفي الوقت نفسه، كان يريد قطع خطوط إمداد فرقتين من الجيش الثالث موجودتين شرق القناة، وذلك للمساومة بهذا الوضع، واضعًا في اعتباره أن الذي يؤمنه، أولًا وأخيرًا، هو قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار وليس قوته من الناحية

العسكرية، حيث كان وضعه حرجًا للغاية غرب القناة، خصوصًا بعد فشله في اقتحام مدينة السويس الباسلة.

لقد وجد العدو أن موقفه في الغرب حرج وضعيف؛ لذلك دعم قواته في الجيب حتى وصل حجم قواته في النهاية إلى 7 لواءات، تشمل حوالي 550 دبابة.

وكان تنظيمه لقواته يبين تمامًا أنه كان في وضع الدفاع لا الهجوم. كما رص أمامه 750 ألف لغم رفعناها بعد ذلك، وهي في حوزتنا سليمة الآن. ومن هذا يمكن أن تقدر مدى قلقه.

أما بالنسبة لقواتنا، فقد تم احتواء العدو بالكامل، وأحيط بالقوات من كل جانب ومن كافة الاتجاهات، عدا ممر ضيق جدًّا في الدفرسوار بعرض 6 كيلومترات.

وفي الواقع أن وقف إطلاق النار الفعلي كان في الساعة 11 ظهر يوم 28/ 10/ 1973 - وأصدرت أوامري ببدء حرب استنزاف جديدة اعتبارًا من يوم 31/ 10/ 73، أي بعد يومين من وقف إطلاق النار. ولك أن تسأل نفسك: لو أننا كنا في موقف الضعف، هل كان ممكنًا أن أصدر هذا الأمر بعد يومين من وقف إطلاق النار بكل احتمالاته؟

لقد كانت حرب استنزاف غير معلنة من جانبنا، اكتفاءً بما كانت تعلنه بلاغات العدو وتقارير الأمم المتحدة.

وكانت أهداف حرب الاستنزاف غير المعلنة هذه هي:

- إحداث أكبر خسائر في العدو في قواته البشرية ومعداته وأسلحته، وأن

يصبح وضعه في الجيب غير محتمل مع استمراره في تعبئة الاحتياطي، وهو ما لا يمكن للعدو أن يتحمله مدة طويلة.

- عدم تمكينه من تثبيت أقدامه بتدمير تجهيزاته الهندسية ومعداته التي تظهر في المنطقة.

- اكتساب مزيد من الأرض شرقًا وغربًا.

ويمكن أن يوضح البيان التالي مدى نشاط قواتنا المسلحة في الفترة من 31/ 10/ 1973 إلى 18/ 1/ 1974، أي يوم توقيع اتفاقية فصل القوات.

لقد نفذنا، طبقًا لبيانات العدو، 439 عملية، منها 93 في شهر نوفمبر 73، 213 في شهر ديسمبر 73، 133 في شهر يناير 1974.

كما أسفرت هذه العمليات، طبقًا لبلاغات هيئة الرقابة الدولية وبلاغات القوات الإسرائيلية نفسها، عن الخسائر الآتية في العدو: 11 طائرة. 41 دبابة ومدرعة. 10 رشاشات ثقيلة. 36 «بلدوزر» ومعدة هندسية ومركبة. إصابة ناقلة البترول (سيرينا) الإسرائيلية. إغراق زورق إنزال بحري. قتل 187 فردًا للعدو.

علاوة على عدد الجرحى والذي يمكن تقديره بأضعاف خسائره في الأرواح. وللقارئ أن يستنتج أن الخسائر أضعاف ذلك بكثير، إذا كانت هذه بيانات العدو.

كما أؤكد لك، وقبل أن أدخل في شرح التخطيط لعملية تصفية الجيب، أن الفرقتين 7 و19 مشاة من الجيش الثالث (قوات بدر) الموجودتين شرق

القناة ومدينة السويس، كان لديهما كل احتياجاتهما من الذخيرة والوقود والمياه والتعيينات التي تسمح لهما ليس بالصمود فقط بل بالاشتراك في الهجوم الذي كان مرسومًا. كما استمر إمداد هاتين الفرقتين بشتى الوسائل حتى قبل إشراف الأمم المتحدة على هذا الإمداد.

- أما عن التخطيط لتدمير العدو في هذا الجيب، فأود أن أوضح أولًا أن نقط ضعف الجيب كانت أساسًا: عنقه الضيق (6 كيلومترات فقط) وحجمه الذي يشبه «القنينة» بحيث يمكن تقطيعه، وأنه كان بعيدًا جدًّا عن خطوط تموينه وإمداداته. وأن قواتنا القريبة من تموينها وإمدادها كانت تفوقها عددًا وعدة وتحيط بها من كل جانب. ولقد بدأ وضع خطة تصفية الجيب يوم 29/ 10/ 1973، أي بعد وقف إطلاق النار بأقل من 24 ساعة، وبعد أن تم احتواء العدو بالكامل ومن كل جانب. وجدير بالذكر هنا أن القوات التي احتوت الجيب، من يوم 16 أكتوبر حتى وقف إطلاق النار، كانت ضخمة، وأن العدو لم يتصور أن لدينا هذه القوات، فأذاع أننا دفعنا بالجيش الأول من القاهرة إلى الجبهة. وكان تقديري ضرورة تعيين قيادة واحدة وقائد واحد لتدمير هذا الجيب بالكامل، وعينت قائدًا واحدًا هو اللواء سعد مأمون، مساعد وزير الحربية حاليًّا والذي كان قائدًا للجيش الثاني في معارك أكتوبر. وقد عرضت على السيد الرئيس السادات، القائد الأعلى للقوات المسلحة، الخطة، وصدق عليها سيادته في اجتماع للمجلس الأعلى للقوات المسلحة بالقناطر يوم 24/ 12/ 1973.

وقد خصص لتنفيذ هذه العملية 5 فرق، منها فرقتان مدرعتان، و3 فرق ميكانيكية، علاوة على احتياطي القيادة العامة.

وفي الوقت نفسه يتم تصفية الجيب بتقسيمه إلى جيوب فرعية، وتدميرها جـزءًا جزءًا، وذلك بخمس فـرق مدرعة وميكانيكية في خمسـة اتجاهات كما هـو واضح. أما القوات الجوية وقوات الدفاع الجـوي والبحرية والصاعقة والمظلات، فكانت سـتدعم أعمال القوات البرية بخطة نسـقت تنسـيقًا بالغ الدقة.

ومـن الطبيعـي أن خطـة تدمـير الجيـب غـرب القنـاة كانت لـن تكتفي بالعمليـات غـرب القناة بل كانت قواتنا شرق القناة، وهي خمس فرق مشـاة مدعمة، ستشترك في عمليات هجومية ليس من الصالح العام ذكرها الآن.

هكـذا نـرى أن القتـال لم يهـدأ لحظة واحدة، واسـتمر بعـد وقف إطلاق النـار، حتى توقيع اتفاقية الفصـل بين القوات. وأنه تـم التخطيط والإعداد في صمـت وسرية للقضاء على الجيب غرب القناة، وتم التنسـيق الكامل بين مختلف الأسلحة وتنظيم التعاون بين الأفرع الرئيسية والقوات البرية طبقًا لما أسـفرت عنه خبرة القتال المكتسـبة من حرب أكتوبر، مسـتغلين نقط ضعف العدو في هذا الجيب أفضل اسـتغلال. وهذا ما أجبر العدو على الانسـحاب لتأكـده من أن الموقـف ليس في صالحه، وإلا ما كان لينسـحب ويترك موقعه على الضفة الغربية مطلقًا.

▲ من اليمين المشير أحمد إسماعيل واللواء الجمسي، والعقيد أبو غزالة.

▲ المشير أحمد إسماعيل مع الرئيس السادات بعد حرب أكتوبر.

▲ حوار بين المشير أحمد إسماعيل واللواء عبدالمنعم واصل وفي المنتصف اللواء حسن الجريدلي.

▲ المشير أحمد إسماعيل واللواء عبدالمنعم واصل.

لم يشرب العرب بترولهم!!!

لم يظن قادة إسرائيل، ودول الغرب المؤيدة لهم في إمكانية نجاح مصر والعالم العربي في فرض حصار بترولي عليهم. لعل الخبرة الفاشلة في حربي 1956، و1967 كانت مبررهم الذي يسوقونه لأنفسهم وشعوبهم في استحالة نجاح العرب في تطبيق الحظر البترولي. ولكن ما حدث أننا نجحنا في حصار الغرب بتروليًّا، فكان البترول سلاحًا مؤثرًا في حرب أكتوبر 1973، ولم نشعر به كما قالت جولدا مائير رئيسة الوزراء الإسرائيلية في تلك الفترة، التي كانت تردد للمتخوفين من قادتها وسياسييها، من لجوء العرب لهذا السلاح في الحرب، قولها: «لن يفعلوا شيئًا، لن يستطيعوا وقف تصديره، إنهم إن فعلوا هذا، فسوف يشربون بترولهم!!».

لقد سبق الإعداد للحرب عدد من الجلسات التي ضمت الرئيس السادات بالعاهل السعودي الملك فيصل، للتباحث حول جدوى استخدام البترول كوسيلة لتحقيق مكاسب سياسية في حرب أكتوبر. وكان الاتفاق

على ضرورة توخي الحذر في فرض تلك الرؤية خوفًا على المنطقة والبلاد العربية من رد الفعل الدولي على هذا القرار. فكان هناك تلويح بإمكانية استخدام الحظر البترولي دون التصريح إلى أي مدى سيكون. وقد اتصل بي الرئيس السادات مساء يوم 16 أكتوبر وطلب مني إعداد طائرة عسكرية تقل وزير البترول المهندس أحمد عز الدين هلال إلى المملكة العربية السعودية، ومنها للكويت لحضور مؤتمر عاجل لمنظمة «أوابك» ـ منظمة الدول العربية المصدرة للبترول ـ ثم تم تعديل أسلوب السفر للوزير المصري الذي تقرر أن يسافر مع وزير البترول السعودي الشيخ أحمد زكي اليماني على متن الطائرة السعودية.

وفي ذلك الاجتماع عرض وزير البترول المصري رؤية الرئيس السادات والملك فيصل، ولخصها في خمس نقاط. وهي:

1 – أن يصدر قرار المؤتمر بالإجماع حتى لا تتمكن أية دولة مستوردة للبترول العربي من إيجاد ثغرة تنجح في النفاذ من خلالها.

2 – إصدار هذه القرارات بذكاء ومرونة لتحقق النتائج المرجوة منها، وشرط ألا تتعرض اقتصاديات الدول العربية المنتجة للبترول لأية أخطار.

3 – التأكيد على أن هدف العرب من هذا القرار هو تشجيع الدول الصناعية «أوروبا ـ اليابان»، بالضغط المؤثر على الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل للاستجابة لمطالب العرب العادلة، وتحييد بقية دول العالم.

4 – أن يتسم القرار العربي الصادر عن المؤتمر بدرجة عالية من دقة التنفيذ،

وقابليته للتطوير وفقًا لتطور الأحداث المؤثرة على مسرح العمليات العسكرية.

5 - ألا يؤثر القرار على الدول الصديقة.

وقد شاب المؤتمر عرض رؤى متشددة كما حدث عندما عرض وزير البترول الليبي وجهة نظر القذافي الذي كان يرى تأميم مصالح الدول التي تقدم مساعدات للكيان الصهيوني، والوقف التام والكامل لشحنات البترول العربي لهذه الدول، وسحب رءوس الأموال العربية المودعة في بنوك الدول المؤيدة لإسرائيل. وهو الأمر الذي أيدته سوريا ولكنها اقترحت تخفيض الإنتاج العربي من البترول بنسبة 50 ٪ فورًا، وهو ما تحفظت عليه السعودية لأنه لن يُمكنها من تقديم الدعم المادي لمصر وسوريا والأردن. مؤكدًا أنه لا يمكنها تأميم شركة أرامكو لعدم امتلاكها الخبرات والكوادر التي يمكنها إدارتها. وتبنت السعودية ومصر ثلاث نقاط تبدأ بتوجيه إنذار لواشنطن مصحوبًا بتحديد فترة معينة لنهايته يتم بعدها خفض الإنتاج البترولي بنسبة 5 ٪ لفترة محددة يتم الاتفاق عليها. وأخيرًا زيادة نسبة الخفض إلى 10 ٪ في حال عدم حدوث استجابة للمطالب العربية.

كانت المعارك مستمرة بضراوة على الجبهتين المصرية والسورية، وتم الاتفاق في المؤتمر على تطبيق الرؤية المصرية السعودية، مع منح ليبيا وسوريا الحق في تحديد نسبة التخفيض الذي تراه كل منهما شريطة الالتزام بقرار دول المنظمة بإجراء خفض فوري قدره 5 ٪، على أن تستمر هذه النسبة شهريًا ويكون الحد الأدنى لخفض الإنتاج هو 5 ٪. ووقع الجميع ما عدا العراق

الذي رفض التوقيع على الإعلان الختامي الصادر يوم 17 أكتوبر بعد أن خشي فقْد عائدات البترول، وقام بفرض حظر على إمدادات البترول الخاص بأمريكا وهولندا، وأمم مصالح الدولتين البترولية على أرضه.

بدأ تطبيق القرارات الصادرة عن قمة «أوابك» يوم 22 أكتوبر، وتم وقف صادرات البترول الخام للولايات المتحدة الأمريكية لتزويدها إسرائيل بجسر جوي من السلاح العسكري، وهولندا التي أعلنت دعمها لموقف إسرائيل. كما تم وقف شحنات البترول لمصانع التكرير خارج الولايات المتحدة، والمسئولة عن تزويد سفن الأسطول السادس الأمريكي.

كان طبيعيًّا أن يستشعر العالم أثر القرار بعد وصول نسبة الخفض إلى 20 ٪، كما كان طبيعيًّا أن ترتفع أسعار البترول في البداية بنسبة 70 ٪، لتصل بعدها إلى 300 ٪. فسارعت الولايات المتحدة لممارسة ضغوطها على الدول العربية وبخاصة المملكة العربية السعودية التي أصر عائلها على موقفه حتى إعلان إسرائيل جلاءها عن الأراضي العربية المحتلة. لم تتراجع الدول العربية وأثبتوا قدرتهم على التأثير بوحدة قرارهم، وتفاقم الأمر في الخامس من نوفمبر عام 1973 حينما عاد وزراء البترول العرب للاجتماع مرة أخرى، وأعلنوا قرارهم برفع نسبة الخفض إلى 25 ٪ مرة واحدة. ورغم ذلك لم تتأثر موارد النفط في البلاد العربية؛ حيث ارتفع سعر برميل البترول من 3 دولارات إلى 12 دولارًا، وصاحب ذلك ارتفاع في أسعار الريال والدينار واهتزت أسعار الدولار والإسترليني والليرة الإسرائيلية، ولم يشرب العرب بترولهم.

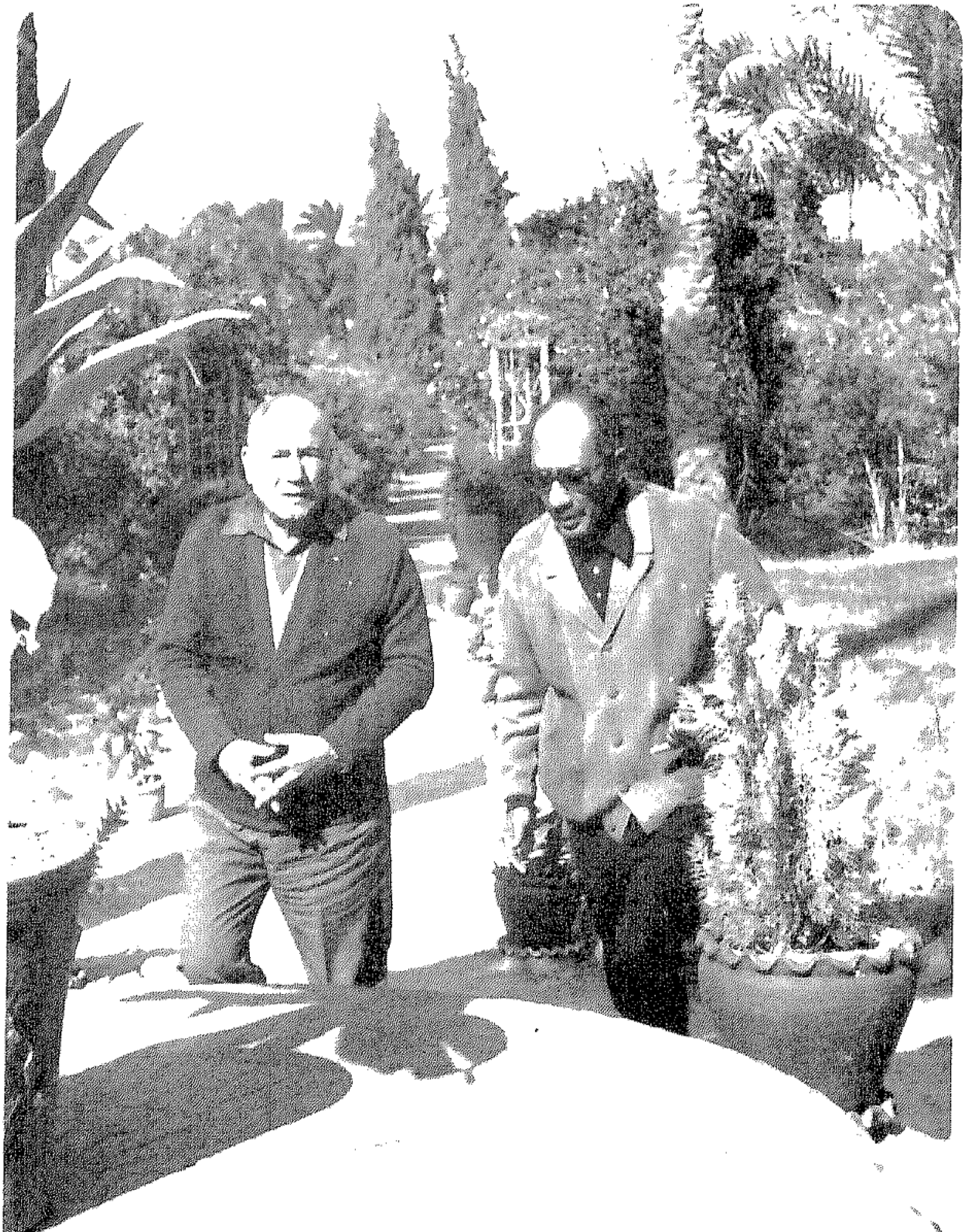

▲ تخطيط متواصل ومشاورات لا تتوقف بين الرئيس والمشير قبل أكتوبر 1973.

خاتمة

أختتم هذه المذكرات بالقول إننا عاهدنا الله وصدقنا، وثق بنا القائد الأعلى فنفذنا المهام التي كلفنا بها، وأكرر الحمد لله، وأنا أكتب هذه الذكريات في شهر أكتوبر الذي تربطني به علاقة خاصة؛ ففيه ولدت وفيه عُينت وزيرًا للحربية وقائدًا عامًّا للقوات المسلحة، وفيه أيضًا قامت الحرب التي اقتحمنا بها حاجز الصلب واللهب وحطمنا نهائيًّا نظرية الأمن الإسرائيلي ورفعنا رأسنا عاليًا، وفيه رُقيت إلى رتبة المشير.

ماذا أريد بعد ذلك؟

إنني أحمد الله ولا أملُّ شكره والسجود له..

وأحني رأسي لمصر ولأمتنا العربية عرفانًا وولاء..

وأقف في خشوع لأحيي أرواح الذين أسهموا في صنع النصر من شهدائنا الأخيار وللجرحى على طريق الشفاء والأمل.

وأقدم عهدًا جديدًا للقائد الأعلى الرئيس محمد أنور السادات الذي وثق بنا وفتح بتحمله المسئولية الكبرى صفحة ناصعة في تاريخنا.

كما أسجل تحية النصر إلى رفاق السلاح من قادة وضباط صف وجنود، درع مصر وسيفها البتار.

وتقديرًا وإعجابًا خاصًّا لقائد سوريا الرئيس حافظ الأسد وللرفاق في قواتها المسلحة وضباطها والصف والجنود الذين كانوا على مستوى المسئولية فانتزعوا النصر وقهروا العدو المتغطرس.

كما ندين بالشكر والعرفان لكل الذين شاركوا في معركة شرف الأمة وحريتها من الدول العربية الشقيقة سواء تلك التي أسهمت بالرجال أو السلاح أو المال أو حتى التأييد.

وأخيرًا...

فإنني لست بأفضل زملائي الذين أعطوا أرواحهم وحياتهم وعصارة فكرهم وجهدهم فداءً للوطن...

لست إلا رجلًا بين هؤلاء الرجال، أتاحت لي الظروف أن أتولى القيادة فوفقني الله بهم... ووفقنا جميعًا إلى تحقيق أمل أمتنا فينا..

أحمد إسماعيل

▲ الرئيس السادات يكرم المشير أحمد إسماعيل بعد حرب أكتوبر.

▲ الرئيس والمشير يؤديان التحية العسكرية للعلم المصري أمام مجلس الشعب بعد حرب أكتوبر.

الوثائق والصور

البحث عن الذات ٤٣٦

الرئيس

بسم الله

توجيه صادر الى القائد العام للقوات المسلحة
ووزير الحربية الفريق أول احمد اسماعيل على

أولا ـ عن الوضع العام

١ ـ لقد مضت حتى الان اكثر من ست سنوات على احتلال العدو الاسرائيلى لاجزاء من التراب العربى .

٢ ـ ان اسرائيل مؤيدة بدعم أمريكى خصوصا فى مجال امدادات السلاح .. حاولت وتحاول فرض ارادتها علينا وانهاء أزمة الشرق الاوسط على نحو يحقق لها سيطرة شبه مطلقة فى المنطقة العربية وفى أمنها وفى مصائرها .

٣ ـ ان مصر حاولت بكل الوسائل ، ومنذ صدر قرار وقف اطلاق النار عن مجلس الامن فى ٨ يونية ١٩٦٧ أن تجد

(يتبع)

▲ توجيه القائد العام للقوات المسلحة قبل حرب أكتوبر.

الرئيس

- ٢ -

حلا للازمة .. وفى هذا السبيل فقد تحركت وسائلها من قبول قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ بتاريخ ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ الى قبول جهود السفير جونار يارنج ، ثم جهود الدول الاربعة الكبرى ، ثم جهود قامت بها القوتان الاعظم ، ثم مبادرة تقدم بها وزير الخارجية الامريكية وليام روجرز ، حتى تقدمت مباشرة بمبادرة لحل يكون فيه فتح قناة السويس بداية لمراحل انسحاب شامل تطبيقا لقرار مجلس الامن .

ولكن كل هذه الجهود لم تصل الى نتيجة ، فهى اما فشلت أو توقفت .. أو حاول اعداؤنا الشروع بها عن مقاصدها .

٤ - ان مصر قامت بعمليات عسكرية ذات طابع محدود فى سنوات ١٩٦٨ و ١٩٦٩ و ١٩٧٠ ، كذلك قدمت دعما كبيرا لقوات المقاومة الفلسطينية لمباشرة عمليات

(يتبع)

▲ تابع توجيه القائد العام للقوات المسلحة قبل حرب أكتوبر.

البحث عن الذات ٤٣٨

الرئيس

- ٣ -

دفاعية على الخطوط أو داخل الارض المحتلة .. ولكن هذه العمليات كلها وان أدت الى نتائج لهـــا أثرها فانها لاسباب متعددة لم تصل فى ضغطهـــا على العدو الى الحد اللازم .

٥ - ان مصر كانت تدرك طول الوقت انه سوف يجيء وقت يتعين عليها فيه أن تتحمل مسئولياتها .. وكــان اهم ما يجب ان نعنى به هو أن نوفر لهذا اليوم كل ما نستطيع .. وفى حدود طاقتنا .. ومع التزامنا بواجب الدفاع عن التراب والعرض .

٦ - ان الشعب فى مصر تحمل بأكثر مما كان يشعر أحد خصومه وأصدقاؤه على السواء .. ولقد كانت الاعباء التى تحملها الشعب ، مادية ومعنوية ، اعباء فادحــة لا يتحملها الا شعب يؤمن بالحرية ويضحى فـــى سبيلها .

(يتبع)

▲ تابع توجيه القائد العام للقوات المسلحة قبل حرب أكتوبر.

الرئيس

- ١ -

٧ - أن تصدعات مهمة طرأت على الموقف السياسي العربي عموما وزادت من احتمالات تأثيره .. ومع تزايد أهمية أزمة الطاقة وأزمة النقد في العالم فإن النفط العربي في أحوال ملائمة يستطيع أن يكون عاملا له قيمته .

٨ - أن تأثيرات الموقف العربي العام تجلت بشكل واضح في أوضاع تسليحنا .. فإلى جانب ما حصلنا عليه من الاتحاد السوفييتي والكتلة الشرقية ، وهو كثير ، فقد أتيحت لنا من مصادر أخرى أنواع من السلاح لم تكن متوفرة لنا .

٩ - أن العدو في شبه عزلة عالمية بعد الجهود المصرية الناجحة في مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة ومؤتمر منظمة الوحدة الأفريقية الأخير في أديس أبابا ، ومؤتمر الدول غير المنحازة الذي عقد في الجزائر .

(يتبع)

▲ تابع توجيه القائد العام للقوات المسلحة قبل حرب أكتوبر.

البحث عن الذات ٤٤٠

الرئيس

- ٥ -

١٠ - ان الموقف الدولى يتغير .. وما زالت حركته متجمدة .. وقد نجد أنفسنا أمام توازنات طويلة الاجل تؤثر على حرية حركتنا وعلى حقنا فى الاختيار لتوسيع أمامه البدائل .

ثانيا - عن استراتيجية العدو ..

ان العدو الاسرائيلى كما نرى انتهج لنفسه سياسة تقوم على التخويف ، والادعاء بتفوق لا يستطيع العرب تحديه .. وهذا هو اساس نظرية الامن الاسرائيلى التى تقوم على الردع النفسى والسياسى والعسكرى .

ان نقطة الاساس فى نظرية الامن ، الاسرائيلى هى الوصول الى اقناع مصر والامة العربية انه لا فائدة من تحدى اسرائيل ، وبالتالى فليس هناك مفر من الرضوخ لشروطها حتى وان تضمنت هذه الشروط تنازلات عن السيادة الوطنية .

(يتبع)

▲ تابع توجيه القائد العام للقوات المسلحة قبل حرب أكتوبر.

الرئيس

- ٦ -

ثالثا - عن استراتيجية مصر فى هذه المرحلة

ان الهدف الاستراتيجى الذى يتحمل (أتحمل) المسئولية السياسية فى اعطائه للقوات المسلحة المصرية .. وعلى اساس كل ما سمعت وعرفت من أوضاع الاستعداد يتلخص فيما يلى :

تحدى نظرية الامن الاسرائيلى وذلك عن طريق عمل عسكرى (حسب امكانيات القوات المسلحة) يكون هدفه الحاق اكبر قدر من الخسائر بالعدو واقناعه (واقناعه ان) مواصلة احتلاله لاراضينا يفرض عليه ثمنا لا يستطيع دفعه .. وبالتالى فان نظريته فى الامن - على اساس التخويف النفسى والسياسى والعسكرى - ليس درعا من الفولاذ يحميه الان أو فى المستقبل .

واذا استطعنا بنجاح أن نتحدى نظرية الامن الاسرائيلى فان ذلك سوف يؤدى الى نتائج محققة فى المدى القريب وفى المدى البعيد .

(يتبع)

▲ تابع توجيه القائد العام للقوات المسلحة قبل حرب أكتوبر.

الرئيس

— ٧ —

فى المدى القريب : فان تحدى نظرية الامن الاسرائيلى يمكن أن يصل بنا الى نتائج معقدة تجعل فى الامكان ان نصل الى حل مشرف لازمة الشرق الاوسط .

وفى المدى البعيد : فان تحدى نظرية الامن الاسرائيلى يمكن أن يحدث متغيرات تؤدى بالتراكم الى تغيير اساسى فى فكر العدو ونفسيته ونزعاته العدوانية .

رابعا — عن التوقيت

ان الوقت من الان ، ومن وجهة نظر سياسية ملائمة كل الملائمة لمثل هذا العمل الذى اشرت اليه فى ثانيا من هذا التوجيه .

ان أوضاع الجبهة الداخلية وأوضاع الجبهة العربية العامة بما فى ذلك التنسيق الدقيق مع الجبهة الشمالية ، وأوضاع المسرح الدولى تعطينا من الان فرصة مناسبة للبدء .

(يتبع)

▲ تابع توجيه القائد العام للقوات المسلحة قبل حرب أكتوبر.

الرئيس

– ٨ –

ومع العزلة الدولية للعدو .. ومع الجو الذي يسود عنده بنزاعات الانقسامات الحزبية وصراعات الشخصيات – فان احتمالات الفرصة المناسبة تصبح احسن أمامنا .

القاهرة ٥ رمضان ١٣٩٣
أول اكتوبر ١٩٧٣

رئيس الجمهورية
[illegible] السادات

▲ تابع توجيه القائد العام للقوات المسلحة قبل حرب أكتوبر.

المشير أحمد إسماعيل شابًا

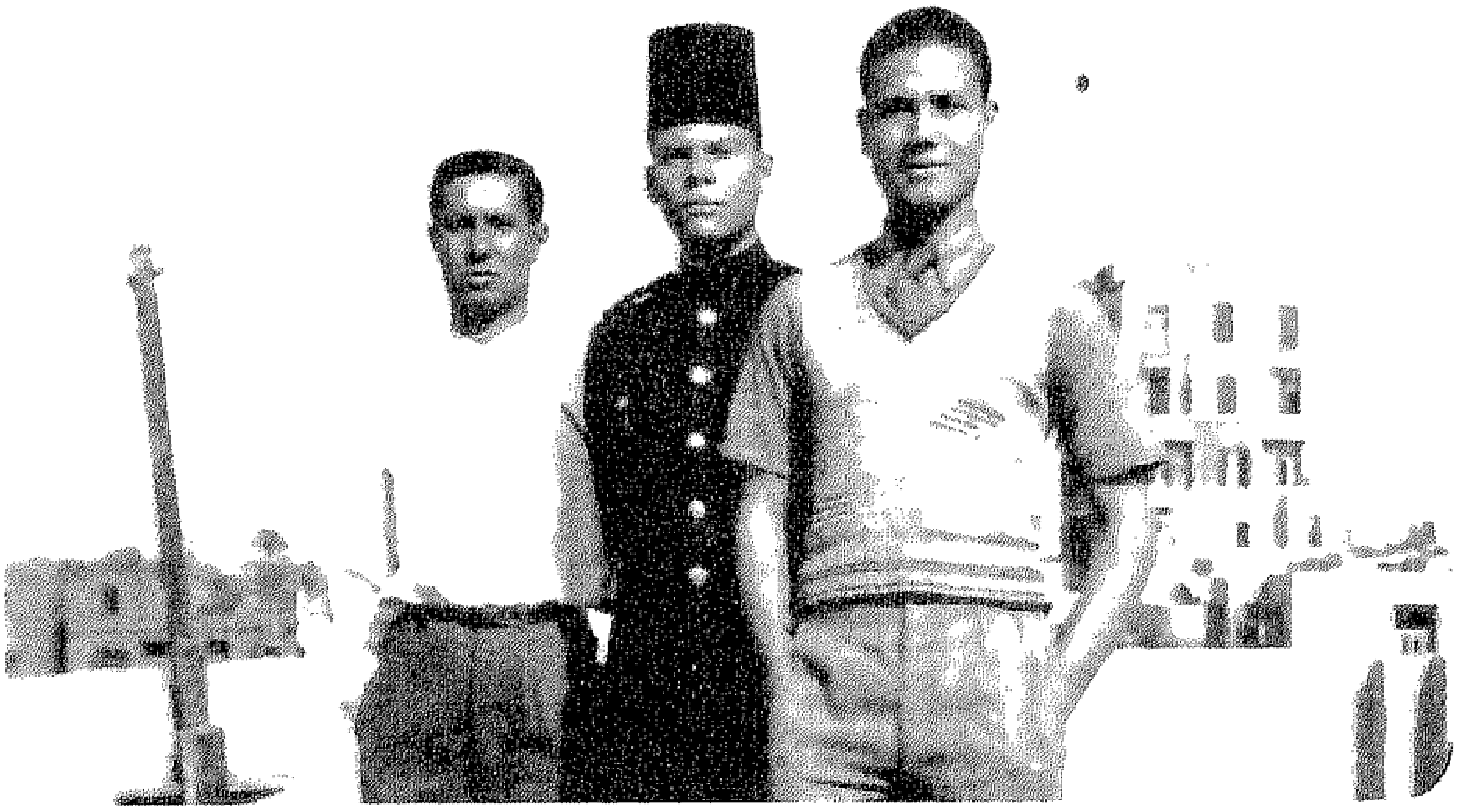

▲ مع الأصدقاء.

▲ بزي الجوالة.

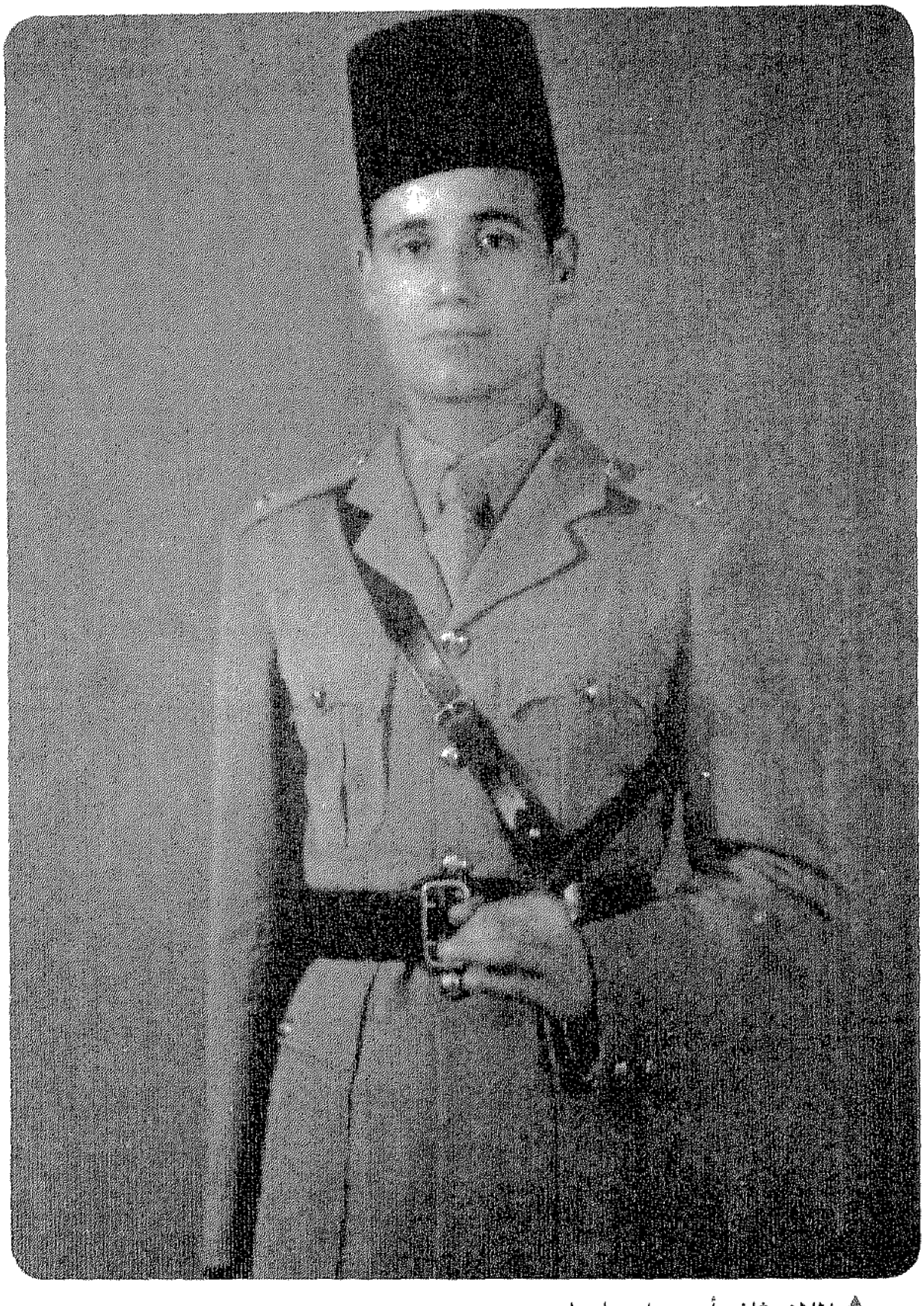

▲ الملازم ثاني أحمد إسماعيل.

المشير أحمد إسماعيل... والاستعداد للحرب

▲ في القناطر الخيرية مع الرئيس السادات.

▲ المشير أحمد إسماعيل في مركز العمليات مع الرئيس السادات بحضور قادة القوات المسلحة.

▲ المشير أحمد إسماعيل يزور جرحى أكتوبر 1973.

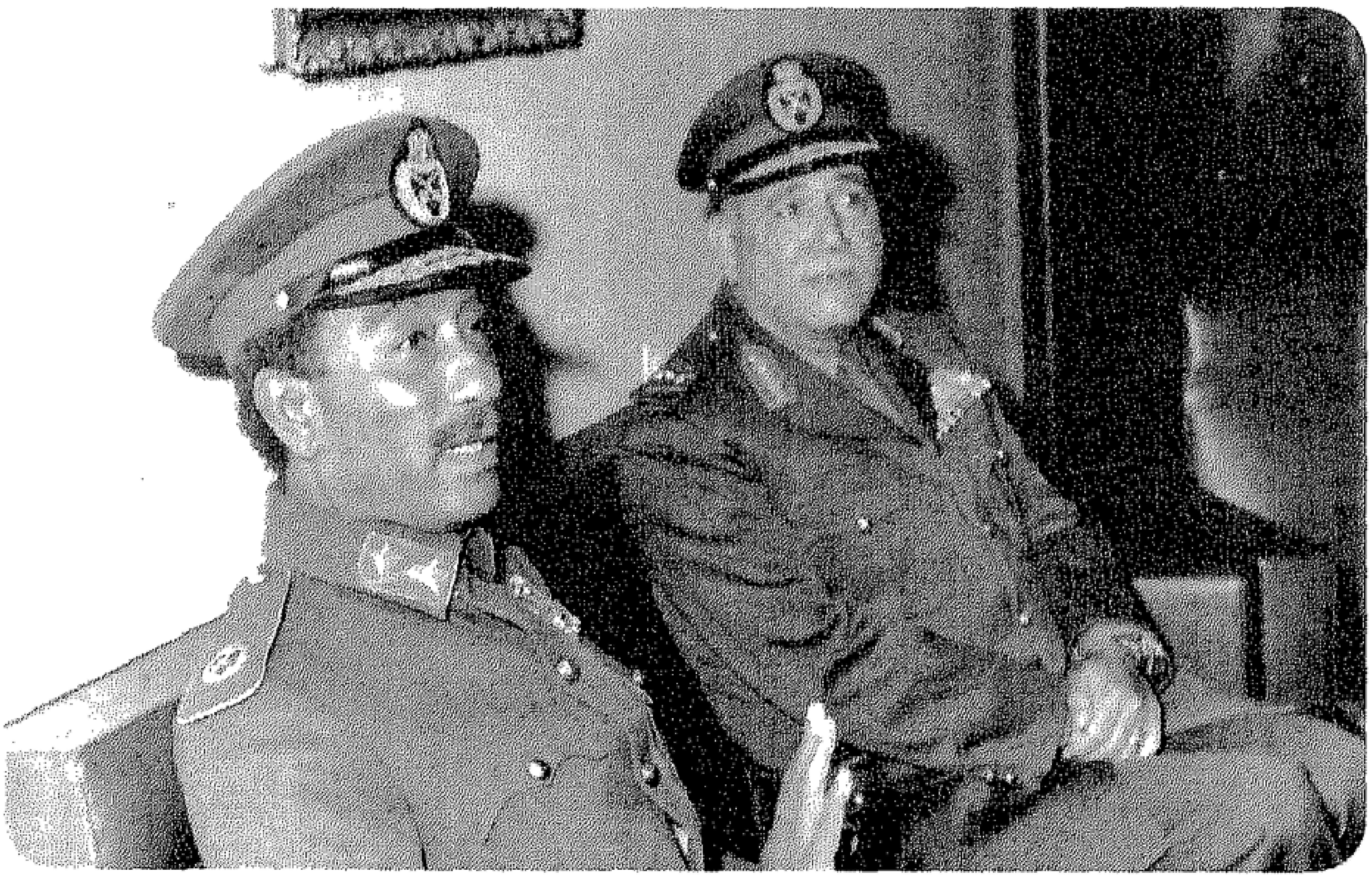

▲ المشير مع الرئيس السادات بعد الحرب.

أحمد إسماعيل وزير الحربية

▲ أثناء زيارته لموسكو.

▲ .. مع الرئيس السادات في جولة تفقدية.

▲ أثناء زيارة الرئيس السادات للجبهة.

▲ المشير أحمد إسماعيل والأمير سلطان بن عبدالعزيز وزير الدفاع السعودي والرئيس السادات.

هكذا كانت مصر له دائمًا... في المقدمة

جنازة المشير أحمد إسماعيل رحمه الله

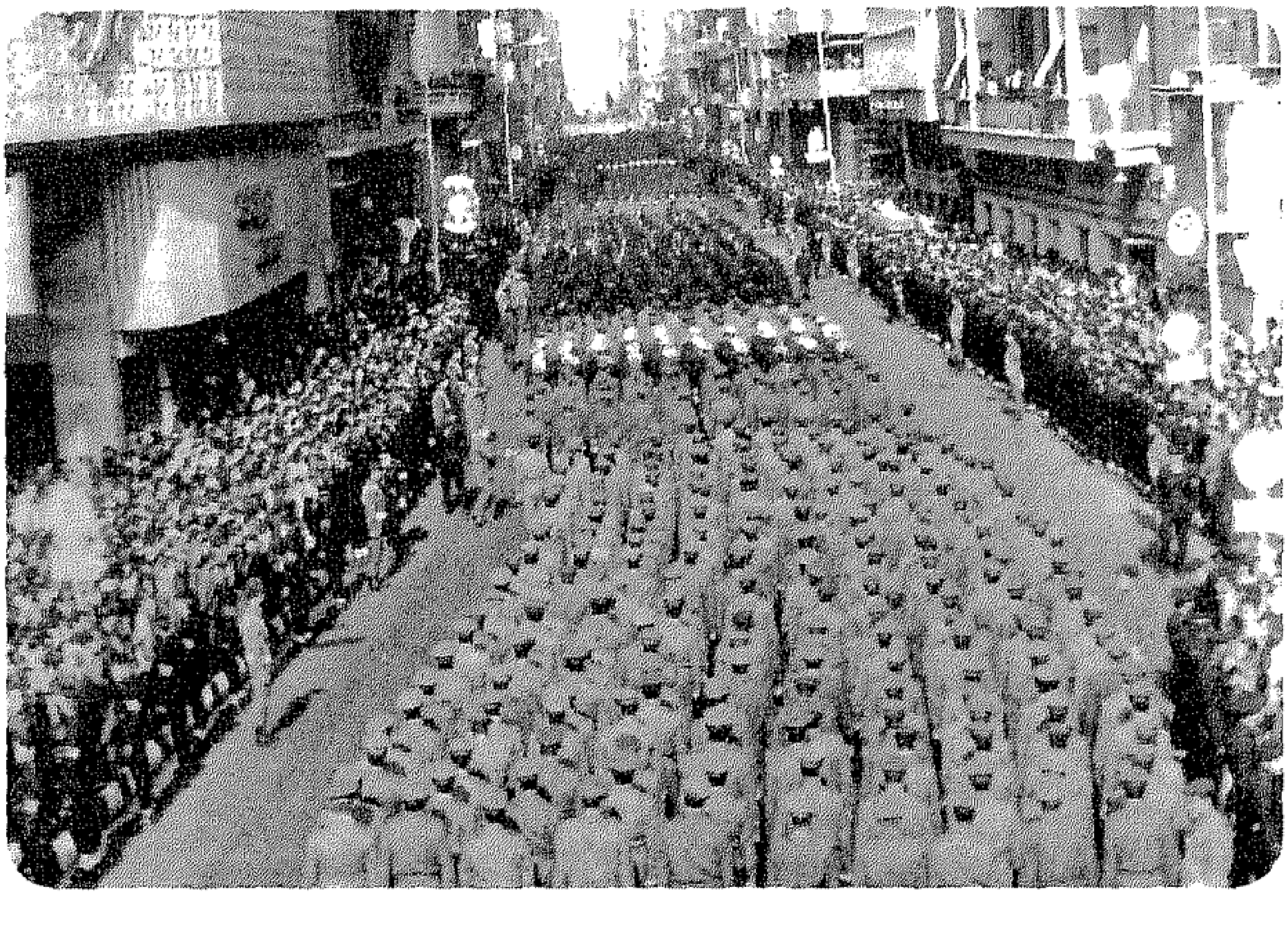

تابع: جنازة المشير أحمد إسماعيل رحمه الله

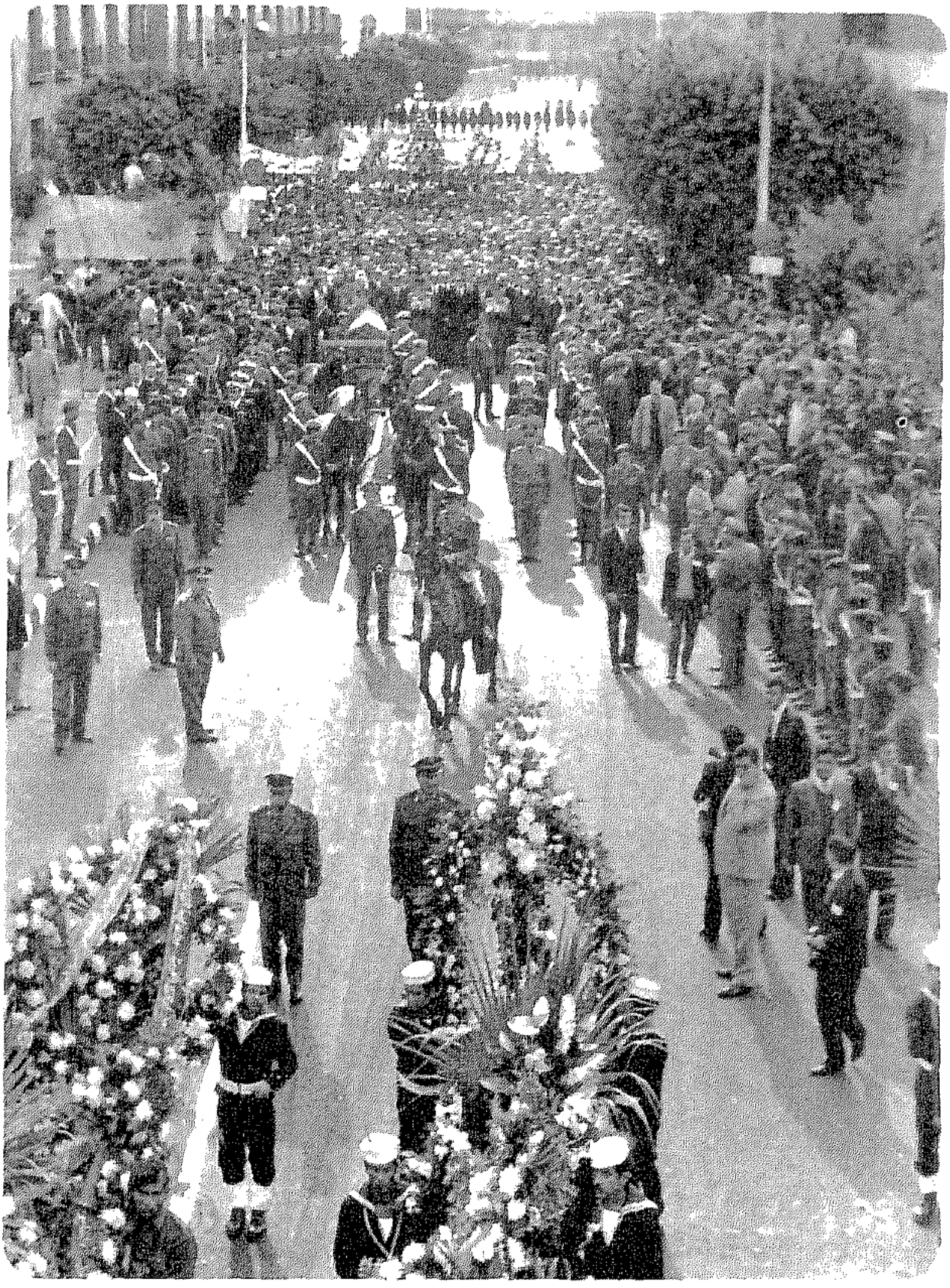

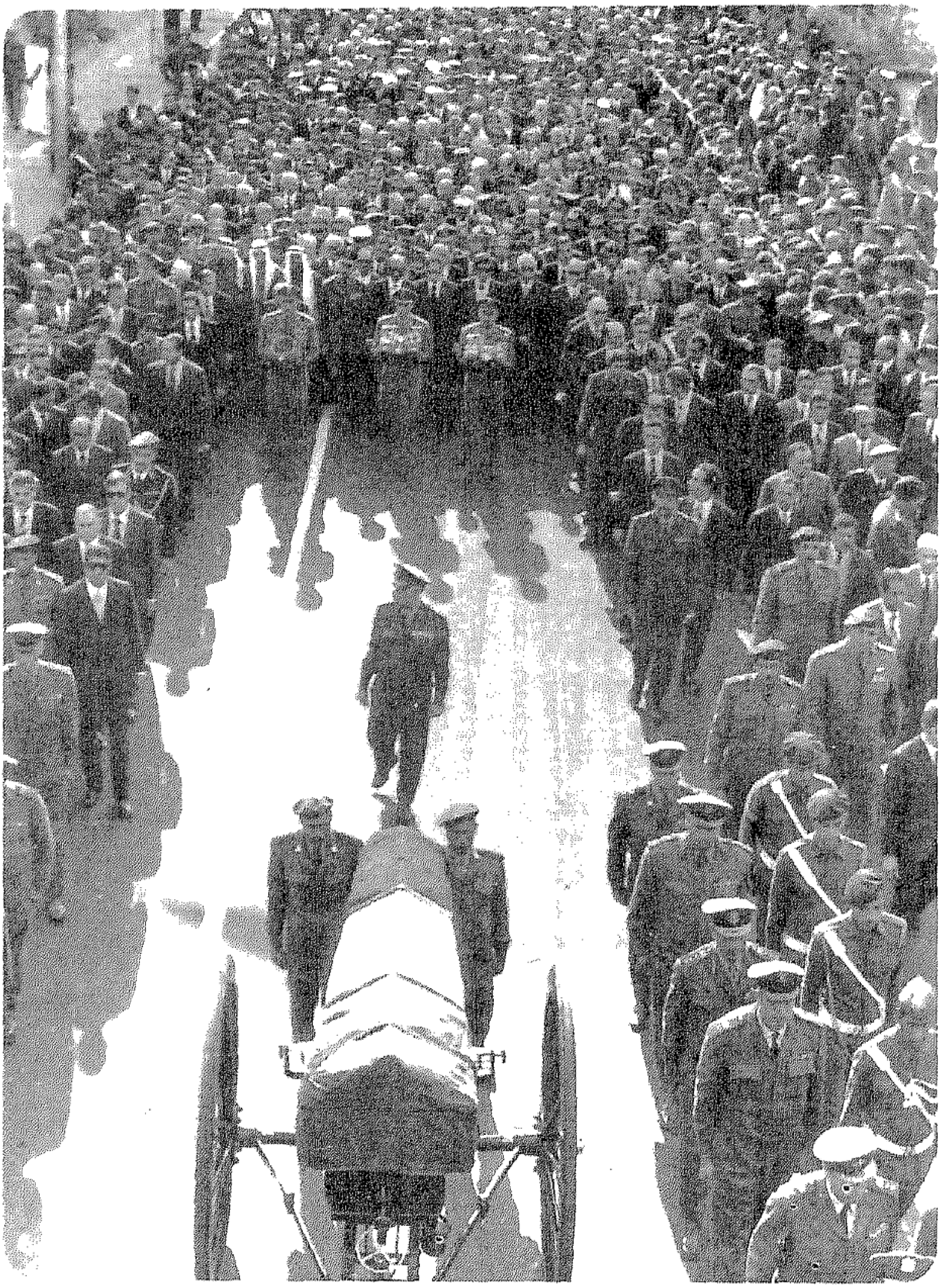

الفهرس

«لموا الكراريس» 3

قبل أن تقرأ ـ لماذا المذكرات الآن؟ 7

مقدمة الناشر.. 13

سيرة حياة.. 19

مذكراتي.. 33

السلاح السوفيتي 37

النكسة والتحدي.. 45

مشوار الحياة والحرب مع عبدالمنعم رياض 59

ضربات الاستنزاف 65

«التقاعد» للمرة الثانية.. 71

خطة في رسالة لم تذهب إلى صاحبها 79

زمن المؤامرات 91

.. ورحل الرئيس.. 101

ليلة المطاردة بدخول المخابرات العامة........ 107
التكليف والاستعداد........ 127
ضرب نظرية الحدود الآمنة........ 149
حسابات النصر والهزيمة........ 165
الساتر.. القناة.. الخط.. نكون أو لا نكون........ 179
قبل العاصفة........ 187
حرب الكرامة........ 195
حقيقة الثغرة........ 205
لم يشرب العرب بترولهم........ 215
خاتمة........ 221
الوثائق والصور........ 225

دار نهضة مصر
للنشـــــر

وسط كل الأصوات الرافضة لخوض حرب جديدة لتحرير الأرض، كان هو الصوت الوحيد المؤيد لضرورة بدء عملية التحرير مهما كان الثمن. كان يعلم أنه كبش الفداء في حال الهزيمة، واسم قد لا يلتفت له أحد لو تحقق النصر، ولكنه كان يمتلك من الإصرار وحب الوطن وإنكار الذات أمام المبادئ، ما زاد من إصراره على تأييد قرار الرئيس محمد أنور السادات في الحرب على إسرائيل.

من هنا كانت أهمية أوراق المشير أحمد إسماعيل - وزير الحربية المصري في حرب أكتوبر - التي تركها مكتوبة بخط اليد. فكانت ورغم قلتها، كنزًا يُحفزنا على نشرها في كتاب يحمل اسم الرجل الذي لم يهتم أن يخلده أحد، بقدر ما عُنِيَ بأن يحمل النصر لبلاده مهما كلفه الأمر. فرغم اختصار نصر أكتوبر في عبور حمل اسم الرئيس السادات، وضربة جوية حملت اسم الرئيس مبارك - مع احترامنا لكل مجهود في تلك الملحمة - فإن هنال
بحاجة لمئات الكتب كي يُمنح كل ذي حق حقه.

Bibliotheca Alexandrina
1194528

تصميم: كريم آدم

للطلب والاستفسار اتصل على
16766
www.nahdetmisr.com
our page/nahdet misr group
YouTube
دار نهضة مصر للنشر
6 221133 347594